مِنْحَةُ المَوْلَى

شَرْحُ القَوَاعِدِ المُثْلَى

منحة المولى

شرح القواعد المثلى

تأليف

سالم بن سعد الطويل

اعتنى به

فهد بن سالم الطويل



تم تنسيق هذه المادة ومراجعتها في
مكتب إتقان للتنسيق والتحقيق والدراسات
(ت: ٠٠٩٦٦٥٥٠٣٥٠٠٧٧)

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله، نحمَدُهُ ونستَعِينُـهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أَنْفسنا، ومن سيِّـئات أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُهُ.

أمَّا بعدُ: فهذا شرحٌ لكتاب «**القواعد المُثلى في صفات الله وأسمائه الحُسنى**» لشيخنا العلَّامة محمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو كتابٌ نافعٌ مفيدٌ حسنٌ في بيان أهمِّ قواعدِ الأسماء والصِّفات، ناقش فيه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض المسائل والشُّبُهات وبيَّن الحقَّ فيها، ولقد استفدتُ منه كثيرًا وشرحته نحوَ عشرِ مرات، وقد رأى بعض الإخوة أن أطبع شرحي على الكتاب وتعليقي عليه، فأجبتُـه لذلك راجيًا من الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفع به من شاء من عباده، واللهَ أسألُ أن يجزي شيخَنا محمدًا العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ خير الجزاء، وكلَّ من ساهم في إخراج هذا الشرح، وأخصُّ منهم ابني فهد بن سالم –وفقه الله– على جهوده في مراجعة الكتاب والعناية به، بارك الله في علمه، وعمله، وعقبه، والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه راجي ربه الغفور
سالم بن سعد الطويل
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
١٢ ربيع الأول ١٤٣٨ هجرية
١١ ديســـمبر ٢٠١٦ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

المتن

الحمدُ لله، نحمدُهُ، ونستعينُـهُ، ونستغفرُه، ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله مِن شرورِ أنفسِنا، ومِن سيِّـئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريك لهُ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُـهُ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابِهِ، ومَن تبعهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا. وبعدُ:

بدأ المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ كتابه بخُطبةِ الحاجة، ولم يَثبُت في الخُطبة لفظ: **(ونتوب إليه)**[١]، ولكنَّ الشيخَ رَحِمَهُ اللهُ لم يلتزم إيرادَ نصِّ خطبة الحاجة، وهذا لا بأس به.

قوله: (الحمد لله)، الحمد هو: وصفُ المحمود بالكمال الـمُطلق مع المحبَّة والتَّعظيم.

والألف واللام في **(الحمد)** للاستغراق؛ وضابطُهُ صحَّة إبدالها بلفظ (كلُّ)، واللام في قوله: **(لله)** للاستحقاق، والمعنى: أنَّ كلَّ حمدٍ مُستحَقٌّ لله عَزَّ وَجَلَّ.

فكانت هذه الكلمة العظيمة دالَّةً على صفات الكمالِ والجمالِ والجلالِ والعظمةِ والكبرياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (نحمدُهُ)، أي: نَصِفُهُ بالكمال الـمُطلق تعبُّدًا مِنَّا له.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الجملة انتشرت في كتب العلماء، لكنَّها ليست في حديث خُطبة الحاجة، وإذا قالها الإنسان فأرجو ألا يكون عليه بأس، وإن حذفها فهو أولى». [شرح القواعد المثلى (ص: ١٩)].

فينبغي للمُسلمِ أن يتدبَّـرَ هذه الكلمة العظيمة، وأن يكون حامدًا لله ﷻ في أحواله كلِّها مع كمال الحبِّ والخوف والرَّجاء.

قوله: **(ونستعينه)**، أي: نطلب منه العون، لأنَّ العبد لا يمكن أن يُوفَّق في شيءٍ من أمر دينه ولا دنياه إلا بعونٍ من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ولذلك يجبُ على المسلم أن يعلِّق قلبه بالله ﷻ راجيًا منه العون، وأن يستحضر هذا الأمر في كلِّ لحظة من لحظات حياته، وعَطفُ الاستعانة على العبادة مع كونها فردًا من أفرادها، من بابِ عطف الخاصِّ على العامِّ بيانًا لأهميتها.

قوله: **(ونستغفره)**، أي: نطلب منه المغفرة، والمغفرة معناها: سترُ الذَّنب والتجاوز عنه، أي: نسأل الله أن يستر ذنوبنا ويزيل أثرها عنَّا، وأصل المغفرة من (الـمِغفَرِ) وهو الغطاء الذي يُوضَع على الرَّأس في الحرب، والسين والتاء تأتيان غالبًا للطَّلب، مثل قولنا: استَسقى، أي: طلبَ السُّقيا، وقولك: استرحم إذا طلب الرَّحمة.

قوله: **(ونتوب إليه)**، أي: نرجع إليه بالتوبة النَّصوح بشروطها.

قوله: **(ونعوذ بالله من شرور أنفسنا)**، أي: نلجأ إلى الله ﷻ ونعتصم به ليعيذنا من شرور أنفسنا، وذلك أنَّ النفوس فيها شرٌّ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾، فالله ﷻ شَرَعَ لنا أن نستعيذ به من شرور أنفسنا ومن كلِّ ذي شرٍّ، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾، وفي الحديث: «**أعوذ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ الشيطان وشركِهِ**»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» حديث رقم: (٥٠٦٧)، والترمذي في «جامعه» حديث رقم: (٣٣٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم: (٤٤٠٢).

وقال ﷺ: «**أعوذ بك من شرِّ كل ذي شرٍّ**»[(١)].

قوله: (ومن سيِّئات أعمالنا)، الأعمال منها ما هو سيِّء، **والسَّيِّئة**: إمَّا تفريط في المأمور وإمَّا وقوع في المحذور، ومن فرَّط في مأمور أو وقع في محذور فقد وقع في سيِّئات الأعمال التي تجلبُ له العذاب أو يستحقُّه بها؛ لذلك ناسَبَ أن يستعيذ المسلم بالله ﷻ من سيِّئ الأعمال.

قوله: (من يهده الله فلا مضلَّ له)، أي: من كَتَبَ الله له الهداية، وجعلها في قلبه، ووفَّقه إلى الصِّراط المستقيم فلا يمكن لأحد أن يُضِلَّه، فلو اجتمعت الإِنس والجنُّ على أن يسلبوا أحدًا هدايته ما استطاعوا؛ لأن الأمر كله بيد الله ﷻ؛ لذا شرع الله ﷻ لنا على لسان رسوله ﷺ قراءة سورة الفاتحة في كلِّ صلاة؛ وفيها قوله ﷻ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

قوله: (ومن يضلل فلا هادي له)، أي: من ختم الله ﷻ عليه بالضَّلالة لسابق علمه بأنه لا يستحقُّ الهداية؛ لأنه زاغ فأزاغ الله قلبه، فهذا لا سبيل لهدايته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

قوله: (وأشهد أن لا إله إلا الله)، (أشهد): أُقِرُّ بقلبي وأعترف بلساني أن لا إله إلا الله، أي لا معبود حقٌّ إلا الله، وهذه أعظمُ شهادةٍ لأنه شهد بها أعظم شاهد، وهو الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

قوله: (وحده لا شريك له)، فقوله: **(وحده)** تأكيد للإثبات في قوله: **(إلا الله)**، وقوله: **(لا شريك له)** تأكيد للنفي في قوله: **(لا إله)**، أي: لا معبود يستحق العبادة إلا الله ﷻ وحده، قال جل وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» حديث رقم: (٢٧١٣)، والترمذي في «جامعه» واللفظ له، حديث رقم: (٣٤٠٠).

دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾[الحج:٦٢].

قوله: **(وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله)**، أي: أُقرُّ على علم ويقين بأنَّ محمَّدًا ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشيَّ عبدُ الله ورسولُه إلى الثقلين الجن والإنس، وأن الله ﷻ اصطفاه، وجعله واسطة تبليغ بينه ﷻ وبين عباده يُبَلِّغهم دينه، فجمع بين العبوديَّة والرِّسالة لبيان أنه عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذَّب.

ولابدَّ للمسلم أن يشهد هذه الشهادة، وإلا ما صحَّ إيمانه أبدًا، ولذلك ناسبَ أن تتكرَّر هذه الشهادة في مناسبات عِدَّة كالتشهُّد والأذان[١].

ثم قال: **(صلى الله عليه)**، وصلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، وصلاة العبد على محمد ﷺ طلب الثناء عليه في الملأ الأعلى، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾، فيقول: اللهم صلِّ على محمد، أو صلى الله عليه.

ثم قال: **(وعلى آله)**، الآل معناها الأتباع، لكن إذا اقترنت الآل بالصحب صار المراد بـ(الآل) القرابة؛ أي قرابته المؤمنون.

(وصحبه): جمع صاحب، وهو من لَقِيَ النبيَّ ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

قوله: **(ومن تبعهم بإحسان)**، أي: تبعهم عقيدةً، ومنهجًا، وعبادةً، وأخلاقًا؛ لأن الله ﷻ قد أكمل لهم الدين، وأتمَّ عليهم النِّعمة، ورضي لهم الإسلام دينًا، فتمسَّكوا به حقَّ التمسُّك، فكانوا أسوة حسنة، فمن تبعهم فقد فاز، ومَن خالَفَهُم فقد خاب وخسر، فعلى المسلم أن يتمسَّك بالأمر الأول العتيق.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: « **ألا فلا يُقَلِّدن رجلٌ منكم دينَـهُ رجلًا؛ إن آمَنَ آمَنَ،**

---

(١) وللشارح رسالةٌ مطبوعة بعنوان: «جَدِّد عهدك بـ (لا إله إلا الله)» ذكر فيها المواطن التي يُشرع فيها ذكر كلمة التوحيد.

وإن كَفَرَ كَفَرَ، فإن كنتم لابدَّ فاعلين فببعض مَن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة»[١].

قوله: (وسلَّم)، أي: سلَّم اللهُ رسولَهُ ﷺ وآله[٢] وأصحابه وأتباعه ممَّا يَسوؤهم في الدنيا والآخرة، وقوله: **(تسليماً)** توكيد لـ **(سلَّم)**، فالله ﷻ هو السلام، أي: سالمٌ من كل نقص وعيب وآفة ، ومُسلِّم غيره من الآفات والعيوب.



(١) أخرجه أبو داود في «الزهد» برقم (١٣٢)، وقال الهيثمي في «مَجْمع الزوائد» (١/ ١٨٠): **(رجاله رجالُ الصحيح)**.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «فالمراد بآله: كلُّ من اتَّبعه على دينه، ولهذا نقول: إنَّ الرجل إذا قال: (اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد) فقد دعا لنفسه؛ لأنه ممَّن اتبعه» [شرح القواعد المثلى ص٢٣].

المتن

فإنَّ الإيمانَ بأسماء الله وصفاته أحدُ أركان الإيمان بالله تعالى؛ وهي الإيمانُ بوجود الله تعالى، والإيمانُ بربوبيَّته، والإيمانُ بألوهيته، والإيمانُ بأسمائه وصفاته.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ركن الإيمان الأعظم وهو الإيمان بالله، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أركان الإيمان في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنها: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والأصل الأصيل العظيم من أصول الإيمان هو: الإيمان بالله، ومنه تتفرع بقية أركان الإيمان الخمسة، والإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ يقتضي أربعة أمور، لا يمكن أن يتمَّ إيمان عبد حتى يؤمن بها جميعًا:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيَّته.

الثالث: الإيمان بألوهيَّته.

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

قوله: (الإيمان بوجود الله)، أي: أن يؤمنَ العبدُ بأنَّ اللهَ موجودٌ، وهذا أمر قد دَلَّ عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، والحسُّ، لكن كيف دلَّ الحس على وجود الله عَزَّ وَجَلَّ؟

الجواب: باستجابته لعباده؛ يسألونه فيجيبهم، لو لم يكن موجودًا لما استجاب لهم؛ كما قال تعالى عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

فما من إنسان إلا ويتذكَّر كم استجابَ اللهُ ﷻ له، إن لم يستجب الله دعاءه بلسان مقاله، فقد استجاب دعاءه بلسان حاله، وما من إنسان يركب دابة أو سيارة أو يصعد طائرة، أو يستوي على سفينة إلا يسأل الله أن يصل سالماً فيستجيبُ الله ﷻ له.

بل وما من نبيٍّ إلا وذكر الله ﷻ في كتابه أنه استجاب له، فهذا نوح عليه السلام رجل واحد ، قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ فاستَجابَ الله له، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

وأيوب عليه السلام أصابه الضُّرُّ، فدعا ربه فاستجاب الله له، ونبينا محمد ﷺ دعا ربه ﷻ فقال: «**اللهم إن تـهْلِك هذه العِصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**»(١)؛ إذ لو هلك النبي ﷺ في هذه الغزوة وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة رضي الله عنهم لانتهى الإسلام وأهلُهُ، فدعا ربه دعاءً عظيمًا ذكره الله تعالى في كتابه فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، حتى المشركون عُبَّاد الأصنام والأوثان إذا ركبوا الفلك وغشيهم الموج دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

فلا يُنكِرُ وجود الله ﷻ إلا مكابر، حتى فرعون لـمَّا قال: (**أنا ربكم الأعلى**) قال ذلك على سبيل المكابرة، وإبليس يقرُّ بأن الله موجود، ويقر بأن الله ﷻ خَلَقَهُ؛ كما قال ﷻ مخاطبًا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] .

قوله: (والإيمان بربوبيّته)، الربوبيَّـة مُشْتَـقَّـةٌ من اسم (الـرَّبِّ)، قال تعالى:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٦٣).

﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، وقال ﷺ: «صدقة السرِّ تُطفئُ غضبَ الربِّ»[١].

والإيمان بربوبيَّته يقتضي أن نعتقد أن الله ﷻ متفرد بأفعاله، فلا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بأن الله ﷻ هو وحده الخالق المالك المُدبِّر، فهو جلَّ وعلا وحده يَخْلُق، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، وهو جلَّ وعلا وحده المالك المُدبِّر، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، فكل تدابير رب العالمين يفعلها جلَّ وعلا وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة دقيقة ومُحكمة: (هذا التوحيد هو من التوحيد الواجب، لكن لا يحصل به الواجب)[٢].

أي: الإيمان بالربوبيَّة واجب، لكن لا يتمُّ به الواجب، إذ الواجب يتمُّ بالإيمان بوجود الله ﷻ، وبربوبيَّته، وبألوهيَّته، وبأسمائه وصفاته.

ومما يدل على ذلك أن الإيمان بالربوبيَّة قد آمن به المشركون الأوائل، وما صاروا بذلك مؤمنين، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[لقمان:٢٥]، لذلك لم يُنكِروا على رسول الله ﷺ لـمَّا أخبرهم بالربوبيَّة بأن الله ﷻ هو ربكم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾[فاطر:١٣].

ومع هذا كلِّهِ لم ينفع الإيمانُ بالربوبيَّة فقط المشركين الأوائل ولا إبليس، لأنه لا يتمُّ به الواجب، فلابد من الإيمان ببقية الأركان.

ولا يجوزُ الاكتفاءُ بالدعوة إلى توحيد الربوبيَّة فقط -وهذا حَقٌّ- بل الواجبُ أن يدعوَ المسلمُ إلى توحيد الألوهية والأسماء والصفات أيضًا.

---

(١) أخرجه الشهاب «مسنده» برقم: (٩٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم: (١٩٠٨).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٨٧).

فإن قال قائل: الله ﷻ وحدَه الخالق، لكن ما توجيهُ قوله ﷻ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾، الذي يدلُّ ظاهرهُ على أن هناك أكثر من خالق؟

التوجيهُ: أنَّ الخلقَ له إطلاقان:

١- الإيجاد من العدم.

٢- تحويل الشيء من مادَّة إلى أخرى.

فأمَّا إيجاد الشيء من العدم فهذا لا يكون إلا لله تعالى، وأمَّا تحويل الشيء من مادة إلى مادة أو من هيئة إلى هيئة فهذا يقدر عليه الإنسان، ولذلك يقول عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٤٩].

إذًا لم يخلق طيرًا من عدم وإنَّما خَلَقَهُ من طين، أما القادر على أن يخلق الشيء من العدم فهو الله ﷻ وحده لا شريك له.

لكن نَجِدُ بعض الناس يقول: الساحر يُدخل يده في جيبه فيُخرِجُ حمامةً، أو أرنباً، فهل يعتبر هذا خلقًا؟

الجواب: لا، هذا ليس خَلْقًا، هذا لا يخلق حمامةً، ولا أرنباً، وإنَّما هذا تمويه على أعين الناس، كما قال ﷻ عن سحرة فرعون: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾.

وكذلك لو قال قائلٌ: كيف يقال: الله ﷻ المالك وحده، وقد قال تعالى: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ [النور:٦١]؟

الجواب: الـمُلْكُ المطلقُ لله ﷻ، وأما الـمُلْـكُ الصُّوريُّ المؤقَّت المحدود فهذا قد يملكه الإنسان ، ففلان يملك البيت الفلاني، وأما الذي يملك ملكًا مطلقًا تامًّا لا يخرج عن ملكه ذرَّة، وكلُّ شيءٍ بأمره وتدبيره، فذلك هو الله ﷻ

وحده لا شريك له.

لذا لو أن شخصاً أحرق شيئًا من ملكه أو أتلفه لكان ملامًا شرعًا وعقلًا وعرفًا؛ لأن ملكه ليس تامًّا .

لكن إن أرسل الله ﷻ الصَّواعق أو زلزل الأرض، فليس لأحد أن يسألَ الله ﷻ لِـمَ فعل ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ولا يفعل الله ﷻ ذلك إلا لحكمة تامة، قال تعالى:﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩] ، وقال ﷻ:﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[هود:٤٥].

وقوله: (**والإيمان بالأُلوهيَّـة**)، الأُلوهيَّة اشتقاق من (الإله)، لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة الثانية ثم أدغمت اللام الأولى مع الثانية فصارت (الله)، ومعنى الإله المألوه، أي: المعبود حبًّا وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وذلًّا وخضوعًا، فالإله الحق هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

فهناك معبودات كثيرة باطلة وإن سميت آلهة إلا أنَّها أسماء مجردة عن استحقاق العبادة، قال الله تعالى :﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣]، و(إنْ) إذا جاء بعدها (إلا) صارت بمعنى (ما) النافية فيكون معنى الآية (ما هي إلا أسماءٌ) ، فسُميت آلهة زورًا وبهتانًا ، فلا تستحقُّ أن تُعْبَدَ، وإنها الإله الحقُّ المستحقُّ أن يُعْبَدَ هو الله ﷻ وحده لا شريك له.

ثم قال: (**والإيمان بأسمائه وصفاته**) وهو موضوع الكتاب، وهذا الباب قد كَـثُـرَ فيه الخلاف بين طوائف المسلمين، وأمَّا الإيمان بالألوهية فقد كثر فيه الخلاف بين الرسل وأقوامهم ومازال منتشرًا بل أصبح أكثر وأوسع من القديم، أمَّا الخلاف في الإيمان بالأسماء والصفات فقد كثر بين طوائف المسلمين، وهذا الخلاف الكثير الذي وقع تصدى له أهل السُّنَّة والجماعة، فحقَّقوه، ودعوا إلى

الإيمان بالأسماء والصفات وفق كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ فقالوا: نؤمن بما جاء في كتاب الله ﷻ وعلى لسان رسوله ﷺ، فنُـثْبِتُ لله ﷻ ما له من الأسماء الحسنى والصفات العُلا، من غير تعطيل ولا تحريف، ومن غير تمثيل ولا تكييف.



المتن

وتوحيدُ الله به أحدُ أقسام التوحيد الثلاثة: توحيدُ الربوبية، وتوحيدُ الألوهية، وتوحيدُ الأسماء والصفات.

فمنزلته في الدين عاليةٌ، وأهميتُـهُ عظيمةٌ، ولا يمكن أنَّ أحدًا يَعبدُ اللهَ على الوجهِ الأكمل حتى يكونَ على علمٍ بأسماء الله تعالى وصفاتِه؛ ليعبدَه على بصيرة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾.

عبادة الله مبنيَّةٌ على العلم بأسمائه وصفاته، ولذلك كلما ازداد الإنسان معرفة بالله ازداد عبادة لله ﷻ، وخوفًا منه، وخشية له، وتعظيمًا، فالأمر كله يعتمد على معرفة الله ﷻ.

قال العلَّامة ابنُ القيِّم رحمه الله وهو يُبيِّن ثمرة معرفة أسماء الله تعالى وصفاته: «فكلَّما كان العبدُ بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلَّما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد»[(١)].

وبذلك يتبين لنا معنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾.

و(إنَّما) أداة حصر، أي: الخشية الكاملة من الله جل جلاله يتصف بها العلماء لأنهم أعلم بالله من غيرهم.



(١) «الكافية الشافية» (ص٩).

المتن

وهذا يشملُ دعاءَ المسألة ودعاءَ العبادة.

فدعاءُ المسألةِ: أن تقدِّم بين يدي مطلوبك من أسماء الله تعالى ما يكونُ مناسبًا مثل أن تقولَ: يا غفورُ اغفر لي، ويا رحيمُ ارحمني، ويا حفيظُ احفظني، ونَحْوُ ذلك.

دعاء المسألة: هو أن تتوسَّل إلى الله ﷻ باسم من أسمائه الحسنى، فتدعو الله به وتسأله حاجتك، لكن لا بد أن تختار اسمًا مناسبًا لحاجتك، فإن أردت الـرِّزق تقول: يا رزاق ارزقني، وإن أردت المغفرة تقول: يا غفور أو يا غفَّار اغفر لي، وإن أردت الرحمة تقول: ارحمني يا رحمن يا رحيم، أو تقول: اغفر لي وارحمني إنَّك أنت الغفور الرحيم، وإذا أردت التوبة تقول: أستغفرك اللهم وأتوب إليك، يا تواب تُبْ عليَّ، وهكذا.

وبعضُ النَّاس يخطئ في هذا الباب، فتجده يدعو دعاءً ويتوسَّل إلى الله ﷻ باسم لا يناسب مسألته، كمَنْ يقول: اللَّهم عليك بأعداء الدين يا أرحم الراحمين، فيما ينبغي أن يقول: يا قويُّ، يا عزيزُ، يا شديدَ العقاب، هذا هو المناسب لدعائه على أعداء الدين.

فينبغي أن يكون الاسم الذي تتوسَّل به إلى الله وتدعوه به مناسبًا لمسألتك.



المتن

ودعاءُ العبادة: أن تتعبَّـدَ لله تعالى بمقتضى هذه الأسماء، فتقومَ بالتوبة إليه لأنه التَّواب، وتذكرَهُ بلسانك لأنه السَّميع، وتتعبدَ له بجوارحك لأنه البصير، وتخشاه في السِّـرِّ لأنه اللطيف الخبير، وهكذا.

هذا النوع يُسمَّى دعاء العبادة، وهو: أن تعبد اللهَ ﷿ بما له من الأسماء الحسنى وما يتصف به من الصفات العُلا، فتتوب إليه؛ لأنه التواب، بخلاف دعاء المسألة وهو أن تقول: تب علينا يا توَّابُ.

فدعاء العبادة أن تتوب إليه لأنه التوَّاب، فَفَرْقٌ بين أن تسأل الله باسمه التوَّاب وأن تعبده بالتوبة لأنه التَّواب.

قال الشيخ سليمان آل الشيخ رحمه الله: «**واعلم أنَّ الدعاء نوعان**: دعاء عبادة، ودعاء مسألة كما حقَّقَهُ غير واحد منهم: شيخ الإسلام وابن القيِّم وغيرهما، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان»[1].



(١) «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٤٠٧).

المتن

ومِن أجلِ منزلَتِـهِ هذه، ومِن أجلِ كلامِ النَّاس فيه بالحقِّ تارة وبالباطلِ النَّاشئ عن الجهلِ أو التعصبِ تارة أخرى، أحببتُ أن أكتبَ فيه ما تيسَّر من القواعد، راجيًا من الله تعالى أن يجعل عملي خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده.

وسميته «القواعدَ المثلى في صفاتِ الله تعالى وأسمائِهِ الحسنى».

بيَّن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الدافع لكتابة هذه القواعد المتعلِّقة بأسماء الله وصفاته فذكر ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة التدمريَّة وهو كثرةُ الاختلاف في الاعتقاد والخوض فيه؛ فالناس تتكلَّم بالحق تارة وبالباطل تارات، لذا كان من الواجب إيضاحُ الحق وردُّ الباطل، فكتب كما كتب غيرُه من علماء السنَّة هذه العقيدة[١].

ثم سأل اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل ما كتبه خالصاً لوجهه؛ لأن الإخلاص هو الأصل الأول في قَبول العمل، وأن يجعله نافعاً لعباده فهذا ثمرته المرجوة.



(١) «التدمرية» (ص: ٣)، ونصُّ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد سألني مَن تعيَّنت إجابتهم أن أكتب لهم مضمون ما سمعوه مني في بعض المجالس، مِن الكلام في التوحيد والصفات، وفي الشرع والقدر، لمسيس الحاجة إلى تحقيق هذين الأصلين، وكثرة الاضطراب فيهما، فإنَّهما مع حاجة كل أحد إليهما ... لا سيما مع كثرة من خاض في ذلك بالحقِّ تارة، وبالباطل تارات، وما يعتري القلوب في ذلك مِن الشُّبه التي توقعها في أنواع الضلالات» .

المتن

قواعدُ في أسماء الله تعالى

القاعدةُ الأولى: أسماءُ اللهِ تعالى كُلُّها حسنى:

أي: بالغةٌ في الـحُسنِ غايتَه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ وذلكَ لأنها متضمنةٌ لصفاتٍ كاملةٍ لا نقصَ فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالًا ولا تقديرًا.

أسماء جمع اسم، والاسم: إما مأخوذٌ من السِّمةِ، أي: العلامة، وإما من السُّمو أي: الارتفاع.

ولقد علَّمَ اللهُ تعالى آدم عليه السلام الأسماءَ كلَّها، والناسُ منذ القدم بدل أن يعدِّدوا صفات الرجل كالطُّول والقِصر، وضعوا لكل أحد علامةً، وهي الاسم لسهولة معرفة الشخص المراد، مثال ذلك: إذا قالوا: (أحمد) فيعرفونه مباشرةً بمجرد ذكر اسمه لأنه أصبح علامة له.

والله عز وجل له أسماء، وأسماء الله عز وجل حسنى، كما قال جل جلاله في أكثر من موضع من كتابه واصفاً أسماءَهُ بذلك فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾، وقال: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، فقدَّم الخبر (الجار والمجرور)، وتقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر، أي: أنَّ الأسماء الحسنى له وحده سبحانه وتعالى لا لأحدٍ سواه.

والألف واللام في (الأسماء) للاستغراق، أي: كل الأسماء الحسنى -بلا استثناءٍ- لله وحده سبحانه دون سواه.

والله ﷻ وصف أسماءه بأنَّها حسنى، وكلمة (حسنى) على وزن فُعلى، أي: فُضلى، وهي مؤنث، ومُذَكَّرُها: أحسن، فأسماء الله ليست حسنة فحسب بل حُسنى، وهذا الوصف يدلُّ على أن أسماء الله بالغةٌ في الحسن كماله؛ وذلك لأنها متضمِّنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالًا في الألفاظ، ولا تقديرًا في المعاني.

وقوله رحمه الله :**(أي بالغة في الحسن غايته**[١]**)** ليس المعنى أن حُسْن أسماء الله لها غاية تنتهي إليها، لأن الله جل جلاله ليس لذاته، ولا لأسمائه، ولا لصفاته غاية تنتهي إليها، فهو جل جلاله كامل بلا حدود، فكما أنَّه جل جلاله أوَّلٌ بلا ابتداء، وآخِرٌ بلا انتهاء، فبدايته أزليَّة لا حدَّ لها ونهايته لا حدَّ لها، ولا يجوز لأحد أن يسأل عن كيفية الأمور الغيبية، ولذلك قال النبي ﷺ: « **تَفَكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله**»[٢]، ولهذا اشتدَّ غضب الإمام مالك رحمه الله لما قال له رجلٌ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقال رحمه الله: (الكيفُ غير مَعقول، والاستواء منه غير مجهولٍ، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بِدْعَة، فإني أخاف أن تكون ضَالًّا)، وأُمِرَ به فأُخْرِج[٣].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «استشكل بعض الناس هذه الكلمة: (غايته)، وقال: إنَّ حُسْنَ أسماء الله ليس له غاية ولا منتهى؛ فلو عبَّرنا بقوله: (البالغة في الحسن كماله) لكان أحسن من قولنا: (غايته)، فنقول: صحيح أن التعبير بكماله قد يكون أحسن، لكن يقال: إن المراد بالغاية هنا أنه لا شيء فوقها في الحُسن والكمال... » [شرح القواعد المثلى (ص: ٣٤)].

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم: (١١٩)، وحسَّنه الألباني بمجموع طرقه، انظر: « السلسلة الصحيحة» برقم: (١٧٨٨).

(٣) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٩٨)، وصححه الحافظ الذهبي في « العلو» (ص١٣٩) قال: (هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة أن كيفية الاستواء لا نعقلها).

ومُراد الإمام مالك رحمه الله بقوله: (والكيف غير معقولٍ) أي: غير معلومٍ لنا، فهو نفيٌ لعِلْمنا بالكيفية، وليس نفيًا للكيفية؛ لأن ما لا كيفية له لا وجودَ له، فصفات الله لها كيفية لا يعلمها إلا هو.

فلا يجوز السؤال عن كيفيَّة الله ﷻ ولا عن كيفية الأمور الغيبية، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، فلا يجوز لأحد أن يقول: كيف يكون للملائكة أجنحة، أو كيف هي؟ فيقال: يجب الإيمان بأن للملائكة أجنحة من غير سؤالٍ عن كيفيتها، فلو كان الغيب مثل الشهادة لما كان للإيمان بالغيب معنىً، ولذلك امتدح الله ﷻ عباده المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ، فلذلك يجب أن نؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أمور الغيب.

وسيذكر الشيخ رحمه الله أمثلةً للدلالة على أن أسماء الله ﷻ حسنى ، أي: بالغة في الحسن كماله.



المتن

مثال ذلك: (الحيُّ) اسمٌ من أسماء الله تعالى، مُتَضَمِّنٌ للحياة الكاملة التي لم تُسْبقْ بعدمٍ، ولا يلحقُها زوالٌ؛ الحياةُ المستلزِمةُ لكمال الصفات مِنَ: العلم، والقدرةِ، والسمع، والبصرِ، وغيرِها.

قوله: (الحيُّ) هذا اسم عظيم جليل لله جل جلاله، وقد ذكر أهل العلم أنَّ أسماء الله عز وجل كلها تعود إلى الاسمين: **(الحيُّ والقيُّوم)**، وقد جمع اللهُ عز وجل بين هذين الاسمين في ثلاثةِ مواضعَ من كتابه، فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، وقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ ﴾.

فاسم الحيِّ تعلَّقت به جميع صفات الله عز وجل إذ لو لم يكن حيًّا لما اتَّصف بصفات الكمال والجلال؛ فهو سميع وبصير لأنه حيٌّ؛ ولذلك عاب الله عز وجل على المشركين عبادتَهم للأصنام والأوثان؛ لأنهم أموات غيرُ أحياء، وبالتالي هم لا يسمعون ولا يبصرون.

إذا عرفْتَ هذا تبيَّن لك معنى قول المؤلف رحمه الله: إن اسم **الحيِّ** من أسماء الله الحسنى الذي لا يلحقُهُ نقصٌ بوجه من الوجوه، لا احتمالًا ولا تقديرًا.

ومن كمال الله عز وجل أنه حيٌّ، ويتضمن هذا الاسم الحياة الكاملة التي لم تُسبق بعدم، ولا يلحقها زوال ولا تتخللها سِنَةٌ ولا نومٌ.

نحن البشر أحياء، لكن كنا قبل ذلك أمواتًا، قال عز وجل: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾، وقال جل جلاله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾، فالإنسان لم يكن موجودًا ثم خلقَهُ الله عز وجل.

أما الله عز وجل فحيٌّ، ومن كمال حياته أنه لم يكن معدومًا، ثم صار حيًّا، ولا

يلحق حياتَه زوالٌ، أمَّا الإنس والجن، فقد قال تعالى في حقهم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، و قال جل وعلا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، و قال جل جلاله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

إذًا حياة الله عز وجل تامَّة كاملة لم يسبقها عدم ولا يلحقها زوال.

كذلك من كمال حياته تعالى أنَّه لا تأخذه سِنة ولا نوم، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾، لأنَّه كامل في حياته.

فائدة: إذا نفى الله عز وجل عن نفسه وصْفًا فإن هذا النفيَ ليس نفيًا محضًا، وإنَّما يستلزم إثبات كمال ضده.

فلو وُصِفَ شيءٌ بأنه لا تأخذه سِنة ولا نوم؛ لأنه غير قابل للنَّوم أو لأنَّه غير قادر على النوم لما كان ذلك مدحًا، كما لو قيل: الجدارُ لا ينام فهذا ليس مدحا له ،لأنَّ الجدارَ غير قابل للنوم.

والمريض لا ينام، فلا يعتبر هذا مدحًا لأنه غير قادر على النوم.



المتن

ومثالٌ آخر: (العليم) اسمٌ مِنْ أسماءِ الله، متضمنٌ للعلم الكامل، الذي لم يُسْبَقْ بجهل، ولا يَلْحَقُه نسيان، قال الله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، العلمُ الواسعُ المحيطُ بكل شيءٍ جملةً وتفصيلًا، سواء ما يتعلق بأفعاله، أو أفعالِ خَلْقِهِ.

قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

صفة العلم صفةٌ عظيمة وصف الله بها نفسَهُ وسمَّى نفسَه العليم، والعلَّام، ووصَفَ نفسه بأنه عالِم الغيب والشَّهادة.

ووَصَفَ الله ﷻ نفسه في كتابه بالعلم في مواضع كثيرة؛ لأنَّها صفة جلال وعظمة وكمال، حتى المخلوق يُمدح بها فيقال: عالم، وفلان علَّامة، في أيِّ مجال من مجالات العلم، فهو مدح وثناء، فكيف بالله ﷻ الذي هو أولى بكل كمال؟

قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، نفى الله تعالى عن نفسه صفتين فقال: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، لأنه كامل في علمه، ولهذا قاله موسى عليه السلام في جوابه على فرعون عندما قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وهذه حجة يحتجُّ بها كثيرٌ من الناس، فعندما يقع في مخالفة ثم يُنْكَرُ

عليه يقول: كلُّ الناس تفعل هذا، وهذا فرعون يقول: هل سيحاسبني الله دون غيري فما بال القرون الأولى والأمم السالفة هل سيحاسبها الله؟

فقال موسى عليه السلام: هذه الأمم كلها ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾، يعنى لا يخطئ، ولا تختلط عليه الأمور، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنسَى﴾، **النسيان**: الذهول عن شيء مُعيَّن، وربُّ العالمين لا ينسى لكمال علمه.

فإن قال قائل: الله عز وجل يقول:﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، ويقول: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة:٦٧] فكيف نجمع بين الآيتين؟

الجواب عن هذا: أنَّ الفعل (نَسِيَ) يأتي بمعنيين في كلام العرب:

الأول: بمعنى أُذهِلَ عنه فذهب من ذهنه ومن معلوماته، كان من جملة المعلومات الموجودة في ذهنه ثم ذهبت عنه، فهذا يقال عنه: نَسِيَ.

الثاني: بمعنى تركه، فالفعل (نَسِيَ) يستعمل هذين الاستعمالين، حقيقة في الموضعين يقال: نَسِيَ الشيءَ الفُلاني أي تركه، ويقال: نَسِيَ الشيء الفلاني أي ذهب عن ذهنه(١).

أما العلم فالله عز وجل لا ينسى منه شيئًا، ولا يذهب عنه شيءٌ، قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

لكن لـمَّا تركوا شرع الله، وأمره، ونهيه، وأهملوا شريعته تركهم الله في العذاب ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾،مجازاةً لهم، فهذه حقيقةٌ وليست مجازاً، وإنَّما الفعل

---

(١) قال ابن فارس: «نَسِيَ: النون والسين والياء أصلان صحيحان؛ يدل أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك شيء» [معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤٢١)].

يستعمل استعمالين، وكثير من الأفعال تستعمل بأكثر من معنى، ومن أراد أن يعرف ذلك فليرجع إلى لغة العرب، وإلى القواميس، والأشعار، تجد الكلمة الواحدة لها معان عِدَّة، وهذا كثير، بل قد تجد الكلمة الواحدة – سواءٌ أكانت اسمًا أم فعلًا أم حرفاً – تحمل معنيين متضادين ،ففعل (ظنَّ) مثلاً في كتاب الله ﷻ يأتي بمعنى اعتقد عقيدة جازمة، ويأتي بمعنى شكَّ وارتاب، فمن المعنى الأول قوله تعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة:٢٠]، فالذي يأخذ كتابه بيمينه، يقول: أنا كنت أعتقد جازمًا أنَّ هناك حسابًا لي، وقال جلَّ وعلا: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ، أي: الذين يعتقدون.

المعنى الثاني: ظنَّ بمعنى شكَّ ومنه قوله ﷻ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، أي الشك، وقال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ بمعنى: نشك شكًّا، ولذلك قال في تمام الآية: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

فإذا قيل: نسيهم الله بمعنى تركهم؛ لأنهم نسوا الله فنسيهم، فهذا حقيقة وليس بمجاز.

وإذا قيل:﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ فهذا أيضاً حقيقة.

وقوله تعالى: (﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾) هذا أسلوب حصر فقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ هذا نفيٌ، ثم قال بعدها: ﴿إِلَّا﴾ هذ استثناء يفيد الحصر، فلا أحد يعلم مفاتح الغيب إلا الله، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، تأمَّل هذا الخبر من الله ﷻ عن نفسه، فكلُّ الأشياء إما أن تكون في البر أو تكون في البحر، وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، جاءت أيضا (ما) النافية وبعدها (إلا) لتفيد الحصر والقصر، فالله وحده جل وعلا يعلم كل ورقة تسقط.

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كل شجرة يسقط منها ورقة فالله تعالى يعلم

هذه الورقة، وكلُّ ورقة تنبت فهو عالم بها من باب أولى»[١].

وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾: بيَّن أهل العلم معنى ظلمات الأرض فقالوا: كما لو كانت حبة في جوف صخرة، والصخرة في قاع البحر، أو في قاع المحيط الذي لا يعلم عمقه إلا الله وعليها ظلمة الماء، وظلمة الليل، وظلمة القتر، يعني: السحاب، فلك أن تتصور شدَّة الظلام داخل الصخرة، ومع ذلك يعلمها الله لأنه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، الشيءُ إمَّا أن يكون رطباً، وإمَّا أن يكون يابساً ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، اللوح المحفوظ الذي كتب الله ﷻ فيه مقادير كل شيء وبيَّنه.

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا﴾، هذا أسلوب حصر وقصر يعني: كل دابة في الأرض ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، حتى لو اجتمع عليك أهل الأرض جميعاً ما استطاعوا منع رزقك الذي كتبه الله لك ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فيعلم أين يستقر طعامها؟ وأين مصيرها؟ وأين تكون نهايتها؟ وأين تستودَع؟ -والمسْتَوْدع: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها- كل ذلك يعلمه الله ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي: واضح.

وقال جل وعلا: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، (ما): لغير العالِم، و(مَن): للعالِم، وجاءت الآية بلفظ: (ما)، ولم تأتِ بلفظ: (مَن) التي هي للعالِم لأنَّ غير العالِم أكثر من العالِم.

السر عنده سبحانه وتعالى كالعلانية، فمَن أسرَّ القول أو جهر به عند الله سواء ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]. كيف نتعبَّد الله بهذه الصفة؟ الجواب: بأن نخشى الله ونتقيه ونراقبه؛ لأنه عالِم الغيب والشهادة.

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (٣/ ١٨٩).

المتن

ومثالٌ ثالث: (الرَّحمن) اسمٌ مِنْ أسماءِ الله تعالى، مُتضمِّنٌ للرحمةِ الكاملةِ، التي قال عنها رسولُ الله ﷺ: «لَلَّـهُ أرحمُ بعبادِهِ من هذه بولدها» يعني: أُمَّ صبي وجَدَتْهُ في السَّبْي فأخذتْهُ وألصقتْهُ ببطنها وأرضعته، ومُتضمنٌ أيضًا للرحمة الواسعة التي قال الله عنها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وقال عن دعاءِ الملائكةِ للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

(الرَّحمن) على وزن فعلان، وهي صيغة تدل على الامتلاء، كما يقال: ريَّان، وشبعان، وتعبان، فالرَّحمن معناه ذو الرَّحمة الواسعة؛ التي وسعت كل شيء حتى الكفار، وهي صفة للذات.

(والرَّحيم) على وزن فعيل مثل كريم، أي: ذو الرحمة الواصلة، وهي صفة للفعل، فإذا اقترن اسم الرَّحمن بالرَّحيم فيكون لكلِّ اسم معناه، وإذا انفرد أحدُهما عن الآخر دلَّ على معناه وعلى معنى الاسم الآخر.

والأدلَّة على هاتين الصفتين كثيرة جداً منها: قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول النبي ﷺ: **«الراحمون يرحمُهم الرَّحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمْكم مَنْ في السماء»**[1].

وهذه القصَّة التي ذكرها المؤلف في «الصَّحيحين» من حديث عمر بن الخطاب

(١) أخرجه أبو داود رقم: (٤٩٤١)، والترمذيُّ رقم: (١٩٢٤)، وصححه الألبانيُّ في الصحيحة (٩٢٥).

ﷺ قال: قُدِمَ على رسول الله ﷺ بسَبْي فإذا امرأة من السَّبْي تبتغي إذا وَجَدتْ صبيًا في السَّبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ : «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «**لَلَّه أرحم بعباده من هذه بولدها**»[(١)].

لما رأى النبيُّ ﷺ هذا الموقف أراد أن يُبيِّن لأصحابه سعة رحمة الله تعالى، فقال ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟** » أي: هل تظنون بعد هذه الشفقة وبعد هذا البحث والعناء، وبعد إرضاعه تُلقيه في النار؟ قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**» ، وهذا الحديث يزيدُ المسلم رجاء برحمة الله تبارك وتعالى، فرحمة الله واسعة، وسعت كل شيء.

وفي الحديث «**إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها،** » فكل ما يوجد من الرَّحمات فهو من آثار رحمة واحدة لله، « **وأخَّر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة** »[(٢)].

وأضربُ مثلاً: انظر إلى رحمة الله ﷻ حيث خَلقَنا، والخلق خير من العدم، ورزقنا، وجعل لنا السَّمع والأبصار والأفئدة، ولم يتركنا هَمَلًا، بل أرسل إلينا رسلًا وأنزل كتبًا، ودعانا إلى طاعته وتوحيده، وحَبَّب إلينا الإيمان، وزيَّنه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، ثم يُثَبِّتُ الله ﷻ عباده على الإسلام، ثم يتوفاهم على الإيمان، ثم يثبتهم في قبورهم، ثم يبعثهم يوم القيامة في زمرة المتَّقين، وقد خلق لهم جنة عرضها السماوات والأرض؛ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم يقول لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، ويقول

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٢).

ﷻ: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾، فالعبد ما كان يستطيع الإحسان لو لا أن الله ﷻ وفَّقَهُ لذلك حقـًا كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله كلمة جميلة فقال: «فالحمد كلُّهُ له، والخير كلُّهُ في يديه، والفضل كلُّهُ له، والثناء كلُّهُ له، والمنَّة كلُّها له، فمنه الإحسان، ومن العبد الإساءة، ومنه التودُّد إلى العبد بنعمه، ومن العبد التبغُّض إليه بمعاصيه، ومنه النُّصح لعبده، ومن العبد الغشُّ له في معاملته»(١).

فالعباد يسألونه فيجيبهم ويضرب لهم الأمثال ليؤمنوا، ويؤيد رُسُلَهُ بالحجج والبراهين والآيات البينات الساطعات إقناعًا لهم حتى يعبدوه، فإذا استجابوا أدخلهم جنات النعيم، مع أنه ﷻ لا تنفعُهُ طاعة، ولا تَضُرُّه معصية، لكن رحمته وسعت كلَّ شيء.

ومن العَجَبِ أنَّ أهلَ البدع ينكرون هذه الصِّفة، ويقولون المراد بالرحمة: الإرادة، فمعنى: (الله يرحم من يشاء)، أي: يريد إيصال الثَّواب لمن يشاء، أو الرحمة هي النعمة ذاتها!!

وقولهم: (يريد...)؛ لأنَّهم يثبتون صفة الإرادة وهي من الصفات السَّبْع التي يثبتها الأشاعرة، بينما صفة الرَّحمة ليست من تلك الصفات السَّبْع، فيؤوِّلونها أي يحرفونها إلى معنى الإرادة، قالوا: لأن الإرادة دلَّ عليها العقل، وأما الرَّحمة فلم يدل عليها العقل، مع أن دلالة العقل على الرَّحمة أوضح من دلالة العقل على الإرادة، قالوا: هذا الخلق لا يمكن أن يكون خالقه ميِّتًا فلا بد أن يكون حيًّا، إذ لو كان ميِّتًا ما خَلَقَ، فالله (حيٌّ)، ولا يمكن أن يكون عاجزاً فلا بدَّ أن يكون له قدرة ،فالله ذو (قدرة)، ولا يمكن أن يكون جاهلاً فلابد أن يكون عليماً فهو (عليم)، والله خصَّ كلَّ مخلوق بخاصية معينة؛ فهذا طويل

(١) الفوائد (ص١١٣).

وهذا قصير وهذا بارد وهذا حار، فأراد لهذا كذا فخَصَّهُ بكذا، وأراد لهذا كذا فخصه بكذا ،فالله ذو (إرادة)، ولا بدَّ للحيِّ الذي يفعل هذه الأفعال أن يكون (سميعاً)، (بصيراً)، (متكلماً)، فهذه سبع صفات زعموا أن العقل أثبتها: الحياةُ، والقدرةُ ،والعلمُ ، والإرادةُ ، والسمعُ، و البصرُ، والكلامُ.

فأثبتوا سبع صفات فقط، وحرَّفوا باقي الصفات؛ زاعمين أن العقل لا يدل عليها.

قال أهل السنة: لو سلَّمنا جدًلا أن العقل ما دلَّ عليها، لكن قد دلَّ عليها القرآن والسُّنَّة، فكيف تتجرَّؤون على نفيها، والله ﷻ يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ويقول: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾؟!

فالله وصف نفسه بأنه رحمن ورحيم ويرحم وذو رحمة وأرحم الراحمين، ورحمته سبقت غضبه، فهل ننفي هذا كلَّه من أجل أن عقولكم ما دلَّت عليه؟! فلو كان عندكم عقول لقلتم: الله أعلم بنفسه من خلقه، فبما أنه أخبر بذلك عن نفسه فهو حق ثابت قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

وأيضًا لو سلَّمنا جدلًا أن العقل ما دلَّ عليها لكنه لم ينفها، فكونه ما دلَّ عليها هذه مسألة، وكونه لم ينفِها هذه مسألة أخرى.

فإذاً يكون الجواب عن هذه الشبهة التي أوردوها ما يلي:

أولًا: أن صفة الرَّحمة ثبتتْ بالكتاب والسنة واتفق عليها الرسلُ كلُّهم.

ثانيًا: أنَّ العقل دلَّ عليها دلالة واضحة لا تحتاج إلى جهد في إثباتها، ويدرك ذلك عامة المسلمين والكافرين.

ثالثًا: أنَّ دلالة العقل على صفة الرحمة أوضح وأبيَنُ من دلالة العقل على صفة الإرادة.

رابعًا: أدلة صفة الرحمة في الكتاب والسنة أضعاف أدلة صفة الإرادة.

خامسًا: لو سلَّمنا أنَّ العقل لم يدل عليها فإنه لم ينفها.

ولم يبق لهم إلا حُجَّة عليلة بل ميتة فقالوا: لكنَّ صفة الرحمة صفة ضعفٍ فلا يمكن أن نصف الله ﷻ بها.

فنقول لهم: وأيضاً صفة الإرادة معناها: ميل القلب لجلب ما ينفع ودفع ما يضر ومع ذلك وصفتم الله بها.

فإن قالوا: لا، الإرادة بهذا المعنى هي إرادة المخلوق.

قلنا لهم: والرحمة التي هي صفة ضعف هي صفةٌ للمخلوق، أما رحمة الله ﷻ فلا تدلُّ على الضعف، فإن كانت الرحمة في المخلوق تدلُّ على الضَّعف فهذا شأن المخلوق، أمَّا الله ﷻ فشأنه عظيم، فله رحمة واسعة، وسعت كل شيء، ومع ذلك هو مُنَزَّهٌ عن الضعف، لأنه ليس كمثله شيء.

فخيرٌ لكم أيُّها الأشاعرة وللخلق جميعًا أن تؤمنوا بما جاء في الكتاب والسنة، وأن تلزموا فهم السلف الصالح، فإذا جئنا في باب الإثبات أثبتنا لله ﷻ ما أثبت لنفسه أو أثبت له رسوله ﷺ، وإذا جئنا في باب النفي نفينا عن الله ﷻ ما نفى عن نفسه أو ما نفى عنه رسوله ﷺ، وما سكت عنه الله ﷻ ورسوله ﷺ سكتنا عنه.

المتن

والـحُسنُ في أسماء الله تعالى يكونُ باعتبار كلِّ اسم على انفراده، ويكونُ باعتبار جَـمْـعِهِ إلى غيره، فَيَحصلُ بجمع الاسم إلى الآخر كمالٌ فوق كمالٍ.

مثال ذلك: (العزيز الحكيم)، فإنَّ الله َتعالى يجمعُ بينهما في القرآن كثيرًا، فيكونُ كلٌّ منهما دالًّا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزَّة في العزيز، والـحُكْمُ والحِكمة في الحكيم، والجمعُ بينهما دالٌّ على كمالٍ آخَرَ؛ وهو أنَّ عزَّته تعالى مقرونةٌ بالحكمة، فعزَّتُه لا تقتضي ظلمًا وجورًا وسوءَ فعلٍ، كما قد يكونُ من أعزَّاءِ المخلوقين، فإن العزيزَ منهم قد تأخذه العزَّةُ بالإثم، فيظلم ويجور ويسيء التصرف؛ وكذلك حُكْمُهُ تعالى، وحكمته مقرونان بالعزِّ الكامل، بخلاف حُكْمِ المخلوق وحكمته؛ فإنهما يعتريهما الذُّل.

من أسماء الله ﷻ (العزيز الحكيم)، وكثيرًا ما يجمع الله لنفسه بين هذين الاسمين في كتابه؛ لبيان أن عزَّته مع حكمة، وأن حكمته مع عزَّة، فهو حكيم ذو حِكمة وذو حُكم؛ لأن اسم الله ﷻ الحكيم: معناه أنه ﷻ ذو حِكمة، وأيضاً له معنى آخر وهو أنَّه ذو حُكم، أما المعنى الأول فدليله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وأمَّا المعنى الثاني فدليله قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ ،فهو ذو حِكمة وذو حُكم.

و حكم الله ﷻ نوعان:

الأول: حُكم كونيٌّ. **والثاني**: حُكم شرعيٌّ.

مثال الأول: قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٩]، أي حتى يقضي الله بحكمه الكونيِّ.

ومثال الثاني: قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ ﴾ [الممتحنة : ١٠]، أي ذلك الحكم الشَّرعي الذي شرعه الله لكم.

وكذلك حِكمة الله ﷻ قسمان:

الأول: حِكمة كونيَّة. **والثاني**: حِكمة شرعيَّة.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: سخَّر سبحانه البحرَ لتجري فيه السُّفن، فهذه حكمة كونية.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أي شرع ذلك لحكمته الشَّرعية.

فالمخلوقات يحكمها الله ﷻ، وأحكام العباد والتكاليف يحكمها الله ﷻ، وحكمته الكونيَّة تظهر في مخلوقاته، وتظهر أيضًا في تشريعاته، والله ﷻ عزيز حكيم، عزَّته مع حكمة، وحكمته مع عزَّة، فصار الجمع بين هذين الاسمين يعطي كمالًا فوق كمال، العزيز وحده له معنى العظمة والكبرياء، والحكيم وحده له معنى العظمة والكبرياء.



المتن

القاعدةُ الثانيةُ: أسماءُ الله تعالى أعلامٌ وأوصاف:

أعلامٌ باعتبار دلالتها على الذَّات، وأوصافٌ باعتبار ما دلَّت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأوَّل مترادفةٌ لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله ﷻ.

وبالاعتبار الثاني متباينةٌ لدلالة كلِّ واحدٍ منهما على معناه الخاص، فـ(الحيُّ، العليمُ، القديرُ، السميعُ، البصيرُ، الرحمنُ، الرحيمُ، العزيزُ، الحكيمُ)، كُلُّها أسماءٌ لمسمى واحد، وهو الله ﷻ، لكن معنى الحيِّ غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا.

أسماء الله ﷻ أعلام وأوصاف، والعلَم: هو الاسم الدالُّ على المسمى، وأسماء البشر كلها أعلام فقط إلا أسماء النبي ﷺ، فهذا اسمه خالد، وهذا اسمه مبارك، ولا يُشترط أن يتحقَّق معنى الاسم في المُسمَّى به، فقد يُسَمَّى الإنسان (خالدًا) وهو فانٍ، وقد يُسَمَّى (سعيدًا) وهو حزين، وقد يُسَمَّى (جميلًا) وهو قبيح، بمعنى: أنَّه ليس من الضرورة أن ينطبق الاسم على المُسمَّى.

بينما أسماء الله ﷻ أعلامٌ وأوصاف، فسمَّى نفسه الرحمن، فاسمه الرَّحمن وهو متَّصف بالرَّحمة، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، واسمه السَّميع البصير، وهو يسمع ويبصر وذو سمع وبصر، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

فليس في أسماء الله ﷻ اسم مجرَّدٌ من المعنى، أي: اسم جامد غير مشتق.

كذلك أسماء القرآن، فالقرآن أسماؤه أعلام وأوصاف؛ وذلك لأنَّه صفة من

صفات الله، القرآن كلام الله، وكلامه صفته، ومن أمثلة أسماء القرآن (الفرقان والكتاب والنور) وغير ذلك.

كذلك أيضاً أسماء نبينا محمد ﷺ، فكل اسم ثبت للنبيِّ ﷺ فهو علم وصفة، فهو محمد وأحمد ونحو ذلك.

فالله ﷻ ليس له اسمٌ جامد -غير مُشتقٍّ- خالٍ من المعنى.

فـ(الدهر) ليس من أسماء الله ﷻ الحسنى؛ لأنه اسم جامد لا يدلُّ على معنى، فمن فَهِمَ من قول الله ﷻ في الحديث القدسيِّ: «**لا تسبُّوا الدهر فإنَّ الله هو الدهر**»، أنَّ من أسمائه الدهر فقد أخطأ، على نحو ما سيبيِّن المؤلف رحمه الله.

ولكن المقصود: أن نعلمَ أن أسماء الله ﷻ أعلامٌ وأوصافٌ، فباعتبار دلالتها على الذات تكون مترادفةً، فالسميع هو العليم، وهو القدير، وهو الرحمن، وهو الرحيم، فكلُّ أسماء الله تدل على ذات واحدة، فهي أسماء كثيرة لذات واحدة، فتُسمَّى حينئذٍ أسماء مترادفة، لكن باعتبار دلالتها على الصفات فتدلُّ على صفات متعددة، فالله ﷻ اسمه السميع وصفته السَّمع، واسمه البصير وصفته البصر، وصفة السَّمع غير صفة البصر، وصفة الرَّحمة غير صفة القدرة، وصفة العزَّة غير صفة العلم، وصفة الحكمة غير صفة الرأفة وهكذا.

فأسماء الله ﷻ باعتبار دلالتها على الذات دالَّةٌ على ذات واحدة، وهي أسماء مترادفة لا يحصيها إلا الله ﷻ، لكن باعتبار دلالتها على الصِّفات فهي متعددة ومتنوِّعة، لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

المتن

وإنما قلنا بأنها أعلامٌ وأوصاف؛ لدلالة القرآنِ عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[(١)].

فإنَّ الآيةَ الثانيةَ دلت على أن الرحيمَ هو المتصفُ بالرحمة.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا دليلين على كون أسماء الله تعالى أعلامًا باعتبار وأوصافًا باعتبار، فالدليل الأول من كتاب الله: وهو قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ذو بمعنى صاحب، والمعنى وربك الموصوف بالرحمة، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ،فتارة سمَّى نفسَه: الرحيم، وتارة وصف نفسه بأنه ذو رحمة، فدلَّ هذا على أن اسم الرحيم دالٌّ على صفة الرحمة.

ومن أسماء الله: الغفور، فنَصِفُ الله بأنه ذو مغفرة، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣].



(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هناك آيةٌ تدلُّ على أنَّ الغفور دالٌّ على المغفرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، وكان ينبغي أن تُذكر في أصل الكتاب لكن نسيناها» [شرح القواعد المثلى ص٥٢-٥٣].

المتن

ولإجماعِ أهلِ اللُّغةِ والعُرفِ أَنَّه لا يقال: عليمٌ إلا لـمَنْ له عِلْمٌ، ولا سميعٌ إلا لمنْ له سمعٌ، ولا بصيرٌ إلا لمنْ له بصرٌ، وهذا أمرٌ أَبيَـنُ من أنْ يحتاج إلى دليل.

الدليل الثاني من اللغة: إجماعُ أهل اللغة أنه لا يقال: عليم إلا لمن اتصف بصفة العلم لا بمجرد أنه سُمِّي بذلك، لأنه إذا سُمِّي بذلك دون وصفٍ كان مجرد عَلَمٍ، مثال ذلك: شخص اسمه خالد، فيُراد به العَلَمِية لا الوصف بدليل أنه فانٍ، لكن يقال: جنة الخلد لأنها خالدة، وهكذا يتكلم أهل اللغة، إذا قالوا عن شيء: إنه بصيرٌ؛ فلأنه يبصر ولأنه ذو بصر، وإذا قالوا: إنه عليم؛ فلأنه ذو علم وهكذا.

قال الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد يُسمَّى الرجلُ حكيمًا وهو جاهل، وحَكَمًا وهو ظالم، وعزيزًا وهو حقير، وكريمًا وهو لئيم، وصالحًا وهو طالح، وسعيدًا وهو شَقيٌّ، ومحمودًا وهو مذموم، وحبيبًا وهو بغيض»[(١)].



(١) «النقض على بشر المريسي» (ص١٦٢).

المتن

وبهذا عُلِمَ ضلالُ مَن سلبوا أسماءَ الله تعالى معانيها من أهل التعطيل وقالوا: (إنَّ الله تعالى سميعٌ بلا سمع، وبصيرٌ بلا بصر، وعزيزٌ بلا عِزَّة)، وهكذا...

ما ذكرَهُ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو قولُ المعتزلة، فقد أثبتوا لله عَزَّ وَجَلَّ أسماءً من غير صفات، وزعموا أن إثبات الصفات يلزم منه التمثيل بالمخلوق وتعدُّد الذات، فهم يقولون: إذا قلنا بأن الله سميعٌ ذو سمع، وعليمٌ ذو علم، وبصيرٌ ذو بصر، ورحمنُ ذو رحمة، إذًا سيكون الله عَزَّ وَجَلَّ متعدِّدًا؛ سيكون الأولُ سميعًا، والثاني عليمًا، والثالثُ بصيرًا، والرابعُ رحيمًا، وهكذا يتعدَّد الإله، والحقيقة أن اللهَ واحدٌ.

وقولهم باطل معلومُ البطلان، فالمخلوق لو جمع أكثر من صفة فلن تتعدَّد ذاته.

مثال: شخص اسمه عبد الله، ومع ذلك يمكن أن نقول: عبد الله رجلٌ، ونقول: إنه حيٌّ، ويسمعُ، ويبصرُ، فهل تعدُّدُ صفاتِه دلَّت على تعدُّدُ ذاته؟ الجواب: لا، فعبدالله ذاتٌ واحدةٌ، حتى ولو وُجد فيه مائة صفة، فسيبقى عبد الله شخصًا واحدًا.

هذه لغة العرب؛ إذا قيل: الشمس مضيئةٌ وحارقةٌ وبعيدةٌ ومشرقةٌ، فلا يعني ذلك أنها تعددت.

فاللغةُ العربيَّةُ والعقلُ يدلَّانِ على أن تعدد الأسماء والصفات للذات الواحدة لا يلزم منه تعدُّد الذوات.

قد يقول قائل: كيف يكون سميعًا بلا سمع، وبصيرًا بلا بصر، وعزيزًا بلا عِزَّة؟ وهل يمكن ذلك؟! نقول: لا يمكن ذلك، وهذا الكلام لو كان مقنِعًا؛

لكان هو الحق، لكنه باطلٌ، ابتدعته المعتزلةُ، ونحن ننقُله لنقده وإبطاله، لكن أن نقنعَك به فهذا لا يمكن لأنَّه غير مقنع، وذلك لأنَّه ينافي الكتاب والسنَّة، والعقل، واللغة.

وقد ذكر الآلوسي رحمه الله في كتابه «جِلاء العينين»[1] قصَّةَ أعرابيٍّ سمعَ جهم بن صفوان يقرِّرُ مذهبه الباطل ويدعو الناس إليه؛ وهو أن الله تعالى عالم بلا علم، وكذا في سائر الصفات، فأرشد الله تعالى الأعرابيَّ إلى بطلان هذا المذهب فأنشأ يقول:

ألا إنَّ جهمًا كافرٌ بَانَ كفرُهُ ... ومن قال يوماً قولَ جهمٍ فقد كفر
لقد جُنَّ جهم إذ يسمي إلهَهُ ... سميعًا بلا سمعٍ بصيرًا بلا بصر
عليماً بلا علمٍ رَضيًّا بلا رضا ... لطيفًا بلا لُطف خبيرًا بلا خبر
أيُرضيكَ أن لو قال يا جهم قائل ... أبوك امرؤٌ حرٌّ خطيرٌ بلا خطر
مليحٌ بلا مَلح بهيٌّ بلا بها ... طويلٌ بلا طول يخالفُه القِصَر
حليمٌ بلا حِلم وفيٌّ بلا وفا ... فبالعقل موصوفٌ وبالجهل مُشْتَهِر
جوادٌ بلا جود قويٌّ بلا قُوى ... كبيرٌ بلا كِبَر صغيرٌ بلا صِغَر
أمدحًا تُراه أم هِجاءً وسبَّةً ... وهُزْءًا كفاك الله يا أحمقَ البشر
فإنك شيطان بُعثتَ لأمة ... تصيرهم عمَّا قريب إلى سقر

---

(١) «جِلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (ص: ١٤٠).

المتن

وعللوا ذلك بأنَّ ثبوتَ الصفات يستلزمُ تعدُّدَ القدماءِ.

وهذه العلةُ عليلةٌ -بل ميتةٌ- لدلالة السمعِ والعقلِ على بطلانها.

أما السمعُ: فلأنَّ اللهَ تعالى وصف نفسه بأوصاف كثيرة، مع أنَّه الواحد الأحد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة أوصافٌ كثيرةٌ لموصوفٍ واحدٍ، ولم يلزم من ثبوتها تعدُّدُ القدماء.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعليل المعتزلة في نفي صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي قولهم: إنَّ ثبوت الصفات يستلزم تعدد القدماء، والله قديم، فإذا تعددت صفاته تعدد القدماء[(١)].

وقولهم هذا دافِعُهُ الهربُ من إثبات الصِّفات لله عَزَّ وَجَلَّ، والرد عليهم سيكون من الناحية السَّمعية والعقلية لإبطال هذه العلَّة العليلة التي علَّلوا بها ونفوا من أجلها صفات الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «القديم عند أهل الكلام هو أخصُّ وصف الإله -لا يُوصف به غيره، وهذا غلط فالقديم ليس وصفًا لله؛ لأنه يوصف به غيره، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، فأخصُّ وصفٍ لله ما لا يسمَّى به غيره؛ كربِّ العالمين، وخالق كُلِّ شيء» [شرح القواعد المثلى ص٥٣-٥٤ بتصرُّف يسير].

قوله: (أما السمع...): الدليل السمعي للردِّ على المعتزلة أن يقال: هذه صفات متعددة وصف الله تعالى بها نفسه في سياقٍ واحد، فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ ، ف(المجيدُ) بالرفع تكون صفةً لله ﷻ على قراءة حفص، وعلى القراءة الأخرى بالجر (المجيدِ) تكون صفةً للعرش وهي من القراءات السبع(١).

أيضًا من صفاته أنَّه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾،هو ذات واحدة، فهو الذي بطشه شديد، وهو يبدئ ويعيد، وهو الغفور الودود وهو ذو العرش، وهو المجيد، وهو الفعال لما يريد، ولا يلزم من ذلك أن يكون اللهُ ﷻ متعددًا بدلالة هذه الآيات، بل الله ﷻ إله واحد، وذات واحدة لها صفات متعدِّدة كثيرة لا يمكن الإحاطة بها.

بل قال الله تعالى في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، فلفظ الجلالة (الله) مبتدأ مرفوع بالابتداء، وما بعده إلى آخر الآية كُلُّها أخبار عن ذات واحدة، وهي تسع عشرة صفةً يخبر الله بها عن نفسه

وكذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ فربُّنا الأعلى هو الذي خلق فسوَّى، وهو الذي قدَّر فهدى، وهو الذي أخرج المرعى، فكلمة (الذي) كلُّها تعود إلى ذات واحدة، وهو الله ﷻ.



(١) قال أبو عمرو الدَّاني ؒ في التيسير (ص: ٢٢١):«قرأ حمزة والكسائي ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾،بخفض الدال ،والباقون برفعها».

المتن

وأما العقل: فلأنَّ الصفاتِ ليست ذواتًا بائنةً من الموصوف، حتى يلزمَ من ثبوتها التعدُّدُ؛ وإنما هي من صفات مَن اتَّصف بها، فهي قائمةٌ به، وكلُّ موجود فلابد له من تعدُّدِ صفاتِهِ، ففيه صفةُ الوجود، وكونُهُ واجبَ الوجود أو ممكنَ الوجود، وكونُهُ عينًا قائـمًا بنفسه أو وصفًا في غيره.

أما الدليل العقلي في الرد على شبهة المعتزلة: فإنَّ كلَّ موجودٍ سواءٌ كان الخالقَ العظيم أو كان أدنى مخلوق من مخلوقاته فإنَّ له على الأقل ثلاث صفات ولا بُدَّ، ومع ذلك فكلُّ مخلوق يعتبر ذاتًا واحدة، والصفات الثلاث الموجودة في الله ﷻ والتي تشترك فيها جميع الموجودات:

أولًا: كونه موجودًا (صفة الوجود).

ثانيًا: كونه واجب الوجود، أو ممكن الوجود؛ فواجب الوجود هو الله ﷻ، والمخلوقات ممكنة الوجود -ممكن أن تكون موجودة أو ممكن أن تكون معدومة-.

ثالثًا: إمَّا أن يكون عينًا قائمًا بنفسه، وإمَّا أن يكون وصفًا قائمًا بغيره، فمثلًا: الكتاب عين قائم بنفسه، واللون الأبيض فيه وصفٌ قائم بغيره.

فأي شيء إما أن يكون عينًا قائمًا بنفسه مستقلًّا، وإمَّا أن يكون وصفًا قائمًا بغيره.

فالعقل يدلُّ على أنَّه ما من شيء إلا وله صفات متعددة، وكلما كان الشيءُ عظيمًا زادت صفاته.

ومن صفات العرش أنه مجيد، والمجيد يطلق على من يجمع صفات كثيرة،

وقد أطلق الله ﷻ (المجيد) في كتابه على ثلاثة أشياء؛ فوصف الله نفسه بالمجيد، ووصف القرآنَ بالمجيد كما في قوله: ﴿قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾، ووصف العرش بالمجيد على قراءة الجر: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾(١)، ولا يُسمَّى الشيءُ مجيداً إلا لكثرة صفات الكمال فيه، فلا يلزم حينئذ من تعدُّد الصفات في ذات واحدة تعدُّد الذوات.

فلو كان الأمر كما يقولون -إن تعدد الصفات يستلزم منه تعدد الذات- لما وجد شيء إلا وهو متعدد، ولا وجد شيء يعتبر ذاتًا واحدة، ومعلوم أن الله ﷻ ذات واحدة كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ [البقرة:١٦٣].



(١) قال أبو عمرو الداني رحمه الله في التيسير (ص: ٢٢١):«قرأ حمزة والكسائي ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾، بخفض الدال، والباقون برفعها».

المتن

وبهذا أيضًا عُلِمَ أنَّ: (الدهر) ليس من أسماء الله تعالى؛ لأنه اسمٌ جامدٌ لا يَتضمَّنُ معنى يُلْحِقُه بالأسماء الحسنى، ولأنه اسمٌ للوقت والزمن، قال الله تعالى عن مُنكري البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ يريدون مرورَ الليالي والأيام.

معنى قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وبهذا**)، أي: بما أنَّ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ أعلام وأوصاف؛ إذًا الدهر لا يصلح أن يكون اسمًا من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه اسم جامد لا يدلُّ على وصف، وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ دالَّة على صفات، فمثلًا: اسم الرحمن يدل على صفة الرحمة، واسم السميع يدل على صفة السمع، وكذلك اسم البصير، واسم العليم، واسم القدير، وغيرها من الأسماء تدلُّ على الصفات.

ومنكرو البعث هل أرادوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] أي: وما يهلكنا إلا الله(١)؟ الجواب: لا، وإنما أرادوا الزمان، قالوا: إنما هي الحياة الدنيا أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع، ومرور الليالي والأيام تُنْهي الإنسان فيفنى ويموت، ثم يُولد غيره ويهلك، فهم لا يؤمنون بالبعث والنُّشور والعذاب والنَّعيم، وهذه من مسائل الجاهلية المهمة جداً التي جاء الإسلام لتأكيد بطلانها، وإثبات قيام الساعة والبعث والنُّشور والحساب والعقاب والجنة والنار.



(١) قال الشيخ عُبيد الجابري حفظه الله: «لو كان الدهرُ من أسماء الله لم يَعِبِ اللهُ على المشركين هذه المقولة؛ لأنَّ المعنى وما يُهلكنا إلا الله، وهو صحيح» [فتح العلي الأعلى ص٥٤].

المتن

فأما قوله ﷺ: «قال اللهُ ﷻ: يؤذيني ابنُ آدم؛ يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

فلا يدلُّ على أنَّ الدهر من أسماء الله تعالى، وذلك أنَّ الذين يسبون الدهر إنَّما يريدون الزمان الذي هو محلُّ الحوادث، لا يريدون الله تعالى؛ فيكون معنى قوله: «وأنا الدهر» ما فسره بقوله: «بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»، فهو سبحانه خالقُ الدهر وما فيه، وقد بين أنه يُقَلِّب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّب -بكسر اللام- هو المقلَّب -بفتحها- وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكونَ الدهرُ في هذا الحديث مرادًا به اللهُ تعالى.

لا يمكن أن يكون المقلِّب -بكسر اللام- هو المقلَّب -بفتح اللام- فالمقلِّب اسم فاعل، والمقلَّب اسم مفعول، فمن الذي يقلِّب الآخر؟ الله ﷻ المقلِّب، والليل والنهار مقلَّبان، والدهر مقلَّب والذي يقلبه هو الله ﷻ.

إذًا قوله: «**وأنا الدهر**» يعني: وأنا مقلِّب الدهر، والمتصرِّف فيه.

فإن قال قائل: أليس هذا تأويلًا وتحريفًا، وقد كنتم تنكرونه وتجادلون مَنْ يقول به؟! الجواب: ليس هذا تحريفًا، لأنَّه قال في تتمَّة الحديث : «**وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**» إذًا معنى «**أنا الدهر**» أي: أنا مقلِّب الدهر، والمتصرف فيه، وحَذْفُ المضاف معلوم من كلام العرب، وهذا المعنى يدل عليه السِّياق.

مثاله: إذا قلت: قرأتُ هذا الحديث في البخاري، يعني: في كتاب البخاري، فيقول قائل: لماذا فسرت قولك في البخاري بكتاب البخاري؟ الجواب: لأني

قلت: قرأتُ، وكلمة قرأتُ دلت على أني قرأت كتابَ البخاري وليس شخص البخاري.

فلما قال: «**أنا الدهر**» أو «**فإن اللهَ هو الدهرُ يقلب الليل والنهار**»، يعني: لا تسبوا الدهر فإن الله يُقَلِّب الدهر ويصرِّفه، حتى الذين يسبون الدهر لا يريدون أن يسبوا الله ﷻ، ولو أرادوا أن يسبُّوا الله لسبُّوا الله باسمه، لكن النبيَّ ﷺ ينبِّه الناس على أن مسبَّة الدهر تؤدي إلى مسبة الله ﷻ؛ لأن الله هو الذي يقلِّب اللَّيل والنهار، وهو الذي يتصرف بالليل والنهار، لذلك لا نجد أحدًا سمَّى نفسه أو ابنه عبد الدهر، لكن إذا وجدنا من يسمي بذلك فنقول له لماذا؟ فإن قال: لأن الله ﷻ قال في الحديث القُدسي: «**وأنا الدهر**»[1] فسميت ولدي بعبد الدهر، فنقول: هذا لا يصلح، فلو كان جائزًا فسَمِّهِ عبد النهار، وعبد الليل، وعبد الشمس، وعبد القمر، وهذا كله محرَّم، وإنما الله ﷻ هو الذي يقلِّب الليل والنهار، و يقلب الدهر وليس الدَّهر اسمًا لله ﷻ، هذا من ناحية المعنى.

ومن ناحية اللفظ: كلمة الدهر، اسم جامد غير مشتق، وأسماء الله ﷻ كلها مشتقة تدل على معانٍ ؛ فالرحمن اشتقاقٌ من الرحمة فهو ذو رحمة.



(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : «لو كان يريدُ أن الدهرَ هو الله لقال: (يَسبُّني وأنا الدَّهر)» [شرح القواعد المثلى ص٥٧].

المتن

القاعدةُ الثالثةُ: أسماءُ الله تعالى إنْ دلت على وصف متعدٍّ، تضمنت ثلاثةَ أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

الثاني: ثبوت الصفةِ التي تضمنها لله ﷻ.

الثالث: ثبوت حكمِها ومقتضاها؛ ولهذا استدل أهل العلم على سقوط الحد عن قطَّاع الطريق بالتوبة، استدلُّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ مقتضى هذين الاسمين أن يكون اللهُ تعالى قد غفر لهم ذنوبهم، ورحمهم بإسقاط الحدِّ عنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**إن دلَّت على وصفٍ مُتعدٍّ**)، ليس كل أسماء الله تدل على وصف متعدٍّ، فالاسم إذا لم يدل على وصفٍ متعدٍّ يسمى اسماً لازماً.

والاسم اللازم يدل على أمرين:

الأول: إثبات الاسم.

والثاني: إثبات الصفة.

أما الاسم المتعدي فيدل على ثلاثة أمور:

الأول: إثبات الاسم.

والثاني: إثبات الصفة.

والثالث: إثبات المقتضى أو الأثر أو الحكم.

إذًا من أسماء الله ﷻ ما يدل على أمرين، ومنها ما يدل على ثلاثة أمور.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا استدلَّ أهل العلم على سقوط الحدِّ عن قطاع الطريق، بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾).

مثال: رجل كان قاطعَ طريق، ثم ترك المعصية وتاب إلى الله ﷻ، فلو قال: الحمد لله تُبْتُ إلى الله ﷻ، فسمع كلامَه واعترافَه قاضٍ أو حاكمٌ فأمسكه، وقال له: سأقيم عليك الحدَّ، فقال التائب: هذا قبل أن أتوب، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبما أن الله غفور رحيم، فمقتضى أثر هذا الاسم أنه ذو مغفرة، ويغفر.

فاستدلال هذا التائب بالآية صحيحٌ.

كذلك اسم (**البصير**) يدلُّ على إثبات هذا الاسم له، وأنه ذو بَصَرٍ، ومقتضى ذلك وأثره أنه يبصر.

وكذلك اسم (**القدير**) يدلُّ على أن اسمه القدير، وأنه ذو قدرة، ومقتضى ذلك وأثره أنه يَقْدِرُ.

فالله ﷻ له أسماءٌ متعديةٌ تدل على إثبات ثلاثةِ أمورٍ: الاسم والصفة والأثر أو المقتضى.

المتن

مثال ذلك: (السَّميع) يَتَضَمَّنُ إثباتَ السَّميع اسمًا لله تعالى، وإثباتَ السَّمعِ صفةً له، وإثباتَ حُكْمِ ذلك ومقتضاه؛ وهو أنه يسمع السِّرَّ والنَّجوى كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾، فالله سميع ذو سمع، و﴿يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، وسَمْعُهُ لكلامهما يقال عنه: الحُكم، أو المقتضى، أو الأثر.

وحينئذ: فكلُّ اسم لله ﷻ تَعلَّق بمخلوقاته يُسمَّى اسمًا مُتعدِّيا.

وهذا الأمر له أهميةٌ كبرى؛ لأن المسلم يعبد الله ﷻ بمقتضى أسمائه.

مثالٌ: من أسماء الله ﷻ: (التَّواب)، وهو ﷻ يقبل التَّوبة من عباده، فإذا علم العبدُ أن اللهَ اسمه التَّواب فإنه يتوب إليه؛ لأن الله ﷻ يقبل توبته.

مثال آخر: اسمه (السميع) هذا له أثر في إيمان العبد، فيعلم بأنَّ الله ﷻ هو السميع، وأنه ذو سمع، وأنه يسمع، فحينئذ يراقب الله ﷻ، ولا يتلفَّظ إلَّا بما يرضيه.

مثال آخر: اسمه (العليم) فنثبت له هذا الاسم، ونَصِفُهُ بالعلم وبأثره، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور، وهكذا نقول في أسماء الله ﷻ إذا كانت متعدِّية.



المتن

وإن دلت على وصفٍ غيــرِ متعدٍّ تضمنت أمرين:

أحدهما: ثبوتُ ذلك الاسمِ لله ﷻ.

والثاني: ثبوتُ الصفةِ التي تضمنها لله ﷻ.

مثال ذلك: (الحيُّ) يتضمن إثباتَ الحيِّ اسمًا لله ﷻ وإثباتَ الحياة صفةً له.

ذكر المصنف ﵀ مثالاً للاسم اللازم، وهو اسم الله ﷻ: (الحيُّ) فاسمه الحيُّ، وهو ذو حياة.

تنبيهٌ: الحيُّ غير يُحيي، فالأول اسم، والثاني صفةٌ فِعلِية لله ﷻ، وليس من أسماء الله ﷻ المحيي، لكن من صفاته أنه يحيي.

ومن أمثلة الاسم اللازم:

- **العظيم**: فاسمه العظيم وهو ذو عظمة.

- **القيُّوم**: وله تفسيران: أحدهما لازم، و الثاني: متعدٍّ.

التَّفسير الأوَّل: القائم بذاته، يعني لا يوجد أحد يمدُّ الله ﷻ بقوة، ولا بقدرة، ولا بعلم، ولا بسمع، ولا ببصر، فقوَّة الله ﷻ، وسمعه، وبصره من نفسِهِ، فهو قيُّوم بمعنى القائم بنفسه، وبهذا المعنى هو اسمٌ لازم.

التفسير الثَّاني: القائم على غيره، قال ﷻ: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ ﴾، وهذا اسمٌ متعدٍ، فاسمه القيوم، وهو ذو قَيُّومية، وقائم على كلِّ نفس.



المتن

القاعدةُ الرابعةُ: دَلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقةِ وبالتضمُّنِ وبالالتزامِ:

مثال ذلك: (الخالق) يدلُّ على ذات الله، وعلى صفة الخَلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها وعلى صفة الخَلق وحدها بالتضمُّن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

هذه تسمى أنواع الدِّلالة أو الدِّلالات، وهي ثلاثةٌ:

١. دلالة مطابقة.

٢. دلالة تضمُّن.

٣. دلالة التزام.

وهذه القاعدة تحتاج إلى مزيد عناية وتَفَهُّمٍ من طالب العلم.

فنقول: إذا دلَّ اللَّفظ على الشيء كلِّهِ فهو بالمطابقة، وإذا دلَّ على بعض معناه فهو بالتضمُّن، وإذا دلَّ على أمر لازم خارج عنه فبالالتزام.

فـ(**الخالق**) اسم من أسماء الله ﷻ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ﴾، اسم الخالق يدل على ذات الله وعلى صفة الخلق بالمطابقة، وإذا كان الشيء ينطبق على اسمه تمامًا يقال: هذا الاسم دلَّ عليه بالمطابقة؛ فاسم الخالق يدلُّ على ذات الله، فمثلًا لو قلتُ لكَ: مَنْ تعبُد؟ تقول: أنا أعبدُ الخالق ، وهذا كقولك: أنا أَعبدُ الله.

فدلالة اسم (**الخالق**) على ذات الله ﷻ، وعلى صفة الخلق معًا تُسمى دلالةَ مطابقة.

ويدلُّ اسم (**الخالق**) على الذَّات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمُّن.

ويدل اسم (**الخالق**) على صفتي العلم والقدرة بالالتزام، يعني بما أنَّه الخالق إذًا يلزم منه أنه عليم وقدير، إذ لو لم يكن عليمًا ولا قديرًا لما خَلَق.

نضرب مثالاً لتقريب هذا المعنى: كلمة "**البيت**" تدل على ذات المنزل، وعلى أجزائه جميعاً بالمطابقة، فإذا قال رجل: عندي بيت، يعني عنده ذات المنزل وعنده أجزاء المنزل، فكلمة بيت تنطبق على المنزل ذاته وعلى أجزائه.

فإذا قلت له: هل عندك غرفة؟ فقال: نعم عندي بيت، فجوابه صحيحٌ؛ لأن كلمة بيت تتضمن غرفة وزيادة.

وكذا لو قيل: هذا البيت جميل، فهذا يدل على أن من صَمَّمَهُ عنده علم، أو عنده هندسة، كلُّ هذه المعاني أخذناها بالالتزام.

إذًا يلزم من كونك تملك بيتاً أن هناك من وضع لك مخططًا، و يلزم منه أنك أتيت برخصة بناء ، كل هذه المعاني أتت من دلالة الالتزام.



المتن

ولهذا لمَّا ذكَرَ اللهُ خَلْقَ السماواتِ والأرض قال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

ودلالة الالتزام مفيدةٌ جدًا لطالب العلم إذا تدبَّر المعنى ووفَّقَه الله تعالى فهمًا للتلازم، فإنه بذلك يُحصِّل من الدليل الواحد على مسائل كثيرة.

الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله بدأها الله تعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، مثلهن بالعدد لا الصِّفة؛ لأنه من المعلوم أن صفة الأرض غير صفة السماوات، لكن عددها سبع أرضين، كما جاء في الحديث: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلمًا طوَّقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»[(١)]، ويُعَبَّر عن الأرض باسم الجنس (الأرض) ولا يقال: أرضين؛ لأن كلمة أرض أخف من كلمة أرضين فيعبر عنها بالجنس، وإلا هي أرضون سبع بدلالة القرآن والسنة.

قال الله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾، فخَلْقُ السماوات السبع والأرضين السبع يدل على صفة العلم والقدرة بالالتزام.

ودلالة الالتزام مهمة جدًّا، حتى تستنبط بها الأحكام الفقهية وغيرها؛ فيقال: بما أن الله أوجب علينا الحج إذًا يلزم من هذا وجوب السفر للحج؛ لأن الحج لا يتم إلا بسفر، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبما أن النبي ﷺ استحب في حقنا الطيب يوم الجمعة يلزم منه استحباب شراء الطيب أو اتخاذ الطيب.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٦١٠).

المتن

واعلم أن اللازم من قولِ الله تعالى، وقولِ رسوله ﷺ، إذا صح أنْ يكونَ لازمًا فهو حقٌّ؛ وذلك لأنَّ كلام الله ورسولِه ﷺ حقٌّ، ولازم الحق حقٌّ، ولأنَّ الله تعالى عالِـمٌ بما يكون لازمًا من كلامِهِ وكلامِ رسوله ﷺ فيكون مرادًا.

اللَّازم من كلام الله وكلام رسوله ﷺ حقٌّ؛ لأن الله ﷻ يعلم ما يلزم من كلامه، و كذلك الرسول ﷺ يعلم ما يلزمُ من قوله؛ لأنه وحيٌ من الله تعالى كما في قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾، فيعلمُ النبيُّ ﷺ ما يلزم من كلامه لكن بشرط أن يكون هذا اللازم صحيحًا، فنثبت القول ونثبت لازمه، أمَّا لازم كلام مَن سوى الله ﷻ ورسوله ﷺ فليس بلازم له حتى يلتزمه، فإذا قيل له : يلزم من كلامك كذا وكذا، فإذا قال: نعم هذا معنى كلامي، وألتزمُ به فحينئذ ننسب له هذا الكلام، أمَّا إذا قال: (لا يَلزمني هذا الكلامُ ولا أقصِده) فلا يُنسب إليه؛ لأن الإنسان قد لا يعلم ما يلزم من كلامه.



المتن

وأما اللازم من قول أحد سوى قول الله ورسوله، فله ثلاثُ حالات:

الأولى: أن يُذكر للقائل ويلتزمَ به، مثل أن يقول من ينفي الصِّفات الفعلية لمن يُثْبتُها: يلزمُ من إثباتك الصفاتِ الفعليةَ لله ﷻ أنْ يكون من أفعاله ما هو حادثٌ، فيقول المثْبِتُ: نعم، وأنا ألتزم بذلك؛ فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعَّالًا لما يريد، ولا نفادَ لأقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وحدوث آحاد فعله تعالى لا يستلزم نقصًا في حقِّهِ.

ذكر المؤلِّف ؒ أحوال لازم كلام مَن سوى الله ورسوله:

الحالة الأولى: أن يُذكر للقائل لازمُ قولِهِ، فيقال له: يلزم من كلامك كذا وكذا، فيقول: نعم هذا لازم قولي، وأنا أقول به.

كما لو قال القائل للمُثْبِت للصفات الفعليَّة المتعلقة بمشيئة الله ﷻ: يلزم من كلامِك: (أنَّ الله كل يوم في شأن كما قال ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، كلَّما أراد شيئاً قال له: كن)، أن من صفات الله ما هو حادث، يعني: يقع جديدًا، ومن كلام الله ما هو حادث يقع جديدًا.

فيقول المُثبِتُ: نعم الله ﷻ يتكلم بما شاء متى شاء، ويفعل ما شاء متى شاء.

فإذا قال القائل: يلزم من كلامك إذا قلتَ: الله يتكلم، والله يفعل أنَّ من أفعال الله ومن كلام الله ما هو حادث.

قال المثبت: نعم من أفعال الله ما هو حادث ومِن كلامه ما هو حادث؛ لأن أفعال الله وكلامه لا ينتهيان، ولو كان كلام الله ليس منه شيء حادث وأفعاله ليس منها ما هو حادث إذًا سيتوقف كلامه وتتوقف أفعاله ، والله لا حدَّ لأفعاله ولا لكلامه، حتى من سعة كلامه سبحانه وتعالى أنه قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان:٢٧] أي: لو أن شجر الدنيا كله تكسَّر وصار أقلاماً، ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾؛ هذه البحار العظيمة صارت مداداً أي:حبراً،وأخذت الملائكة تكتب والله يملي عليها، والإنس والجن يكتبون، كلٌّ له قلم واحد تلو الآخر، لتكسرت الأقلام وجفت البحار وما انتهى كلام الله جَلَّ جَلَالُهُ.

فربُّ العالمين كلامه لا نهاية له لأن علمه لا نهاية له، فمن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ما هو حادث ولا شك؛ لأن الله لم يزل ولا يزال يتكلم كيف شاء متى شاء، كلما أحب عبدًا نادى جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إني أحببتُ فلاناً فأحبَّه**»[(١)].

وكلما قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال اللهُ: «**حمدني عبدي**»[(٢)].

كلما نزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل يقول: هل من سائل؟ هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ إذًا الله عَزَّ وَجَلَّ مازال يتكلم، فهذا اللازم.

قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢]، إذًا من كلام الله الذِّكْرُ الذي ينزله الله يعني تجدد نزوله، وكون آحاد كلام الله جَلَّ جَلَالُهُ حادثًا ليس في ذلك نقص لله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يلزم من ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدت له أشياءُ أو ظهرت

(١) أخرجه البخاري برقم: (٧٤٨٥)، ومسلم برقم: (٢٦٣٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم: (٣٩٥).

له أشياءُ لم تكن بادية، بل الله ﷻ يتكلم متى شاء.

مثال آخر: إذا قال المثبِتُ: الله ﷻ سميع، وبصير، وعليم، وقدير، وجبار، وكبير، ومتعال، فقال المعتزلي: يلزم من كلامك أن الله ﷻ له صفات متعددة كثيرة. يقول: نعم هذا يلزم من كلامي، وهذا الذي أعتقده.



المتن

الحال الثانية: أن يُذْكَـرَ له ويَمْنعَ التلازمَ بينه وبين قوله.

مثل أنْ يقولَ النَّافي للصفات لـمَنْ يثبتها: يلزم من إثباتك أن يكون اللهُ تعالى مشابهًا للخلق في صفاته، فيقول المثْبِتُ: لا يلزم ذلك؛ لأنَّ صفات الخالق مضافةٌ إليه لم تُذكرْ مُطلقةً حتى يُمكِنَ ما أَلْـزَمْتَ به، وعلى هذا فتكون مختصَّةً به لائقة به، كما أنك أيُّها النَّافي للصفات تثبت لله تعالى ذاتًا وتمنعُ أن يكون مشابهًا للخلق في ذاته، فأي فرقٍ بين الذات والصفات؟!

وحكم اللازم في هاتين الحالين ظاهرٌ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**يُذْكَرَ له**) أي يُذكر للمتكلم ما يلزمُ من كلامه فيقال له: يلزم من كلامك كذا وكذا، فيقول: لا، ليس هذا معنى كلامي، ولا قصدتُه، فينكِرُهُ، فحينئذ لا نستطيع أن ننسبه إليه، ومِن أسباب وُقوع المشكلات بين الناس أن يُنسبَ لمتكلِّمٍ كلامٌ ما التَزمهُ ولا قَصدَهُ.

إذًا لا نستطيع أن نُلزمَ أحداً بلازم لم يلتزمه، فكيف إذا ذُكر له اللازم فأنكره؟ فلا ننسبه إليه من باب أولى[1].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: « **فلازم قول الإنسان نوعان:**

أحدهما: لازم قوله الحق، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه؛ فإنَّ لازم الحق حقٌّ، ويجوز أنْ يُضاف إليه إذا عُلِمَ مِن حاله أنَّه لا يمتنع مِن التزامه بعد ظهوره، وكثير مما يضيفه الناس إلى مذهب الأئمة: مِن هذا الباب.

والثاني: لازم قوله الذي ليس بحق، فهذا لا يجب التزامه؛ إذ أكثر ما فيه أنه قد تناقض، وقد ثبت أنَّ التناقض واقعٌ مِن كل عالِـم غير النبيين، ثم إنْ عُرِفَ مِن حاله أنه يلتزمه بعد ظهوره له فقد يضاف إليه؛ وإلا فلا يجوز أنْ يضاف إليه قول لو ظهر له فساده لم يلتزمه...» [مجموع الفتاوى ٢٩/ ٤١-٤٢].

قوله: (**مثل أنْ يقولَ النَّافي للصفات**): إذا أثبت السنيُّ صفات الله ﷻ قال له المعتزليُّ أو الجهميُّ المنكر لصفات الله، المعطِّل لصفات الكمال والجلال: إثباتك لصفات الله ﷻ يلزم منه أنك تمثِّلُ الخالق بالمخلوق، هكذا أخرج اللازم من عقله ونسبه للمُثْبِت، فيقول له السنيُّ: لا يلزم من قولي: (لله يدٌ) أني مثلت يد الخالق بالمخلوق؛ لأني أضفتُ اليد إلى الله، والصفةُ إذا أضيفت إلى موصوف فهي بحسب مَنْ أُضيفت إليه، مثال ذلك: كلمة (رأس) لها إطلاقات كثيرة وإضافات متباينة، فيقال: رأس الإنسان ورأس الحيوان، ورأس المال، ورأس الجبل، ورأس الوادي، وهذه الرؤوس متباينة؛ لأنَّ كُلَّ رأس أضيف إضافة خاصة، فقيل: هذا رأس الإنسان، وهذا رأس الحيوان، وهذا رأس المال، فالرؤوس متفاوتة لأن الإضافات مختلفة.

فإذا قال المعتزليُّ للسني: قولك: (يدُ الله) يلزم منه أنَّ يد الله كيَد المخلوق!

قال له السنيُّ: لا يلزمني هذا، بل هذا اللازم باطل، لأني لم أقل: (يد) مطلقة وإنما قلت: (يد الله)، فأضفتها لله ﷻ، وكلُّ صفةٍ أُضيفت فإنها تكون بحسب مَنْ أضيفت إليه.

ثم يقول له السنيُّ: أنت أيها المعتزلي! ألا تقول: إن لله ﷻ ذاتاً؟

سيقول المعتزلي: بلى، لله ذات.

فيقول السني: فهل يلزم من قولك: إنه كذوات المخلوقين؟

سيقول المعتزلي: ذات الله ﷻ غير ذات المخلوق، فذات الله ﷻ تليق به، وذات المخلوق تليق به.

فيقول السنيُّ: ونحن كذلك نقول: يد الله ﷻ تليق به، ويد المخلوق تليق به فلا فرق بين الذات والصفات، فكما أن لله ذاتاً تليق به لا تماثل ذوات المخلوقين،

فكذلك لله صفات تليق به لا تماثل صفات المخلوقين.

وإليك مناظرةً افتراضيةً أُخرى بين سُنِّي ورافضي:

السنيُّ: أبو بكر رضي الله عنه أفضل من عليٍّ رضي الله عنه.

الرافضيُّ: يلزم من كلامك أنك تُبغض عليًا.

السني: هذا ليس لازم كلامي، وأنا أحب عليًّا رضي الله عنه، ولا يحبُّ عليًّا إلا مؤمن ولا يبغضُهُ إلا منافقٌ.

الرافضي: لو لم تكن تبغضُ عليًّا رضي الله عنه لما فَضَّلْتَ أبا بكر رضي الله عنه عليه.

السني: يقول الله عز وجل: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] فأيُّهما خير؟

الرافضي: الله خير مما يشركون.

السنيُّ: النصارى يعبدون عيسى ابن مريم عليه السلام من دون الله، فهل يلزم من قول القائل :الله تعالى خير من عيسى أنه يبغضُ عيسى عليه السلام؟

الرافضي: لا يلزم.

السني: وكذلك لا يلزم من قال: أبو بكر رضي الله عنه أفضل من عليٍّ رضي الله عنه أنه يُبغِضُ عَليًّا رضي الله عنه.

فبُهِتَ ذلك الرافضيُّ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فإذاً لا يحقُّ لأحدٍ أن يُلزِمَ غيرَهُ بشيء إلَّا إذا عرضه عليه و أقرَّ به، فحينئذ يُنسَبُ إليه.



المتن

الحال الثالثة: أن يكونَ اللازمُ مسكوتًا عنه، فلا يُذْكَرُ بالتزامٍ ولا منعٍ، فحكمُهُ في هذه الحال ألا يُنْسَبَ إلى القائل؛ لأنَّه يُحتَمل لو ذُكِرَ له أن يلتزم به أو يَمنعَ التَّلازم، ويُحتَمل لو ذُكِرَ له فتبين له لزومُهُ وبطلانُهُ أنْ يرجعَ عن قوله؛ لأنَّ فساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

ولِوُرودِ هذين الاحتمالين لا يُمكنُ الحكمُ بأنَّ لازمَ القولِ قولٌ.

هذه خلاصة مسألة اللازم، لكنَّ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لا يمكن الحكم بأن لازم القول قول**) هذا في غير كلام الله ورسوله ﷺ، أمَّا كلام الله ورسوله ﷺ فالله يعلم قوله وما يلزم منه، والرسول ﷺ قوله محكم لأنه وحي من الله ﷻ، فنثبت لله ﷻ ورسوله ﷺ قولهما ولازمه.

أمَّا إذا قال أحد من الناس قولًا ولا نعلم إذا ظهر له ما يلزم من قوله يلتزمه أو لا يلتزمه، فحينئذ لا ننسبُ له لازم قوله.



المتن

فإن قيل: إذا كان هذا اللازمُ لازمًا مِنْ قوله؛ لَزِمَ أنْ يكونَ قولًا له؛ لأنَّ ذلك هو الأصل، لاسِيَّما مع قربِ التلازم، قلنا: هذا مدفوعٌ بأن الإنسان بَشَرٌ وله حالاتٌ نفسيةٌ وخارجيةٌ تُوجب الذُّهولَ عن اللازم، فقد يغفل، أو يسهو، أو يَنْغَلقُ فِكْرُه، أو يقولُ القولَ في مضايقِ المناظراتِ من غير تفكير في لوازمه، ونحو ذلك.

قوله: (هذا مدفوعٌ بأنَّ الإنسان بَشَرٌ)، أي: بما أنه بشرٌ فقد يخفى عليه ما يلزم من قوله، فقد يناظره شخص، ثم في أثناء المناظرة يورد عليه سؤالًا معيَّنًا فيجيب عنه من غير أن ينتبه إلى ما يلزم من قوله.

لذلك جاء النَّهي عن سبِّ الدَّهر وسبِّ الرِّيح لأنه يلزم من ذلك سبُّ الله الذي يقلب الليل والنهار ويصرف الرياح، فليس كلُّ متكلم ينتبه لما يلزم من كلامه فلا يمكن إلزامُ أحدٍ بكُلِّ لازمٍ لكلامِهِ إلا إذا عَرَفَ لازمَ كلامِهِ والتزَمَهُ[1].



(١) قال الأمير الصنعاني رحمه الله: «وكم مِن مُتكلم يقول قولًا لا يَخطـرُ في باله لازِمُهُ بل قد لا يعرفُهُ» [العدة ٤/ ٢٨٥].

المتن

القاعدةُ الخامسةُ: أسماء الله تعالى توقيفيةٌ لا مجال للعقل فيها:

وعلى هذا فيجب الوقوفُ فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يُزاد فيها ولا يُنْقص؛ لأن العقل لا يمكنه إدراكُ ما يستحقه تعالى من الأسماء؛ فَوجَبَ الوقوفُ في ذلك على النَّص؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

أسماء الله تعالى توقيفية أي: يتوقف إثباتها على ورود النص وثبوته، فإذا ورد نصٌّ في كتاب الله يدل على أن الله اسمه (الرَّحمن) سمَّينا الله به ، أو ورد نص عن رسول الله ﷺ صحيح بأن الله اسمه (الحيي) و(الستير) سمَّينا الله به، وذلك لأن العقل لا يدرك ما لله ﷻ من الأسماء، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

قوله: (**فلا يزاد فيها ولا ينقص**)، لأنَّ الزيادة فيها تقوُّلٌ على الله ﷻ، والإنقاصُ منها كتمٌ لما أنزل الله تعالى.

فإن قال قائل: هل من أسماء الله تعالى السِّتِّير؟ فنقول ننظر إن ثبت فيه نص أثبتناه لله ﷻ، وإن لم يثبت فيه نصٌّ توقَّفنا عنه، وعند الرجوع إلى النصوص وجدنا قول النبي ﷺ: «**إن الله حييٌّ ستير**»[1]، فنقول: نعم الستير من أسماء الله ﷻ.

والعلماءُ قد يطلقون على الله ﷻ أسماءً من باب الوصف والإخبار لا من باب أنه عَلَمٌ على الله تعالى.

مثاله: الله يتفضل على عباده فنقول عن الله تعالى: إنَّه مُتفضل، وليس من أسمائه المتفضل وإنما من أفعاله، فيكون هذا من باب الإخبار لا من باب التسمية.

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٠١٢)، وصححه الألباني في الإرواء برقم: (٢٣٣٥).

قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾، أي: ولا تَتْبَعْ ما ليس لك به علم ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

ووجه الدلالة من الآية: أن الذي يتقَوَّل على الله تعالى، ويُسمي الله تعالى بما لم يُسمِّ به نفسَهُ قد اتَّبع ما ليس له به علم، وسيُحاسبُ عن قوله على الله تعالى بلا علم .



المتن

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ذكر الله ﷻ المحرمات، فبدأ بالأخفِّ ثم الأشدِّ فالأشدِّ، وعليه فأشدُّ ما حرم الله ﷻ في هذه الآية: القول على الله ﷻ بلا علم.

ولقائل أن يقول: من المعلوم أن الشركَ أعظمُ الذنوب، فكيف يكون القول على الله ﷻ بلا علم أعظم من الشرك؟

فالجواب: الشرك بالله ﷻ نوع من القول على الله بغير علم، فمن قال: (اتخذ الله ولدًا) فهذا تقوَّل على الله تعالى، ونظيره من قال: (الملائكة بنات الله)، وكذلك من قال: (الأصنام شفعاء الناس عند الله)، وكذا من قال: (الأولياء يعلمون الغيب)؛ فقد تقوَّل على الله تعالى.

قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾، أي: كلُّ الفواحش المعلومة وغير المعلومة، الظاهرة للناس وغير الظاهرة.

وقوله تعالى: ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، يعني: ما ظهر منها وما سيظهر، أو المعلن من الفواحش وغير المعلن.

وقوله: ﴿ وَٱلْإِثْمَ ﴾، أي: ما يؤدي إلى الإثم من المعاصي، ﴿ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، أي: التعدي في سفك الدماء بغير حقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، هذا لبيان الحال والواقع، وليس قيدًا لأنه لا يوجد بغيٌ بحق.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾، صفة كاشفة لبيان

حال المشركين، وليس معنى الآية أنكم إذا أشركتم بالله تعالى ما أنزل به سلطانًا فلا بأس؛ لأن الشركَ كله باطل وحرام، ويُسمَّى هذا بيان الحال، كقول الله ﷻ في حقِّ بني إسرائيل: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فلا يوجد قَتْلٌ للأنبياء بحقٍّ.

والقيد: هو الذي لا يتحقق الحكم إلا به، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٣].

فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هذا قيدٌ، لأن الأصل حرمة قتل النفس المعصومة، أمَّا من قَتَلَ غيره ظلمًا وعدوانًا فيستحقُّ القتلَ.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ فقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ قيدٌ؛ فإن قتَلَهُ متعمداً ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

ومثال ثالثٌ: قول النبي ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها، فليصلِّها إذا ذكرها**»، فقوله: «**فليصلها إذا ذكرها**»[1] تقييدٌ بالنوم أو بالنسيان، فلو ترك الإنسان صلاةً تكاسُلًا واستدلَّ بهذا الحديث فلا يصح استدلاله؛ لأن النبي ﷺ قال: «**من نام**»، ولم يقل: تركها كَسَلًا وتهاونًا؛ وإنما قيَّدها بالنوم أو النسيان.

قوله ﷻ: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذا هو الدليل السمعي النقلي على أن أسماء الله توقيفيَّة، وعليه فلا يجوز للإنسان أن يُسمِّيَ اللهَ ﷻ إلا بما سمَّى به نفسَهُ في كتابه أو سماه رسوله ﷺ في سنَّتِهِ.

ومن سمَّى الله بما لم يسمِّ به نفسه، أو سماه بما لم يسمه به رسوله ﷺ فقد قال على الله ما لا يعلم، واقتفى ما ليس له به علم، والله يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: وحرَّم الله تعالى ذلك.

(١) أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧)، ومسلم برقم: (٦٨٤).

مثالُ تسمية الله بما لم يُسمِّ به نفسه: تسمية النصارى الله بالأب، وتسمية الفلاسفة الله بالعلَّة الفاعلة، فهذه أسماءٌ باطلة لم يأذن الله عز وجل بها، وما أنزل الله عز وجل بها من سلطان، وهذا قول على الله عز وجل بلا علم.

والمسلم يُسَمِّي الله عز وجل بما سمَّى به نفسه في كتابه، أو سماه رسوله ﷺ في سنَّتِه الصحيحة الثابتة، ولا يتجاوز القرآن والسنة.

ومن جهة عقلية: لا يجوز تسمية الله عز وجل بما لم يسمِّ به نفسه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.



المتن

ولأن تسميتَه تعالى بما لم يُسمِّ به نفسه، أو إنكارَ ما سمَّى به نفسه جنايةٌ في حقِّــهِ تعالى؛ فوجب سلوكُ الأدب في ذلك، والاقتصار على ما جاء به النص.

ما سبق أدلة سمعية على عدم جواز تسمية الله تعالى بما لم يسمِّ به نفسه، أما الدليل العقلي على ذلك فإن تسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه جناية واعتداء، وقد جرت عادة الناس أنهم لا يرضون أن يُدعوا بغير أسمائهم، فإذا كان هذا في حق المخلوقين، فكيف في حق الله ﷻ؟

والواجب في هذا سلوك الأدب، والاقتصار على ما جاء به النص، فلا نسمي الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه في كتابه؛ لأنه ﷻ أعلم بنفسه من خلقه وبخلقه، قال الله ﷻ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، أو سماه به رسوله ﷺ في سنته؛ لأنه صادق مُصَدَّق، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، أي وحيٌ من الله ﷻ يُعلِّم رسولَهُ ﷺ بأن الله ﷻ اسمه كذا واسمه كذا، ولا يسمي الله ﷻ من تلقاء نفسه.

فلما كان الله ﷻ أعلم بنفسه من خَلْقِهِ، ورسوله ﷺ صادق ومصدَّق، صار المرجع في أسماء الله ﷻ وصفاته الكتاب والسنة، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي عقيدة واضحة محكمة والحمد لله.

ومن الجناية في حقِّ الله تعالى إنكار اسمٍ سَمَّى الله ﷻ به نفسَه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فهم يستنكرون أن الله ﷻ اسمه الرَّحمن.



المتن

القاعدةُ السادسةُ: أسماءُ الله تعالى غيرُ محصورة بعدد معيَّن:

لقوله ﷺ في الحديث المشهور: «أسألك بكلِّ اسم هو لك سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك»، الحديث رواه أحمدُ وابنُ حبان والحاكمُ، وهو صحيح.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكنُ لأحدٍ حصرُه، ولا الإحاطةُ به.

أسماء الله ﷻ غير محصورة بعدد معين، أي: بعدد معلوم عند الخلق، فالخلق لا يعلمون أسماء الله ﷻ كلَّها؛ لأن لله ﷻ أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده.

فقول النبي ﷺ: «**أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»، دليل صحيح وصريح على أن أسماء الله ﷻ غير محصورة بعدد معين، ومن حصرها بعدد فقد اقتفى ما ليس له به علم، وقال على الله ﷻ ما لا يعلم.

ومن أسماء الله ﷻ ما لا يعلمها إلا هو، ومن أسماء الله ﷻ ما يعلمها بعض الخلق دون آخرين.

قال ابن القيم رحمه الله في بيان معنى قوله ﷺ: (**أو استأثرت به**): «أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به»[1].

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٩٣) ط. المجمع.

المتن

فأما قولـه ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»، فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المرادُ الحصرَ لكانت العبارة: «إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة» أو نحو ذلك.

إذًا فمعنى الحديث: أن هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة، وعلى هذا فيكون قولُه: «من أحصاها دخل الجنة» جملةً مُكَمِّلَةً لما قبلها، وليست مستقلة.

قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا» العناية بالألفاظ مهمَّة جدًّا؛ لأن الألفاظ إذا اختلفت اختلفت المعاني، وكذا إذا اختلف الضبط يختلف المعنى، كما مرَّ معنا في كلمتي المقلِّب والمقلَّب.

فالألفاظ الشرعيَّة لابد أن يتأملها الإنسان قبل أن يصدر الحُكْم؛ لأن التقديم والتأخير يعطي معنىً متغايرًا، وكذا ضبط الكلمة.

فإن كثيرًا من الناس يفهم من حديث: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» أن أسماء الله ﷻ محصورة بهذا العدد، وهذا خطأ، لأن الحديث له تتمة؛ والجملة الثانية متعلقة بالأولى وهي: «**من أحصاها دخل الجنة**» فقوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»، المقصود أن هذه التسعة والتسعين اسمًا التي هي من أسماء الله ﷻ «**من أحصاها دخل الجنة**»، وليس المراد: أن أسماء الله ﷻ فقط تسعة وتسعون.

قال الشيخ رحمه الله: (**ولو كان المراد الحصرَ لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة**): فمعنى «**إن لله**» كما تقول: لي ولدٌ طالب

في حلقات تحفيظ القرآن، فلا يعني ذلك أنَّه ليس عندك غيره، لكنك خصصت هذا الولد بأنه يحفظ القرآن، فهنا أخبر النبي ﷺ بقوله: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» وهذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، ولم يُردْ ﷺ أنْ ليس لله ﷻ إلا تسعة وتسعون اسمًا، لو أراد الحصرَ لقال: أسماء الله تسعة وتسعون، أو قال: إن أسماء الله تسعة وتسعون، لكنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**»، وهذا التعبير يختلف عن ذلك التعبير، فدل على أن من جملة أسماء الله ﷻ أسماءً لها هذه الخاصية؛ أن من أحصاها دخل الجنة.

والذي يؤكد هذا المعنى الأدلة الأخرى ومنها حديث دعاء الهمِّ والغمِّ، والذي قال فيه النبي ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»، فكون الله له أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده، إذًا كيف نحدِّد أسماء الله بتسعة وتسعين ومنها ما قد استأثر الله به في علم الغيب عنده؟!

ومن الأدلة أيضًا قول النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)]، فلو كانت أسماء الله ﷻ محصورة بعدد لاستطاع النبي ﷺ أن يثنيَ على الله ﷻ بها، لأن معنى الثناء على الله هو أن تقول: السميع، العليم، البصير، القدير على كل شيء، لكن أسماء الله ﷻ غير محصورة، لذلك حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يحصي الثناء على الله، ولذا قال: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

ومن الأدلة أيضًا: أن النبي ﷺ كما في حديث الشفاعة يوم القيامة يسجد لله ﷻ ويقول: « **ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئا**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤٨٦).

لم يفتحه لأحد قبلي»[١]، يعني: من أسماء الله ما سيفتحها الله على رسوله ﷺ ويُعَلِّمُهُ إياها يوم القيامة، إذن أسماء الله ﷻ ليست محصورة بعدد.

وقوله ﷺ: «**من أحصاها دخل الجنة**» أي: من عَدَّها ووقف عليها دخل الجنة، وقيل: من آمنَ بها ودعا الله ﷻ بها، وقيل: من تعبَّد الله ﷻ بها، ولا مانع من أن يكون المراد هذه المعاني كلها.

فإذًا هي ليست مجرد عدٍّ، وإنما يحصيها الإنسان ويؤمن بها ويدعو الله بها يقول: يا رزاق ارزقني، ويا رحمن ارحمني، ويا غفور اغفر لي.

ويدخل في الإِحصاء أيضا أن يتعبَّد الله بها، فيتوب إلى الله؛ لأنه تواب، ويراقب الله؛ لأنه الرَّقيب، ويتوكَّل على الله؛ لأنه الحسيب وهكذا.

وقد ورد عَدُّ أسماء الله ﷻ في حديث ضعيف عند الترمذي قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» ثم سرد تسعة وتسعين اسمًا، ومع ضعف هذا الحديث ففيه أسماء لا يُسلَّم بأنها ثابتة لله تبارك وتعالى، كاسم **(الماجد، والنافع، والضار)**.

وعليه لم يثبتْ في الشَّرع تحديد هذه الأسماء، ولهذا نظائر، فقد كان النبي ﷺ يرغِّب في أعمالٍ من غير تحديدٍ لها؛ كما رغَّب النبي ﷺ بساعة من يوم الجمعة، لا يوافيها عبد مسلم يدعو الله إلا استجيب له، وقد اختلف العلماء في تقديرها وتحديدها، كذلك الاسم الأعظم لله الذي إذا دُعي به أجاب، اختلف أهل العلم أيضًا في تحديده، وكذلك ليلة القدر، وقع خلاف في تحديدها .

قال أهل العلم: الحكمة من ذلك أن يجتهد المسلم بالقيام بهذه الأعمال فيكون خيرًا له.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٧١٢)، ومسلم برقم: (١٩٤).

المتن

ونظير هذا أن تقول: عندي مائة درهم أعددتهم للصدقة، فإنه لا يمنعُ أن يكون عندك دراهمُ أخرى لم تُعِدَّها للصدقة. ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء، والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (ص٣٨٣ ج٦) من مجموع ابن قاسم: «تعيينُها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه، وقال قبل ذلك (ص٣٧٩) : إن الوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسرًا في بعض طرق حديثه». ا.هـ

ونظير هذا، يعني: نظير قول النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» فلا مانع أن يكون له غيرها، كما مرَّ معنا: عندي أربعة أبناء يدرسون في حلقات التحفيظ، فلا يمنع أن يكون عندي أولاد لا يدرسون.

ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء، والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف كما سيأتي في نقل المصنِّف عن الحافظ ابن حجر رحمه الله.

مع أن أصلَ الحديث الذي ذكر فيه تسعة وتسعون اسمًا هو في البخاري، ولفظه: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»، وإنما الضعيف سردُ الأسماء الحسنى بعد ذلك.



المتن

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري» (ص٢١٥ ج١١ ط السلفية): (ليست العلة عند الشيخين (البخاري ومسلم)، تفرُّد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب، وتدليسه واحتمال الإدراج).

ولـمَّا لم يصحَّ تعيينها عن النبي ﷺ اختلف السلف فيه، وروي عنهم في ذلك أنواع، وقد جمعتُ تسعة وتسعين اسمًا مما ظهر لي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

فمن كتاب الله تعالى: الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، والآخِر، والظاهِر، والباطن، البارئ، البرُّ، البصير، التَّواب، الجبَّار، الحافظ، الحسيب، الحفيظ، الـحَفِيُّ، الحقُّ، المبِينُ، الحكيم، الحليم، الحميد، الحيُّ، القيوم، الخبير، الخالق، الخلَّاق، الرؤوف، الرَّحمن، الرَّحيم، الرَّزاق، الرَّقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالِم، العزيز، العظيم، الـعفوُّ، العليم، العلـيُّ، الغفَّار، الغفور، الغني، الـفتَّاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القويُّ، القهَّار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصوِّر، المقتدر، الـمُقِيت، المَلِك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الوليُّ، الوهَّاب.

ومن سنة رسول الله ﷺ: الجميل، الجواد، الحكم، الحييُّ، الرب، الرفيق، السُّبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدِّم، المؤخِّر، الـمُحسن، المعطي، المنَّان، الوِتْر.

ليس في هذه الأسماء اسمٌ مطابقٌ للاسم الآخر من كلِّ وجه، وإنَّما بينهم تفاوت واختلاف.

(الله): قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، اسم (الله) أصله الإله، لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة فخففت من (الإله) إلى (الله)، ومعناها المعبود بالحق حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، وتذلُّلًا، وتعظيمًا.

وأسماء الله ﷻ كلها تعود إلى هذا الاسم العظيم، كما لو قيل: مَن الجبَّار، والعليمُ، والحَيُّ، والقُدُّوس؟ سيُقال: الله.

وتسمية الله ﷻ بهذا الاسم عندما تستدل بآية أفضل من أن تختارَ اسماً آخر؛ كما يقول بعض المعاصرين: (يقول الحق تبارك وتعالى)، والحقُّ من أسماء الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾، لكن من سنة النبي ﷺ أنه إذا أراد أن يقول: قال الله، فيأتي باسم (الله)، والاقتداء برسول الله ﷺ خير من أن يقول: قال الحق.

كما أن الأفضل في اختيار التعبير عن رسول الله ﷺ أن نقول: قال رسول الله، أو قال النبي ﷺ، هذا أفضل من أن نقول: قال المصطفى، وحديث المصطفى.

وهذه هي السنة، ولم يرد عن الصحابة غير تسمية الله بلفظ الجلالة (الله)، وتسمية النبي ﷺ (بالرسول) أو (النبي)[1].

قد يقول قائل: جاء عن بعض الصحابة أنه قال: (أوصاني خليلي)، نقول: نعم، لكن الأكثر قولهم قال (رسول الله)، أو قال (نبي الله) ولنكن متبعين للسلف فنقول: قال الله تعالى، وقال رسول الله ﷺ، أو قال النبي ﷺ.

---

(١) انظر: «شرح السفارينية» لابن عثيمين (ص٥٥) بمعناه.

(الأحد): كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، والأحد أصلها من وحَّد من الأحديَّة، وجاءت في القرآن منفيَّة في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، أو بمعنى النفي في قوله: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ولم تأت في القرآن مثبتة إلا في حق الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يعني: الواحد الذي لم يشركه شيء في وحدانيته، المنفرد بذاته، وصفاته، وأفعاله، وحقوقه، فهو ﷻ الأحد، واحد في ذاته لا شريك له، واحد في أفعاله فهو الربُّ المنفرد بالربوبيَّة، واحد بأسمائه وصفاته ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وتقديمُ الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، يفيدُ الحصر والاختصاص، فالله ﷻ واحد في ذاته، وواحد في أفعاله، وحده الذي يفعل من غير وزير ولا معين ولا ظَهير، وواحد في أسمائه وصفاته، لا مثيل له ولا كفء له ولا سَمِيَّ له، قال جل وعلا: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الوصف الأعلى، فالوصفُ الأعلى يختصُّ بالله تعالى دون غيره، وكذلك هو سبحانه وتعالى واحد في حقوقه؛ فإنَّه ﷻ يستحق العبادة وحده، قال جل وعلا: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: معبودكم معبود واحد، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وقال ﷻ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فالعبادة أيضًا يستحقها الله ﷻ وحده.

وتفسير الأحد بهذا المعنى عند انفراده عن اسم الله الواحد، لكن لو قيل: (الأحد الواحد) فيكون معنى الأحد المنفرد بصفاته الذي لا كفء له، وأما الواحد معناه: ليس بمثنى ولا جمع.

(الأعلى): كما في قوله جل وعلا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

والأعلى صيغة تفضيل على وزن: الأفعل، مثل: الأكبر، والأعلم، والأكرم، والله أعلى من كل شيء سبحانه وتعالى، فهو الأعلى وهو العليُّ، وهو المتعال، والعلو لله ﷻ مطلق فيشمل علوَّ الذات، وعلوَّ القدر، وعلوَّ القهر لجميع المخلوقات.

علو الذات بمعنى: هو بذاته في العلو، في السماء مستوٍ على عرشه، فوق مخلوقاته كما قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾،فذاته عليَّة.

وعلو القهر بمعنى: أن الله تعالى أعلى من خلقه جميعاً قاهر لهم، وعلو الصفة والقدر مثلًا: إذا قيل (الذهب أعلى المعادن)، أي: قَدْرُ الذهب أعلى من غيره، فالله ﷻ صفاته عالية القدر.

وأهل البدع يفسِّرون العلو بعلو الصفات والقدر، ويقصرونه على ذلك وينكرون علو الذات، وقد فسَّروا قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾، بأنه فوقهم قدرًا وصفةً، لا ذاتًا، أما ذاته ففي كل مكان، أو ليس في جهة والعياذ بالله.

وقالوا: إذا كان عندنا قطعتان: ذهب وفضة، ووضعنا واحدة بجانب الأخرى، أو واحدة فوق الأخرى فيصح بأي وضعٍ وضعناهما أن يقال: الذهب فوق الفضة حتى لو وضعنا قطعة الذهب أسفل، وقطعة الفضة أعلى، وقلنا: الذهب فوق الفضة فالكلام صحيح، فوقه أي: قدرًا، وهذا معناه عند أهل البدع.

قال أهل السنة: لو سلمنا أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾، معناه أنه فوقهم قدرًا، لكن قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾، لا يمكن حمله على فوقيَّة القدر، ولا يصح في اللغة أن تقول: (الشيء من فوق الشيء) إلا إذا كان فوقه ذاتاً ومكانًا، فيجوز أن تقول: الشيء الفلانيُّ فوق الشيء الفلاني مكانةً وقدرًا، لكن إذا قلت: الشيء الفلانيُّ من فوق الشيء الفلاني، لا بد أن يكون فوقه، يعني: مكانًا، فقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ فَسَّرت قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

(**الأكرم**): قال ﷻ: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ الأكرم: اسم تفضيل، والله اسمه: الكريم، وقد ورد ذكره في سياق ذكر الخَلْقِ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، كما ذكر اسمه الأكرم في سياق القراءة والعلم الذي هو حياة الإنسان فقال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾.

و يأتي الكريم بمعنى: ذو الكرم الذي يُكرِمُ ويُعطي عطاءً لا ينفد، والأكرم أبلغ، ويأتي الكريم أيضاً بمعنى ذو الصفات الحَميدة الواسعة كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾[يوسف: ٣١]، يعني: ذو صفات حميدة.

(**الإله**): قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾، أي: المألوه، المعبود بحق، خضوعاً وذلاًّ وحبًّا وخوفاً ورجاءً.

(**الأول، والآخِر، والظاهر، والباطن**): أسماء لله ﷻ وردت في قوله جلَّ وعلا في سورة الحديد: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ ﴾، وفسَّرها النبي ﷺ وحسبنا تفسير الرسول ﷺ فقال: «**أنتَ الأَوَّلُ فليس قَبلَكَ شيءٌ، وأنتَ الآخِر فليس بَعدَكَ شيءٌ، وأنت الظاهر فليسَ فَوقَكَ شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دونك شيء**»(١)، والظهور بمعنى الفوقية، والفوقية تكون فوقيَّة الذَّات ،وفوقيَّة الصفات وفوقية القهر، وأما قوله ﷺ: «**أنت الباطن فليس دونك شيء**» هذا التفسير حُمِلَ على أن معنى البطون القرب، وقرب الله من مخلوقاته يكون بالمعنى العام فهو قريب من كل مخلوق بعلمه ، وبالمعنى الخاص فهو قريب من أوليائه بإجابتهم ونصرهم وتأييدهم وسماع دعائهم.

(**الآخِر**): يختلف عن معنى المؤخِّر الذي في قول النبي ﷺ: «**أنت المُقَدِّم وأنت المؤخِّر**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧١٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٣١٧)، ومسلم في صحيحه برقم: (٧٧٠).

ومُقَدِّم ومُؤَخِّر كلاهما اسم فاعل، ومعناهما: أنت الذي تقدِّم الأشياء وتُؤَخِّرها، تقدِّم ما تشاء، وتُؤَخِّر ما تشاء.

(البارئ): قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾، ذكر الله تعالى في هذه الآية ثلاثة أسماء متقاربة في المعنى، ويمكن التعبير بكل اسم عن الآخر، ولكن عند اجتماعها يكون الخالق: هو الذي يقدِّر الشيء قبل وجوده، والبارئُ: هو الذي ينفِّذ ما قدره، المصوِّر: هو الذي يَخلُقُ الشيء على الصورة التي يختارها، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾، أي: يطوِّر الإنسان من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم يجعله عظامًا، ويجعل له رأسًا، وأطرافًا، وهذه الأطوار من آثار اسم الله ﷻ المصوِّر، فأولاً يكون خَلْقاً ثم بَرءًا ثم تصويراً.

(البَرُّ): قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾، يعني: ذو الخير الكثير والعطاء العميم.

(البصير): دليله قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١]، الذي بصرُه بكل شيء محيط، وهو بكل شيء بصير.

(التَّواب): على وزن فعَّال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾، التوَّاب، أي: كثيرًا ما يقبل التَّوبة من عباده، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٥]، والتَّواب يطلق على المخلوق ويُراد به الذي يتوب إلى الله كثيرًا، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾، وليس في هذا تمثيل ولا تشبيه؛ فتطابق الأسماء لا يلزم منه تطابق الصفات والحقائق -وهذه شبهة المعطلة-، فالله توَّاب بالمعنى اللائق به، والعبد توَّاب بالمعنى اللائق به.

فإن قال قائل لماذا يسمِّي الله نفسه بأسماء يتسمَّى بها المخلوقون؟

الجواب: حتى نعرف الله ﷻ، فلو سمَّى نفسَهُ أو وصف نفسه بأسماء وصفات غير معلومة المعنى عند المخلوقين ما عرفنا الله ولا عبدناه.

فأراد الله ﷻ أن يُعرِّف نفسه لعباده، فسمى نفسه بأسماء معلومة لدى الخلق حتى يعرفوه، إذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ خشيناه، ورجوناه، وعبدناه، وتبنا إليه، وراقبناه، وتوكَّلنا عليه، وسألناه؛ لأن أسماءه وصفاته لها معانٍ تقتضي أن يُعبد، وأن يُخشى، وأن يُرجى.

نظير ذلك ما أَعَدَّه الله لأهل الجنة، فلو وصف الله تعالى الجنة بما لا يَعرف الخلق له نظيرًا في لفظه ومعناه فلن نفهمَ شيئًا، وعليه فلن نرغب في الجنة، لكن لما وصف الجنة بأوصاف موجودة في الدنيا، ومعروفة ومعلومة لدينا كان ذلك سببًا في طلبنا لها ورغبتنا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[محمد:١٥].

(**الجبار**): قال تعالى: ﴿ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾[الحشر: ٢٣]، والجبَّار له معانٍ:

الأول: الجبر بمعنى القوة، فالله هو الجبَّار الذي يقهر الجبابرة ويغلبهم.

الثاني: العالي، يقال: نخلة جبَّارة أي عالية، فاللهُ فوق كل شيء بجبروته وعظمته، وهذا من جبرِ العلوِّ.

الثالث: الذي يجبر الخواطر، ويجبر الكسير، ويجبر الفقير، وكم لله ﷻ من جَبْرٍ، ما من فقير إلا والله يجبره، وما من كسير إلا والله يجبره، وما من خاطر مكسور إلا والله يجبره، وهذا من جَبْرِ الرحمة.

(**الحافظ**): قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾[يوسف: ٦٤]، الذي يحفظ السماوات والأرض، ويحفظ دينه وكتابه، ويحفظ أعمال العباد، ويحفظ أولياءه المتقين مما يسوؤهم، فهو حافظ وحفيظٌ وهو حسْبُهم ﷻ كما سيأتي في الاسم الذي بعده.

(**الحَسيب**): قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، يعني: الكافي الذي يكفي عباده. وأيضاً الحسيب الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها.

(**الحفيُّ**): قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، من الحفاوة: وهي المبالغة بالكرم، والعناية، والعطاء، ومن معانيه أيضًا: الذي عَوَّد عبدَه الإجابة إذا دعاه.

(**الحقُّ**): قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، **ومن معانيه**:

الأول: الثَّابت، وضدُّه الباطل -أي: الزائل-، فالله متَّصفٌ بالوجود الدائم والحياة والقيُّوميَّة.

الثاني: الذي يُحِقُّ الحقَّ بكلماته، وإذا وعد فوعده حقٌّ، ودينه حقٌّ، ولقاؤه حقٌّ، وقوله حقٌّ، وكتبه حقٌّ، ورسله حقٌّ، وعبادته وحده لا شريك له حقٌّ.

(**المُبين**): قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، له أكثر من معنى:

الأول: الذي يُبَيِّن الأشياء، من أبان الشيء، يعني: وَضَّحَهُ.

الثاني: أنه بَيِّنٌ، فالله ﷻ لعظمتهِ وكبريائه بيِّنٌ لا يخفى إلا على من طُمِسَت بصيرته.

الثالث: البائن من خلقه، فليس هو ﷻ في شيء من مخلوقاته، وليس من مخلوقاته شيء فيه.

(**الحكيم**): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وله ثلاث معانٍ:

الأول: الذي يَحْكُم.

الثاني: ذو الحكمة.

الثالث: المُحْكِم: أي المُتْقِن.

والله ﷻ يحكم حكمًا كونيًّا، ويحكم حكمًا شرعيًّا، كما أنَّه ﷻ ذو حِكمة كونية في مخلوقاته، وحِكمة في تشريعاته، ومُحْكِمٌ لمخلوقاته وتشريعاته.

(**الحليم**): قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] الذي يَحلِم ولا يُعَجِّل عباده بالعقوبة، وما أحلم الله على عباده! حلمه عظيم جدًّا، لا نهاية له ولا غاية له، بل بلغ في الحسن كماله، كما قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»(١).

وهذا الحلم العظيم من الله ﷻ ليس على بعض الناس، بل على جميع خلقه، ولو تأمَّل العبد لوجد العَجَبَ العُجَاب من حلم الله ﷻ، مع أن الله تعالى يعلم أن الكافر لن يتوب، ومع قدرته على عقوبته فهو يَحلِمُ عنه.

(**الصَّبُور**): لا أحد أصبر من الله على أذىً سمعه، لو أن شخصًا راتبه الشهري عند إنسان مثله، ويسيء هذا العامل إلى سيده غاية الإساءة، لاشكَّ أنَّ سيِّدَه سيعاقبه، لكن الله ﷻ يُشتم، ويُؤذى، ويُنسب له الولد، ويقال: الملائكة بنات الله، ويُكْفر به، ويُتَّخذ من دونه أندادٌ ونظراء وشركاء، ومع ذلك يحلم عليهم سبحانه وتعالى.

(**الحميد**): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، أي: ذو المحامد، وهو الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة الكاملة، وجميع المخلوقات ناطقة بحمده.

(**الحيُّ**): قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، أي: ذو الحياة الكاملة التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، ولا تأخذه سِنة ولا نوم.

(**القيُّوم**): قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وله معنيان: **القائم بنفسه**؛ فلا أحد يُمِدُّه بشيء من صفاته، **والقائم على غيره**؛ فجعل لنا السَّمع والأبصار والأفئدة وغيرها، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم: (٢٥٧٧).

(**الخبير**): قال تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[التحريم: ٣]، الخبير: هو الذي يعلم الأشياء، وإذا اجتمع اسم العليم واسم الخبير، فالعليم الذي يعلم ظواهر الأشياء، والخبير الذي يعلم خفايا الأشياء وبواطنها.

(**الخالق**): قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]، أي: الذي يُقَدِّر الشيء قبل أن يبرأه أي ينفِّذه ثم يصوِّره، وقد تقدَّم تفسيره عند ذكر اسم الله البارئ.

(**الخلَّاق**): قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦] ، وهذه صيغة مبالغة، يعني: يَخلُقُ كثيرًا.

(**الرَّؤوف**): قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٧] ، الذي يرأف بعباده ويرحمهم.

(**الرحمن الرحيم**): الرحمن، أي: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة؛ هو الذي يوصل الرحمة إلى عباده، فالرحمن صفة متعلقة بالذات على وزن فعلان، والرحيم على وزن فعيل صفة متعلقة بالفعل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾، يعني: يوصل لهم الرحمة.

(**الرزَّاق**): قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ الرزَّاق صيغة مبالغة من الرازق، والرازقُ اسم فاعل، ومصدرُهُ الرَّزْق -بفتح الراء- أي الذي يرزق عباده النعم الدِّينيَّة والدنيويَّة، والمرئية وغير المرئية والحسيَّة والمعنويَّة، والرِّزق بكسر الراء هو: العين المرزوقة، فالهداية رِزق، والولد رِزق، والصحة رِزق، والمال رِزق.

(**الرقيب**): لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، وهو الذي يراقب عباده؛ فلا تخفى عليه خافية، ويَرِدُ اسم الرقيب بمعنى القائم على كل نفس.

(**السلام**): لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾، وله معنيان:

الأول: السالم من كل عيب، ونقص، وآفة، المنزَّه عن النقائص جميعًا، فلا نقص فيه بحال من الأحوال، وعليه فيكون اسمًا لازمًا.

الثاني: الذي يُسَلِّمُ غيره، فيكون اسمًا متعدِّيًا.

وكان النبي ﷺ إذا انصرفَ من الصلاة قال: «**أستغفرُ الله أستغفرُ الله أستغفرُ الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام**»(١) لأن السلامة تأتي من الله، فهو الذي يُسَلِّم عباده.

(**السَّميع**): قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، أي: الذي يسمع كل مسموع، يسمع كل الأصوات على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات قد استوى في سمعه السر والجهر.

(**الشَّاكر**): قال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وهو الذي يشكر عباده على أعمالهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾، فلا يُضِيعُ أعمالهم بل يضاعفها لهم ، ويقبل اليسير ويجازي عليه بالكثير، ويثني على عبده بين ملائكته، بل حتى أعداء الله الكفار يشكرهم فيجازيهم على أعمالهم في الدنيا، وقد يخفِّف عن بعضهم في الآخرة.

(**الشَّكور**): قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، وهو قريب من معنى الشَّاكر.

(**الشَّهيد**): الذي يشهد على كل شيء، ويطَّلع على كل شيء، ولا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، وهو جلَّ وعلا شهيد لعباده قال تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ .

(**الصَّمد**) :قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وله معنيان:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٥٩١).

الأول: الذي ليس له جوف بمعنى لا يتخلَّل ذاتَهُ ﷻ شيءٌ، لا طعام، ولا شراب، ولا ولد، وهذا لكماله، فالشيء المجوف ناقص يحتاج إلى ما يَملأ به جوفه، لكن الله ﷻ لا جوف له لكماله.

الثاني: الذي كَمُلَ في صفات الكمال، فهو السيِّد الذي كَمُلَ في سُؤدده، العظيم الذي كمل في عظمته، المستغني عما سواه، الذي يحتاج إليه كُلُّ مَن عداه تصمد إليه الخلائق بحوائجها، تقصده وتعتمد عليه وتلتمس حوائجها عنده.

(العالِم): قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾، الله ﷻ عالم الغيب والشهادة، وقريب منه العليم والعلّام الذي لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

(العزيز): قال تعالى :﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾، وله ثلاثة معانٍ:

الأول: عزَّة الامتناع، أي: لا يغلبه شيء.

الثاني: عزَّة القهر، أي: يقهر كُلَّ شيء.

الثالث: عزَّة الغلبة، أي: يغلب كل شيء.

(العظيم): قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، هو العظيم في كلِّ شيء، عظيم في كبريائه، وعلمه، وسمعه، وبصره.

(العفوُّ): هو الذي يعفو عن السيئات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾، فيعفو عن المسيئين، ويعفو عن السيئات، ويعفو عن المقصرين في أداء الواجبات.

(العليم): قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فالله بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية، عنده مفاتح الغيب، عالم الغيب والشهادة.

(العليُّ): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، العلو المطلق الذي يشمل ثلاثة أمور:

الأول: علوُّ الذات، وهذا العلو الذي ينكره أهل البدع.

الثاني: علوُّ القهر على خلقه أجمعين.

الثالث: علوُّ القدر وذلك في صفاته كلِّها.

وذَكَرَ اللهُ اسمَ العلي في آخر آية الكرسي، وهي أعظم آية في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(الغفَّار والغفور): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، وهما اسمان دالاَّن على كثرة المغفرة، وهي من صيغ المبالغة، أي: يغفر كثيرًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، فهو الغفَّار، وهو الغفور، وذو مغفرة، وأهل التقوى، وأهل المغفرة وخير الغافرين، وغافر الذنب، وقابل التوب، والمغفرة: سَتْرُ اللهِ ﷻ الذنب وتجاوزه عن المذنب، وغَفَرَ اللهُ لعبده أي ستر الله ذنبه وتجاوز عنه.

(الغنيُّ): قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾،ذو الغنى المطلق، فالله غنيٌّ عن كل مَن سواه سبحانه وتعالى.

قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

وقال ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

(الفتَّاح): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّـٰحُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فتَّاح صيغة مبالغة، أي: كثير الفتح الذي يفتح على عباده العلم والرِّزْق، ويفتح على عباده بما شاء، ويقضي فيهم بما يريد، والله يفتح بحكمه الديني الشرعي، وبحكمه القَدَري، ويفتح بحكمه الجزائي يوم القيامة بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

(القادر): أي: ذو القدرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، فهو قادر على كل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(القاهر): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، الذي قهر كُلَّ شيء، وذل له كُلُّ شيء.

(**القدوس**): قال تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾، وهو المنزَّهُ عن العيوب والنقائص.

(**القدير**): قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، فهو ذو القدرة فلا يُعْجِزه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

(**القريب**): في علوه، فهو في العلوِّ ومع ذلك قريب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

ولا منافاة بين كونه ﷻ عليًّا، وكونه ﷻ قريباً؛ لأنه ليس كمثله شيء.

(**القويُّ**): لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وهو الذي لا يعجزه شيء، فهو قويٌّ عزيزٌ.

(**القهَّار**): لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾، بمعنى القاهر، والقهَّار بالتشديد: كثير القهر، وهي صيغة مبالغة.

(**الكبير**): قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾، الذي هو أكبر من كل شيء، فهو الكبير المتعال.

(**الكريم**): قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾، أي: ذو الكرم والعطاء، وذو الصفات الحميدة.

(**اللطيف**): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، وهو الذي يلطف بعباده فيوصل لهم مصالحهم الدينية والدنيوية بخفية، ومن معاني اللطيف: العالم بخفايا الأمور اللطيفة الدقيقة.

(**المؤمن**): قال تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾، وله معنيان:

الأول: المصدِّق، الذي يصدِّق رسله ويؤيِّدهم.

الثاني: الذي يُؤَمِّن عباده المؤمنين من عذابه.

(**المتعال**): قال تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾، فهو متعال بذاته وصفاته وقهره.

(**المتكبِّر**): قال تعالى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾، وهو غير الكبير، فالكبير متعلِّق بالذات فيكون لازمًا، والمتكبر متعلِّقٌ بأفعاله فيكون متعدِّيًا.

(**المتين**): قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾، أي: ذو القوة الشديدة التي لا تنقطع، والمتين أعمُّ من القوي فقد يكون الشيء قويًّا لكن ليس متيناً.

(**المجيب**): قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾، وهو الذي يجيب مَن دعاه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

(**المجيد**): قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾، أي: ذو الصفات الكثيرة، والشيء إذا كانت له صفات كثيرة يقال عنه: المجيد، فقد وصف الله نفسه بالمجيد، ووصف القرآن -وهو كلامه وصفته- بأنه مجيد، ووصف العرش بأنه مجيد.

(**المحيط**): قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾، الذي أحاط بكل شيء عِلمًا من خلقه، والخلق لا يحيطون به علمًا.

(**المصوِّر**): قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾، هو الذي يصور الأشياء ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾، أي: فيخلقهم على صورهم.

(**المقتدر**): ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾، هو تامُّ القدرة، الذي لا يمتنع عليه شيءٌ، ولا يحتجزُ عنه شيءٌ، وهذا الاسم أبلغ من القادر.

(**المُقيت**): ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾، هو الذي يعطيهم القوت، وله معان أُخَر(١).

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابنُ عباس، وعطاء، وعطية، وقتادة، ومطر الوراق: ﴿مُّقِيتًا ﴾ أي: حفيظا، وقال مجاهد: شهيدًا، وفي رواية عنه: حسيبًا، وقال سعيد بن جبير، والسُّدي، وابن زيد: قديرًا، وقال عبد الله بن كثير: المقيت: الواصب، وقال الضحاك: المقيت: الرزاق» [تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٨].

(**الملِك**): ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾.

(**المليك**): قال تعالى: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾، الذي يملك الأشياء، ويحكم فيها.

(**المولى**): قال تعالى : ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾، هو الذي يواليه عبادُه، ويوالي عبادَه فينصرهم، ويتولى أمورهم الدينية والدنيوية.

(**المهيمن**): قال تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾، أي: المسيطر على كل شيء.

(**النَّصير**): قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾، الذي يُستنصر به، ويَنصرُ عباده ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾.

(**الواحد**): قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾، الذي لا ثاني له في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في صفاته، ولا في حقوقه.

(**الوارث**): قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾، هو الذي يرث الأرض ومَن عليها، فهو الباقي سبحانه وتعالى.

(**الواسع**): قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، الواسع في كل شيء؛ في عطائه، وعلمه، ورحمته.

(**الودود**): قال تعالى:﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾، وهو الذي يتودَّد إلى عباده بالنعم، والعطاء.

(**الوكيل**): ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾، الذي يكفي عباده فيكون عليهم وكيلًا في قضاء حوائجهم.

(**الوليُّ**): قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾، أي: هو الذي يُحَبُّ ويُوالَى، وهو يُحِب ويُوالي سبحانه وتعالى.

(**الوهَّاب**): قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾، صيغة مبالغة، أي: هو الذي يهب كثيرًا.

(**الجميل**): قال الرسول ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[(١)]، أي: ذو الجمال المطلق الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكونه جلَّ وعلا جميلًا يستوجب أن يُحَبَّ؛ لأن المحبوب إما أن يُحَبَّ لكرمه، وإما لما فيه من الصفات الحميدة، وإما لجماله، ولو نظرنا إلى هذه المعاني التي تجلب المحبة وتجعل الشيء محبوبًا؛ لوجدنا أن الله ﷻ كريم، ومنَّان ، ورَزَّاق، وأنه كذلك جل وعلا ذو الكمال والجلال، فهو سميع للأصوات، وبصير بالمرئيات، وعلى كل شيء قدير، ولوجدنا أيضًا أنه جميل يحب الجمال.

ومن الأدلة على أنه جميل: الأثر والنظر، أما الأثر: فحديث عبد الله بن مسعود؛ لما قال النبي ﷺ: «**لا يَدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إن الرجل يُحِبُّ أَن يَكونَ نَعْلُهُ حَسَنًا، وثوبه حسناً أهذا من الكبر؟ قال: «**لا، إن الله جميلٌ يحب الجمال**»[(٢)]، فهذا الأثر دال على أن الله ﷻ جميل.

وأما من جهة النظر: فإن معطي الجمال أحق به، إذا رأيت منظرًا جميلًا، أو دابةً جميلة، أو إنساناً جميلًا، أو جوًا لطيفًا جميلًا، فالله هو الذي وهبهم هذا الجمال؛ وواهب الشيء أولى به، وهو الذي خلق الجمال ووهبه لمن شاء، وأعظم نعيم أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم.

(**الجواد**): قال النبي ﷺ : «**إن الله جَوادٌ يُحِبُّ الجود**»[(٣)]، والجود هو الكرم.

(**الحَكَم**): كما في حديث: «**إن الله تعالى هو الحَكَم وإليه الحُكْم**»[(٤)]، الذي يحكم، وحكمه كونيٌّ، وشرعيٌّ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٩١).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم: (١٠٨٤٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود برقم: (٤٩٥٥)، والنسائي برقم (٥٣٨٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٦٨٢).

(**الحيي**): يعني: ذو الحياء، وفي الحديث: «**إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع العبد إليه يديه فيردهما صفرًا خائبتين**»[(١)]، وقوله جل وعلا أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾، دلت الآية على إثبات الحياء لله ﷻ مع أن فيها نفي الصفة، إذ المنطوق يدل على أنه لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها، والمفهوم منه أنه يستحيي من شيء آخر.

ومن أدلَّة إثبات صفة الحياء قول أم سُليم: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ قال: «**نعم، إذا رأت الماء**»[(٢)]، فأقرَّها النبي ﷺ على قولها: إن الله لا يستحيي من الحق، وإقرار النبي ﷺ دين وشرع.

(**الربُّ**): ذو الرُّبوبيَّة على خلقه أجمعين خَلقاً، وملكاً، وتصرفاً، وتدبيراً، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدلَّ بالسنة على إثبات هذا الاسم؛ لأنه ورد بالألف واللام في قوله ﷺ: «**فأما الرُّكوع فعظموا فيه الربَّ**»[(٣)]، وقوله ﷺ: «**السواك مَطْهَرةٌ للفم مرضاةٌ للربِّ**»[(٤)].

واستدل بعض أهل العلم على إثبات اسم الربِّ لله تعالى بقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، واسم الرب وصفة الرب وردا في كتاب الله في مقامات عديدة وسياقات متنوعة تزيد على خمسمائة مرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

(**الرَّفيق**): لحديث: «**إن الله رفيق يحب الرفق**»[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: (١٤٨٨)، الترمذيُّ برقم: (٣٥٥٦) وانظر: صحيح الترغيب للألباني (١٦٣٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم: (٢٨٢)، ومسلم برقم: (٣١٣) في صحيحيهما.
(٣) أخرجه مسلم برقم: (٤٧٩).
(٤) أخرجه أحمد برقم: (٢٤٢٠٣) والنسائي برقم: (٥) وصححه الألباني في الإرواء (٦٦).
(٥) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٩٣).

والأصل في الرِّفق اللِّين والسُّهولة والتأني في الأمور والتدرج فيها، ولله تعالى من هذا الوصف أعلاه وأكمله وما يليق بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى، والله رفيق في كونه وقدره، ورفيق في تشريعاته وأحكامه .

(السُّبوح): لحديث «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[١]، يعني: المنزَّه عن النقائص والعيوب في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومنزه عن كل ما ينافي كماله.

(السيِّد): لحديث: «**السيد الله تبارك وتعالى**»،[٢] أي: الكامل في سؤدده، فهو المالك المولى الرب ، والخلق كلهم عبيد له محتاجون إليه.

(الشَّافي):لحديث: «**واشفه أنت الشافي**»[٣]، الذي يشفي المرضى من أمراض القلوب من شكوك، وشبهات، وحسد، وحقد، ومن سائر أمراض الأبدان، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .

(الطيب): لحديث «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»[٤]، ومعناه: المقدَّس المنزَّه عن النقائص والعُيوب، والمستحق للكلمات والأفعال والعبادات الطيبات.

(القابض الباسط): لحديث: «**إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق**»[٥]، وهما اسمان يدلان على وصفين متقابلين، فهو الذي يقبض وهو الذي يبسط، فالقابض عكس الباسط، والله يبسط، أي: يوسع ويُكَثِّر فضلاً، ويقبض أي:

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٨٧).
(٢) أخرجه أبو داود برقم: (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٣٧٠٠).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم:(٢١٩١).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم:(١٠١٥).
(٥) أخرجه أبو داود برقم: (٣٤٥١)، والترمذي برقم: (١٣١٤)، وصححه الألباني برقم: (١٨٤٦).

يُضَيِّق لحكمة على مَن يشاء.

(المقدِّم والمؤخِّر): لحديث: «**أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر**»[١]، هذان الاسمان من الأسماء (المزدوجة) لا يطلق واحد بمفرده إلا مقرونًا بالآخر؛ أي: هو الذي يقدم الأشياء ويؤخر الأشياء، والله يُقدِّم ويُؤخِّر ما شاء من مخلوقاته كونًا وشرعًا.

(المُحْسِن): لحديث: «**إن الله مُحسِنٌ يحبُّ الإحسان**»[٢]، أي: كثير الإحسان.

(المعطي): لحديث : «**والله المعطي**»[٣]، هو الذي يعطي مَن شاء مِن خلقه عطاء دينياً ودنيوياً ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع .

(المنَّان): ورد اسم المنان في حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: **(اللهم إني اسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنَّان بديع السماوات والأرض ذا الجلال والإكرام)**... إلى آخره[٤]، ومعناه كثير العطاء، وعظيم المواهب، وواسع الإحسان، ولا يطلق المنان بهذا المعنى الكامل إلا على الله تعالى.

(الوتْر): حديث: «**وهو وِتْر يحب الوتر**»[٥]، أي الفرد الذي لا نظير له، ولا شريك له في الربوبيَّة، والألوهيَّة، والأسماء والصِّفات[٦].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٣٩٨)، ومسلم في صحيحه برقم:(٢٧١٩).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم: (٧١٢١)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٤٧٦).
(٣) أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم:(٣١١٦).
(٤) أخرجه أبو داود رقم: (١٤٩٥)، والترمذي رقم: (٣٥٤٤)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم: (٣٤١١).
(٥) أخرجه أبو داود رقم: (١٤١٦)، والترمذي رقم: (٤٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٠).
(٦) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «لم نذكر الأسماء المضافة مثل: (رب العالمين)، و(عالم الغيب والشهادة)، و(بديع السماوات والأرض)، وهي كثيرة؛ لأنه لم يتبين لنا أنَّها مُرادة...والمراد بالحديث الأسماء المُجرَّدة عن الإضافة» [شرح القواعد المثلى ص١١٦].

المتن

هذا ما اخترناه بالتتبُّع، واحد وثمانون اسمًا في كتاب الله تعالى، وثمانية عشر اسمًا في سنة رسول الله ﷺ، وإن كان عندنا تردد في إدخال (الحَفِي)؛ لأنه إنَّما ورد مقيَّدًا في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

وما اخترناه فهو حسب عِلمنا وفهمنا وفوق كل ذي علم عليم، حتى يصل ذلك إلى عالِم الغيب والشهادة ومَن هو بكل شيء عليم.

خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، والحفيُّ من الحفاوة؛ وهي المبالغة بالكرم، والعناية، والعطاء، والحفيُّ الذي عوَّد عبده الإجابةَ إذا دعاه[١].



(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «ليُعلم أن هذا الكتاب قرأناه على سماحة الشيخ ابن باز قراءة متأنية على انفراد، ولم ينكر هذا الشيء الذي ذكرناه من الأسماء، فيكون هناك اتفاقٌ بيني وبينه على أن هذه الأسماء صحيحة، وراعينا في ترتيبها على الحروف الهجائية لا الأبجدية» [شرح القواعد المثلى (ص١٠٤)].

المتن

القاعدة السابعة: الإلحادُ في أسماء الله تعالى هو الميلُ بها عمَّا يجب فيها.

الإلحاد في اللغة: مصدرُ ألحد يُلْحِدُ فهو مُلحِدٌ، ومعناه: الميل، ومنه سُمِّي اللحد الذي في القبر لحدًا؛ لأن القبر عبارة عن حفرة ثم مَيْل.

وشرعًا: الميل بأسماء الله عما يجب فيها.

وقد توعد الله ﷻ الملحدين في أسمائه بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: اتركوا الذين يميلون بأسمائه عما يجب فيها، ومعلوم أن الواجب فيها هو الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، وجعلها لائقة بالله سبحانه وتعالى، فمن خالف بالكفر بها، أو بإنكارها، أو بجعلها مماثلة، أو على نحو ما سيبيِّن الشيخ رحمه الله فقد أَلْحَدَ.



المتن

وهو أنواع:

الأول: أن يُـنْـكر شيئًا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهلُ التعطيل من الجهمية وغيرهم.

وإنما كان ذلك إلحادا لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميلٌ بها عما يجب فيها.

هذا النَّوع الأول من أنواع الإلحاد، وهو: الإنكار، ويُعَبَّر عنه بالتَّعطيل، ويكون بإنكار الاسم مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، فمن أنكر اسماً من أسماء الله فقد ألحد.

ويكون بإثبات الاسم مع نفي المعنى؛ كقول المعتزلة: سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، فهذا أيضًا تعطيل وإنكار، والإيمان هو أن تؤمن بالاسم وما دلَّ عليه من الصفة.

ومن الإلحاد في أسماء الله ﷻ إثبات الاسم والمعنى دون المقتضى والحكم في الاسم المتعدِّي، كما لو قال قائل: الله ﷻ قدير ذو قدرة لكن لا يقدر على كل شيء، أو هناك أشياء لا يقدر عليها أو يعجز عنها، فهذا إلحاد من النوع الأوَّل وهو الإنكار، فلا يجوز الإلحاد في أسماء الله ﷻ بالإنكار للفظها ،أو معناها، أو مقتضاها وحُكمها، بل نثبت الاسم ونثبت المعنى؛ فإن كان الاسم متعدياً أثبتنا حكمه ومقتضاه، فنقول في اسم (السَّميع) الله السَّميع، وذو سمع، ويسمع كلَّ شيء، ونقول في اسم (البصير) الله البصير، وذو بَصَر، ويبصر كلَّ شيء وهكذا.

المتن

الثاني: أن يجعلها دالَّـةً على صفاتٍ تشابه صفاتِ المخلوقينَ، كما فعل أهلُ التَّشبيه، وذلك لأن التَّشبيه معنى باطلٌ لا يمكن أن تدلَّ عليه النُّصوصُ، بل هي دالة على بطلانه، فجَعْلُها دالة عليه مَيلٌ بها عما يجبُ فيها.

النوع الثاني من أنواع الإلحاد: أن يجعل صفات الله تعالى دالة على التَّمثيل، ودالة على صفات تماثلُ صفات المخلوقين، ومعلوم أن الله ﷻ ليس كمثله شيء، وأنه ﷻ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

ومعلوم أنَّ الله ﷻ لا سميَّ له؛ لقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾،وهذا استفهام بمعنى النَّفي أي لا سميَّ له، والسميُّ الشبيه، فالله لا نظير له، ولا مثيل له، ولا سَمِيَّ له، ولا كفء له، ولا ندَّ له، فمن جعل أسماء الله ﷻ دالَّة على التمثيل، فقد ألحد في أسماء الله تعالى.



المتن

الثالث: أن يُسَمَّى اللهُ تعالى بما لم يسمِّ به نفسَهُ؛ كتسمية النصارى له: (الأب)، وتسميةِ الفلاسفة إياه (العلة الفاعلة)؛ وذلك لأن أسماءَ الله تعالى توقيفيةٌ، فتسمية الله تعالى بما لم يُسَمِّ به نَفْسَهُ مَيلٌ بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماءَ التي سَمَّوهُ بها نَفْسَها باطلة، يُنَزَّهُ الله تعالى عنها.

هذا النوع الثَّالث من أنواع الإلحاد: وهو تسمية الله ﷻ بما لم يسمِّ به نفسه، فالزيادة على ما سمَّى الله ﷻ به نفسه إلحادٌ كما أنَّ إنكار أسماء الله ﷻ أو بعضها إلحاد فيها، وأسماء الله تعالى توقيفيَّة؛ أي متوقف إثباتها على الدليل ولا مجال للعقل فيها.

ومن الأسماء التي سُمِّيَ الله ﷻ بها ولم يرد ذكرها في الكتاب والسنَّة ودلَّت على معانٍ باطلة: تسمية النصارى الله ﷻ بالأب، والله ﷻ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، و﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، وتسمية الفلاسفة الله ﷻ (العلَّة الفاعلة)، فهذا أيضًا باطل، فالله تعالى هو الخالق البارئ المصوِّر، فشتان بين أسماء الله الحسنى البالغة في الحسن كماله، وبين تسميتهم الله ﷻ: (العلَّة الفاعلة).



المتن

الرابع: أن يُشْتَقَّ من أسمائه أسماءٌ للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العُزَّى من العزيز، واشتقاق اللَّات من الإله على أحد القولين، فسَمَّوا بها أصنامهم، وذلك لأن أسماءَ الله تعالى مختصةٌ به، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ **، وقوله:** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾**، وقوله:** ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

النوع الرَّابع من أنواع الإلحاد: أن يشتق من أسماء الله أسماءٌ للأصنام؛ لأن أسماء الله خاصَّة به دون سواه، والله يقول:﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، أي: أنكم سميتموها آلهة، فهي مجرد تسمية فلا تستحق أن تكون آلهة، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: ما أنزل حجَّة تدل على أن هذه آلهة تستحق أن تُعبد مع الله تعالى.

فأسماء الله مختصة به دون سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والذي يدلُّ على الاختصاص في الآيتين: هو تقديم ما حقه التأخير، فتقديم الجار والمجرور (لله)، و(له) على المبتدأ (الأسماء) دلَّ على أنها خاصة بالله وحده دون سواه، إذ لم يقل: الأسماء الحسنى لله، وإنما قال : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.



المتن

فكما اختصَّ بالعبادة وبالألوهيَّـة الحقَّة، وبأنه يسبِّح له ما في السماوات والأرض، فهو مختصٌّ بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله ﷻ مَيْلٌ بها عما يجب فيها.

قوله: (**فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله ﷻ ميل بها عما يجب فيها**) ليس معنى هذا أنه لا يجوز لنا أن نسمي: كريم، أو عزيز، أو مَلِكٌ، بل هذا جائزٌ، وهناك من الصحابة من اسمُهُ حكيم ولم يغيِّره النبي ﷺ، فيجوز لنا أن نسمِّي بذلك، لكن مع مراعاة أمرين:

الأول: أن يكون مجرد عَلَم، مثال: شخص اسمه (خالد) مع أنه فانٍ، فيجوز تسميته بذلك.

الثاني: أن هذا المعنى ليس هو المعنى الذي يختص الله ﷻ به، وإنما هو معنى محدود يليق بهذا المخلوق، مثاله: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾، فهذا مخلوقٌ وسُمِّيَ مَلِكًا، وصفته أنه ملِك، ولكن ليس له المُلك المطلق الذي يتَّصف الله به ؛ الذي معناه أنه يملك السماوات والأرض وفعَّالٌ لما يريد، وإنَّما هو مَلِك على مُلكٍ محدودٍ مؤقَّتٍ خاصٍّ بهذا المخلوق.

لكن لا نسمِّي مخلوقاً بالرحمن، أو الله، أو الإله؛ لأن هذه لا تنطبق على المخلوق إلا عند تقييد الإله بالباطل، فيجوز أن يقال: هذا الصنم إله باطل.



المتن

والإلحاد بجميع أنواعه مُحَرَّمٌ؛ لأن الله تعالى هَدَّدَ الملحدين بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾، ومنه ما يكون شركًا أو كفرًا، حسبما تقتضيه الأدلَّة الشرعية.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ ،هذا تهديد ووعيد، أي: اتركوا طريقة وعقيدة ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ ،سيجازيهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة على إلحادهم في أسمائه.

والخلاصة أن أنواع الإلحاد أربعة:

النوع الأول: الإنكار مثل إنكار الجهمية المعطِّلة الذين يقولون: الله عز وجل لا سميع، ولا بصير، ولا عليم.

وكذلك إنكار المعتزلة الذين يقولون: الله سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، وقدير بلا قدرة.

وهؤلاء كلهم ملحدون في أسماء الله عز وجل حيث أنكروا ما أوجب الله عز وجل إثباته، والإيمان به.

والإلحاد بالإنكار يكون إما إلحادًا في الاسم، وإما إلحادًا في الصفة التي دلَّ عليها الاسم، أو ثبتت بنص، وإما إنكار الحكم والمقتضى.

النوع الثاني: جَعْلُ أسماء الله عز وجل دالة على التَّمثيل -على مماثلة صفات المخلوقين- مع أن الله يقول عن نفسه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

النَّوع الثَّالث: تسمية الله عز وجل بما لم يُسمِّ به نفسه، وهذه جناية في حَقِّ الله عز وجل، وقولٌ على الله بلا علم، ومن فعل ذلك فقد ألحد.

مثال ذلك: تسمية النصارى الله ﷻ (بالأب)، فهذه تسمية باطلة، وكفر بالله، و إلحاد في أسماء الله.

النَّوع الرَّابع: أن يشتق من اسم الله اسماً للآلهة الباطلة: كالأصنام، مثاله: اشتقاقهم العُزى من اسم الله العزيز، ومناة من اسم الله المنان، واللات من اسم الله الإله، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾، فأهل الطائف كانوا يعبدون اللَّات، وأهل مكة كانوا يعبدون العُزَّى، وأهل المدينة كانوا يعبدون مناة الثَّالثة الأخرى.

فاشتقَّ المشركون للأصنام أسماء من أسماء الله ﷻ، وهذا إلحاد.

وقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (**ومنه ما يكون شركاً أو كفراً**)، فالشِّرك كمن يشتق من أسماء الله أسماءً للأصنام، والكفر كتسمية الله تعالى بالأب.

فائدة: ذكر الإمام ابن القيم نوعًا خامسًا من أنواع الإلحاد، وهو وصف الله بما تقدَّس عنه من النقائص والعيوب، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراحَ بعدَ أن خلقَ خلقه[1].



(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٩٨) ط. (المجمع).

المتن

قواعدُ في صفات الله تعالى

القاعدةُ الأولى: صفاتُ الله تعالى كُلُّها صفاتُ كمالٍ، لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوه:

كالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، والسَّمعِ، والبصرِ، والرحمةِ، والعزَّةِ، والحكمةِ، والعلوِّ، والعظمةِ، وغير ذلك.

وقد دلَّ على هذا: السَّمعُ، والعقلُ، والفطرةُ.

أما السَّمعُ: فمنه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، والمثَلُ الأعلى هو الوصفُ الأعلى.

قال ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الأصنام التي تُعبَدُ من دون الله ﷻ لها مثل السَّوْءِ، وعُبَّاد الأصنام لهم مثل السَّوْء، لكن الله ﷻ له المثل الأعلى، وقدم الجار والمجرور فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، ليفيد الحصر والاختصاص، فالمثل الأعلى لله ﷻ وحده، والمثل يعني: الوصف، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي: صفة الجنة التي وُعد المتقون.

ومعنى الآية: ولله ﷻ الوصف الأعلى، و(أعلى) اسم تفضيل، فيكون المعنى: أنه أعلى من كل شيء، وهو سبحانه كامل في صفاته، له العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر، فالله سبحانه له أسماء تتضمن الكمال كالعليِّ، والمتعال، كما سمى نفسه بأسماء تدل على تنزهه عن النقائص: كالقدوس، والسلام.

المتن

وأما العقل: فوجهُهُ أن كلَّ موجودٍ حقيقةً فلا بدَّ أنْ تكونَ له صفةٌ، إما صفةُ كمالٍ، وإما صفةُ نقصٍ، والثاني باطلٌ بالنسبةِ إلى الرَّبِّ الكاملِ المستحقِّ للعبادةِ؛ ولهذا أظهَرَ الله تعالى بطلانَ ألوهيَّـة الأصنامِ باتِّصافها بالنَّقصِ والعجزِ، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾.

عاب اللهُ ﷻ على المشركين عبادتهم لهذه الأصنام الناقصة، وأوجب عليهم أن يعبدوه وحدَهُ لا شريك له؛ لأن الله ﷻ أوصافه كاملة، والمعبودون من دون الله ﷻ لا يستجيبون، وغافلون، ولا يسمعون، ولا يبصرون؛ لذا قال عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾، هذا دليل على أن الله يسمع ويبصر، ووجه الدلالة: أنه ما كان لإبراهيم عليه السلام أن يعيب على أبيه عبادة الأصنام؛ لأنهم لا يسمعون، ولا يبصرون، والله لا يسمع ولا يبصر؛ لذلك قال بعض أهل العلم: كان والد إبراهيم عليه السلام مشركاً، ومع ذلك هو أعلم بالله ﷻ من الجهمية والمعتزلة؛ إذ لم يَردَّ على ابنه ويقل له: «وأنت تعبد ما لا يسمع ولا يبصر»، بل أقرَّ والدُ إبراهيم عليه السلام بأنَّ الأصنام لا تسمع ولا تبصر، لكن عللوا عبادتهم بقولهم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾، فعبدناهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أضلُّ ممن يدعو مِن دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة، يعني لو وَقَفَ أمامه إلى يوم القيامة وقال: يا فلان، يا فلان؛ ما استجاب له، ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾، وهذا المدعو غافل ميِّت لا يدري أن هناك أحداً يدعوه،

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

والآيات التي استدل بها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها بيان أن الأصنام لنقصها لا تستجيب، ولا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر، فيُفْهَمُ من هذا أن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُستحِقٌّ للعبادة، كامِلٌ بجميع صفاته سبحانه وتعالى.



المتن

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾.

قوله: ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ ﴾، أي الذين يُدعون من دون الله ﷻ، حالهم أنَّهم: ﴿ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾، و﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾، إذا كان هذا حال الأصنام، والأوثان، والأموات الذين يُدعَون من دون الله ﷻ، فالله ﷻ خلاف ذلك تمامًا، فهو خالق ليس بمخلوق، وهو حيٌّ لا يموت، وهو يستجيب دعاء مَن دعاه، وهذا دليل على كمال الله تبارك وتعالى.

ولذلك المشركون إذا دخلوا النار يوم القيامة يذمُّ بعضهم بعضًا ويقولون عن أنفسهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، ساووا الآلهة الباطلةَ الناقصةَ بالله ﷻ الكامِل بجميع صفاته، ذي الكمال المطلق الذي لا يلحقه نقص بحال من الأحوال.



المتن

وقال عن إبراهيمَ وهو يحتجُّ على أبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

وعلى قومه: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، فلو كان الله ﷻ لا يسمع ولا يبصر ولا يغني -كما تقول الجهميَّة والمعتزلة - ما كان لإبراهيم وجه أن ينكر على أبيه عبادة الأصنام التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تُغني شيئًا.

وقوله: (**وعلى قومه:** ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ﴾)، هذا ما قاله إبراهيم عليه السلام عندما حطَّم الأصنام، وجعلها جُذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون، وكان إبراهيم عليه السلام ذا حجةٍ قويَّةٍ، تقصم الظهور، لكيلا يبقى للإنسان حجَّة أو عذر يوم القيامة، إمَّا أن يوحد الله ﷻ، أو يهلك عن بيِّنة، بعد بيان الحق لهم وإقامة الحجة عليهم، حطَّم إبراهيم عليه السلام الأصنام كلها إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾، قالوا: لم يفعل هذا إلا ذلك الداعي إلى التوحيد الذي ينكر الشِّرك على أهله؛ ولأن مَن أكثر مِن شيء عُرف به فما توقعوا أن أحداً حطم أصنامهم سوى إبراهيم عليه السلام، لأنَّه كان يعيب الأصنام ويتكلم عليها ويقول: لا تعبدوها واعبدوا الله، فأوّل ما حُطمت الأصنام ما ذهبت الأذهان إلا إليه عليه السلام: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾، لا أحد غيره يفعل ذلك ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ

فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾، هنا ألقمهم حجَّة، إمَّا أن يوحدوا الله، وإمَّا أن يشركوا بالله على بينة، فقال لهم: أنتم تعبدونهم، فاسألوهم مَنْ حطَّمكم؟ ولماذا لم تذبُّوا عن أنفسكم؟ اسألوا هذا الصنم الكبير لماذا لم يذب عن الأصنام الصغار؟ أو يخبركم مَن الذي حطم الأصنام؟!

فهذه حجة أقامها إبراهيم عليه السلام على هؤلاء، ولذلك عصوا الله، وكفروا به، وأشركوا به على بينة ؛ لذلك لـمَّا قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، لو أن طفلًا لا يُجيد الكلام وضُرِبَ أو أُخِذَ منه شيءٌ فسيشير بإصبعه إلى الذي ضربه أو أخذ منه شيئاً، لكن الصَّنم لا يتكلَّم، فهنا أقام عليهم حجَّة عظيمة، بعد ذلك نُكِسوا على رؤوسهم ورجعوا إلى إبراهيم عليه السلام قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾.

قالوا: كيف تأمرنا أن نسألهم وأنت تعلم أنهم لا ينطقون، لا يستطيعون أن يقولوا لنا مَن حطَّمنا، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، لكن كما قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾، لذلك قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ ، فكيفَ تُعبدُ هذه الأصنام وهي مُحتاجةٌ إلى مَن ينصرها؟! فلمَّا كان هذا شأن المخلوقات المعبودة من دون الله سبحانه وتعالى دل هذا المنطوق على أنَّ المفهوم هو أنَّ صفات الله عز وجل كلها كمال لا نقص فيها بوجه مِن الوجوه.



المتن

ثم إنه قد ثبت بالحسِّ والمشاهَد أنَّ للمخلوق صفاتِ كمالٍ، وهي مِنَ الله تعالى، فمعطي الكمالِ أولى به.

ذكر المصنِّفُ دليلًا عقليًّا وهو: أنَّ معطي الكمال أولى به؛ فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى المخلوق صفات الكمال، كالسَّمع، والبصر، والكلام، فمعطي الكمال أولى بالكمال فيما ثبت له، فالمسلم إذا نظر في ملكوت السماوات والأرض دَلَّهُ ذلك على عظمة الخالق، فإذا نظر إلى النجوم قال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾، فوجود الصفات في المخلوق يدلُّ على كمال صفات الخالق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كل كَمال ثَبت للمخلوق غير مُسْتَلْزم للنقص فخالقه ومعطيه إِيَّاه أَحَق بالاتصاف به، وكل نقص في المخْلُوق فالخالق أَحَق بالتنزه عَنهُ كالكذب، والظُّلم، والسفه، والعَيْب، بل يجب تَنْزِيه الرب تعالى عَن كل النقائص والعيوب مُطلقًا وإن لم يتنزه عَنْهَا بعض المخلوقين» [(١)].



(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٧٦).

المتن

وأما الفطرة: فلأنَّ النفوسَ السليمةَ مجبولةٌ مفطورةٌ على محبَّـة الله وتعظيمه وعبادته، وهل تُحِبُّ وتُعَظِّم وتَعْبُد إلا من عَلِمَتْ أنه متَّصف بصفات الكمال اللَّائقةِ بربوبيته وألوهيته؟

الفطرة: هي الخِلقة التي جُبِل عليها الإنسان، ولو تُرِك هؤلاء المبتدعة على فطرتهم التي خُلِقوا عليها لما فسدت عقائدهم، لكن اجتالتهم الشياطين، فالأبوان يؤثِّران في عقيدة ولدهما كما جاء في الحديث: «**فأبواه يهوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يمجِّسانه**»(١)، ولم يقل يُسْلِمانه، لأن الفطرة توافق الإسلام، فمن كانت فطرته سليمة اعتقد أن لله ﷻ صفات الكمال، لأن النفوس السليمة كما قال المؤلف رحمه الله مجبولة مفطورة على محبة الله ﷻ، فالشيء المحبوب المُعَظَّم له أسباب يُحَبُّ من أجلها ويُعظَّم ويُشكر ، حتَّى بين المخلوقين إمَّا لأنه محسن إليك، وإمَّا لما له من الصفات الحميدة، فقد يُعجب الناس بإنسان ذكيٍّ أو شجاع أو كريم فيُحَبُّ من أجل هذه الصفات، فربُّ العالمين أَوْلى بالمحبة.

ومن أسباب محبة العبد لله سبحانه وتعالى أمران:

- إحسانه إليه بالنِّعم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

- لما له من صفات الكمال والجلال «**فإنَّ الله جميلٌ يحب الجمال**»(٢)، جميلٌ بصفاته كلها، فالإنسان يحبُّه بفطرته؛ لأنه محسنٌ إليه، ولأنَّ له صفات الكمال.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٣٥٨)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٩١).

المتن

وإذا كانت الصفة نقصًا لا كمالَ فيها فهي ممتنعةٌ في حقِّ الله تعالى، كالموتِ، والجهلِ، والنِّسيانِ، والعَجْزِ، والعمى، والصَّمَمِ، ونحوها، لقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾، وقوله عن موسى: ﴿ فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾.

صفات النَّقص ممتنعة في حق الله بدليل السَّمع والفطرة، مثال ذلك: صفة الموت، فهو ممتنع في حقِّ الله ﷻ كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾، ونَفْيُ الموت عن الله ﷻ فيه إثبات لكمال حياته، والإنسان من فطرته يعلم أنَّ الموت صفة نقصٍ، فلا يتمنَّى أن يموت له قريب أو عزيز، فكيف يعتقد أن الله ﷻ يموت ؟!

كذلك العلم أكمل من الجهل، والجهل مذموم، فبالفطرة علمنا أن الله لا يوصف بالجهل، بل يوصف بالعلم الكامل.

كذلك النِّسيان صفة نقص بالدليل السمعي كما في قوله تعالى :﴿ فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾، ونَفْيُ النسيان عن الله يستوجب إثبات كمال علمه، فبالدَّليل الفطريِّ عرفنا أن النسيان صفة نقص بالنسبة للإنسان، فلا يمكن أن يتَّصف الله ﷻ به، وكذلك يقال في وصف الله ﷻ بالعمى والصمم.



المتن

وقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وقوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾.

في الآية الأولى نفى الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه العجز لكمال قدرته وعلمه ؛ لأن العجز إمَّا أن يكون لعدم القدرة، وإمَّا لنقص فيها، وإمَّا لعدم العلم أو نقص فيه، فمن كانت عنده قدرة وليس عنده علم، أو كان عنده علم وليس عنده قدرة ؛ فحتمًا سيعجز.

وقوله: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ (مِن) حرف جر جاء للتوكيد، و(شيء) نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لا يعجزه أي شيء من الأشياء.

وفي قوله: ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ﴾، نفى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن نفسه عدم السَّمع لإثبات أنه يسمع، لذلك قال: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بلى نسمع، ثم قال لإقامة الحجة على هؤلاء: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾.



المتن

وقال النبي ﷺ في الدجال: «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور».

إذا كان الله ﷻ ليس بأعور فهذا نفي يتضمن إثبات كمال ضده وهو إثبات صفة العينين، واستدل أهل العلم بقول النبي ﷺ في حقِّ الدجال: «**إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور**»[(١)] على إثبات صفة العينين لله ﷻ؛ لأن النفي المحض ليس مدحًا، فلا بد مع النفي في حق الله ﷻ من إثبات كمال ضده.

وقد قال الله ﷻ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، وقال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، فأثبت عينًا وأثبت أعيُنًا، إذًا كم عيناً لله ﷻ؟ الجواب: عينان اثنتان.

أما كون الله ﷻ قال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ فهذا ليس فيه نفيٌ لصفة العينين عن الله ﷻ، كما يقول الإنسان: رأيته بعيني، فلا يعني ذلك أن ليس له إلا عينٌ واحدة، فَذِكْرُ العين الواحدة لا ينافي العينين، ولأن العين في قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ مضافة، والمفرد إذا أُضيف يفيد العموم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، أي: نعم الله بدليل قوله: ﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾، فلو كانت نعمة واحدة لكان بالإمكان إحصاؤها.

وأمَّا قول الله ﷻ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، فالجمع بينه وبين إثبات العينين من وجهين اثنين:

الوجه الأوَّل: أن أقل الجمع اثنان، فالرجل يصلي مع الرجل ويقول: صليت جماعة؛ لأنه مع آخر، فيطلق على الاثنين جمع.

الوجه الثاني: أن المثنَّى عندما يضاف إلى ضمير الجمع يصح جمعه، ونظير هذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٤٠٢)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٩٣٣).

قول الله ﷻ عن زوجتين من أزواج النبي ﷺ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، فلم يقل ﷻ: (قلباكما)، وإنما قال: (قُلُوبُكُمَا)؛ لأن المثنى عندما يضاف يُجمع.

فلو كان لله ﷻ أعين كثيرة، لقالَ النبي ﷺ: إنه أعور وإن ربكم له أَعْين، لكن لم يقل: له أَعْيُن، وإنَّما قال: «**ليس بأعور**»، فدلَّ على أنَّ لله ﷻ عينين.

والدليل النَّظري: أن العينين هما الكمال، ولذلك لا يوجد أحد يرجو أن يرزقه الله بولد له أكثر من عينين، لأنه ليس كمالاً، إذًا الكمال أن يكون لله ﷻ عينان وهو كذلك، وهذه مسألة قد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع عليها، بدليل: «**وإن ربكم ليس بأعور**».



المتن

وقال: «أيها الناس، اِرْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا».

«اربعوا على أنفسكم»، يعني: هوِّنوا على أنفسكم، وخفِّفوا عليها، ولا تشقوا على أنفسكم، **«فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا»**، **«لا تدعون أصم»** أي: تدعون سميعًا، **«ولا غائبًا»**، أي: قريبًا، فهذا النفي يدل على إثبات صفات الله ﷻ.

ومن هنا يتبيَّن خطأ بعض الناس في الطواف والسَّعي في الحجِّ والعمرة، يدعون الله ﷻ بأصوات عالية، يزعجون أنفسهم ويزعجون الناس، ولا يتأدَّبون مع الله في الدعاء، كما أنه يحصل بذلك تشويش على الخاشعين الذين يدعون الله ﷻ خفية ودون الجهر، والمشروع في الدعاء أن يكون بأدب وخشوع وخضوع.

والإنسان إذا أراد أن يسأل مخلوقاً مثله لا يسأله بصراخ وإنَّما يتأدب معه، فكيف بالله ﷻ؟ فهو أحق أن يُتأدَّبَ معه، لذلك قال النبي ﷺ: **«اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا»**(١).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٩٩٢)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٠٤).

المتن

وقد عاقب الله تعالى الواصفين له بالنَّقص، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾.

هذه الآية فيها فوائد منها:

١ - تحريمُ وَصْفِ الله ﷻ بالنَّقص وأنه من فِعل اليهود

٢ - إثبات صفة اليد لله ﷻ، فلو لم يكن له يَدٌ لم يقل: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾.

٣- أن اليهود أعلم بالله من المحرِّفة من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، حيث أثبتوا لله ﷻ يداً لكن القبيح -في قولهم واعتقادهم- وصفُهم لها بأنها مغلولة، بينما هؤلاء المحرِّفة يقولون: ليس لله يَدٌ.

٤ - أن الله ﷻ وصف يديه بالبسط، وهذا يمنع من تحريف اليدين إلى غير معناها.

٥ - أنَّ مَن وَصَفَ الله بالنقص يستحق اللعن والذم.

٦ - أن لله ﷻ يدين اثنتين لقوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، والتثنية تدل على أنهما يدان حقيقيتان.

وأمَّا ذِكْرُ الله تعالى لليد بلفظ الجمع في قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾، فالجمع بينه وبين إثبات اليدين من وجهين:

أولاً: يقول أهل العلم: إن أقل الجمع اثنان فيعبر عن اليدين بصيغة الجمع، لأن المثنى جمع.

ثانياً: أن المُثَنَّى إذا أُضيف إلى الضمير فإنه يصح أن يُجمع، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، وهذا الخطاب لامرأتين اثنتين،

فلم يقل الله ﷻ: قلباكما، وإنما قال: (قُلُوبُكُمَا)، فيقال في (أَيْدِينَآ) مثل ما قيل في (قُلُوبُكُمَا).

أما قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، فإن هذا لا ينافي اليدين، وهذا معروف في لغة العرب أنَّ مجيء الكلمة بصيغة الإفراد لا يُنافي الجمع، فأنت تقول: كتبتُ هذا بِيَدِي، فليس معناه أنه ليس لديك يدٌ أخرى.

وأيضاً الكمال في الإنسان أن يكون له يدان اثنتان، فلا يتمنى أحدٌ أن يرزقه الله ﷻ بولدٍ له أكثر من يدين؛ لأن هذا تشويه وليس كمالاً، والله ﷻ أولى بالكمال.

ومن أدلة إثبات اليدين قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، وأهل البدع يؤوِّلون اليد بالقدرة، فيُرَدُّ عليهم من أوجُهٍ:

أوَّلاً: لو أراد باليدين القدرة لقال: بيَدِي بالإفراد.

ثانياً: لو كان اليد معناها القدرة لقال إبليس: وأنا خلقتني يا رب بيديك، ليس آدم فحسب.

ثالثًا: أنَّ الله ﷻ خلق كل شيء بقدرته، فلماذا خص آدم بالخلق باليد؟!

ومما يدلُّ أيضًا على ثبوت صفة اليدين لله ﷻ حديث الشفاعة، حينما يقول الناس في ذاك الموقف العظيم: «**يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده**»[١]، ولا يقال لغير آدم عليه السلام بأن الله خلقه بيده، فإخبار الرسول ﷺ أن الله ﷻ خلق آدم بيده يدل على أن الله ﷻ خلقه بيدٍ حقيقية.

ولم يَبْقَ لأهل البدع إلا أن يقولوا: إذا قلنا بأن لله يدًا مثلناه بالمخلوق، قلنا لهم: ومن المخلوقات ما ليس له يد، فإذا قلتم: الله ليس له يد فقد مثلتموه بالمخلوق الذي ليس له يد، وإن قلتم: الله ﷻ ليس له يد ولا يماثل المخلوقين، قلنا لهم: أثبتوا

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٣٤٠)، ومسلم برقم: (١٩٣) في صحيحيهما.

ما أثبته الله ﷻ لنفسه مع نفي التمثيل.

ونقول لهم أيضًا: المخلوقات لها أيادٍ وهي متفاوتة، فيَدُ الرَّجُلِ غير يد المرأة، ويد المرأة غير يد الطفل، ويد الإنسان اليمين غير اليد الشمال، فيَدُه لـمَّا كان صغيرًا تختلف عنها لـمَّا أصبحَ شيخًا، فاليد الواحدة تتغير من زمان إلى زمان، فإذا كان هناك تفاوت في اليد الواحدة في إنسان واحد بين زمن وزمن، فَلأنْ يكون التفاوت بين يد الله ﷻ وبين يد المخلوق من باب أولى، فالله ﷻ يقبض بيده الأرض، ويطوي بيمينه السماء، فلا يعقل أن هذه اليد إذا أثبتناها لله ﷻ يلزم من ذلك أنها يد تماثل أيدي المخلوقين، بل الله ﷻ يده تليق به، والمخلوق يده تليق به، لكن الله ﷻ وصف نفسه بصفات معلومة وموجودة في المخلوقين حتى يُعرف، فوصف نفسه جل وعلا بأن له وجهاً، ويداً، وأصابع، وقدماً، ورِجلاً، واستوى على العرش، ويرضى، ويعطي ويمنع، حتى يُعرف، ولو وصف نفسه بأوصاف غير معروفةٍ، ولا موجودة في المخلوقين ألفاظها ومعانيها لما عرفوا الله ﷻ.



المتن

وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

ونزَّه نفسَهُ عمَّا يصفونه به من النَّقائصِ، فقال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وإذا كانت الصفةُ كمالًا في حالٍ، ونقصًا في حالٍ، لم تكن جائزةً في حق الله ولا ممتنعةً على سبيل الإطلاق، فلا تُثْبَت له مطلقًا، ولا تُنْفَى عنه نفيًا مطلقًا، بل لا بد من التفصيل: فتجوزُ في الحال التي تكون كمالًا، وتمتنع في الحال التي تكون نقصًا، وذلك كالـمَكْرِ، والكيد، والخداع، ونحوها؛ فهذه الصفاتُ تكونُ كمالًا إذا كانت في مقابلةِ مَن يعاملون الفاعلَ بمثلها؛ لأنها حينئذٍ تدل على أن فاعلها قادرٌ على مقابلة عدوِّه بمثل فعله أو أشدَّ.

وتكونُ نقصًا في غير هذه الحالِ، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلةِ مَن يعاملونَـهُ ورسلَهُ بمثلها؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

الصفات ثلاثة أنواع:

الأولى: صفة كمال محض، وهذه نثبتها لله ﷻ على إطلاقها.

الثانية: صفة نقص محض، وهذه ننفيها عن الله ﷻ على إطلاقها.

الثالثة: صفات تكون كمالًا في حال، ونقصًا في حال، فنثبتها لله ﷻ حال الكمال، وننزه الله ﷻ عنها حال النقص.

مثال الأولى: صفة الحياة والقيُّومية والعلم، كلها صفات كمال محض، فهذه نثبتها لله على الإطلاق.

مثال الثانية: صفة العَوَر، والعجز، والظلم، فهذه صفات نقص محض، فالواجبُ نفيُها عن الله ﷻ نفيًا مطلقًا.

مثال الثالثة: الخداع والمكر والكيد والاستهزاء؛ فإنها تارة تكون كمالًا، وتارة تكون نقصًا.

فصفة الخداع في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾.

وصفة المكر في قوله تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

وصفة الكيد، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾.

وصفة الاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾.

هذه صفات ليست كمالاً على إطلاقها، ولا نقصاً على إطلاقها، وإنما هي كمال في حال، وهو أن يُعاقِب الله ﷻ بها مَن يستحق ذلك.



المتن

ولهذا لم يذكر الله ﷻ أنه خانَ من خانُوهُ، فقال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، فقالَ: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ ﴾، ولم يقل: فخانهم، لأن الخيانة خِدعة في مقام الائتمان، وهي صفة ذم مطلقًا.

وبذا عُرف أن قول بعض العوامِّ: (خانَ اللهُ ﷻ من يخون) منكرٌ فاحشٌ يجب النهيُ عنه.

صفة الخيانة مذمومة مطلقًا، وليت المؤلِّف رحمه الله أضاف مثالاً آخر مما يقوله بعض العامة إذا أراد أن يُبرِّئ نفسه: (الله يظلمني إن كنتُ ظلمتُك)، فلو كان ظالمًا فلن يظلِمَه الله ﷻ؛ لأن الظلم نقص محض، فالله ﷻ لا يظلم أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾، وقال:﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾، وقال:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾.

فقول العامة: (خان الله مَن يخون)، أو (الله يظلمني إن كنت ظلمتُك)، كل هذه الألفاظ لا تجوز؛ لأنه ليس فيها حال كمال وحال نقص، بل كلها نقص.



المتن

القاعدة الثَّانيةُ: بابُ الصِّفات أوسع من باب الأسماء:

وذلك لأنَّ كل اسم متضمِّنٌ لصفةٍ - كما سبق في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء-؛ ولأنَّ من الصِّفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعالُه لا منتهى لها، كما أن أقوالَه لا منتهى لها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ومن أمثلة ذلك: أنَّ من صفات الله تعالى: المجيءُ، والإتيانُ، والأخذُ، والإمساكُ، والبطشُ، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، **وقال:** ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾، **وقال:** ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، **وقال:** ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، **وقال:** ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، **وقال:** ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وقال النبي ﷺ: «ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا».

فَنَصِفُ الله تعالى بهذه الصِّفاتِ على الوجه الوارد، ولا نسمِّيه بها، فلا نقولُ: إن من أسمائه الجائي، والآتي، والآخذُ، والممسكُ، والباطش، والمريد، والنَّازل، ونحو ذلك، وإن كنا نخبر بذلك عنه ونصفه به.

هذه قاعدة واضحة، فقد يَصِفُ الله ﷻ نفسه بصفة لكن لا يُشتق له من هذه الصِّفة اسم، فكل أسماء الله تدل على الصِّفات، ولكن ليس كل صفات الله ﷻ تدل على الأسماء؛ لأن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، فالله ﷻ يفرح بتوبة

عبده، ولكن لا نسمِّيه الفارح، والله ﷻ يبطشُ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾، ولكن لا نسميه الباطش، والله ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا ولكن لا نسميه النَّازل، بل نصفه بأنه ينزل؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ينزل ربنا إلى سماء الدنيا**»[١]، فنصفه بما وصفه به رسوله ﷺ، والله تعالى مستوٍ على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، فنصفه بأنه على العرش استوى، لكن لا نسميه المستوي.

فائدة: باب الإخبار عنه ﷻ أوسعُ من باب الأسماء والصِّفات.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يُخبَر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا»[٢].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٤٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٥٨).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٨٤) ط. (المجمع).

المتن

القاعدة الثالثة: صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتيةٌ وسلبيةٌ.

الصِّفات الثبوتيَّة: هي ما أثبتها الله تعالى لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ، مثالها: السمع، والبصر، والعلم، والعَجَب.

والصِّفات السلبيَّة(١): هي التي نفاها الله تعالى عن نفسه أو نفاها عنه رسوله ﷺ، مثالها: الغفلة والعجز والموت والعَوَر والظلم، لكن هذه الصفات ننفيها مع إثبات كمال ضدها لله عز وجل.

وما لم يأت إثباته ولا نفيه نسكت عنه ما لم تكن صفة نقص محض فننفيها عن الله عز وجل وإنْ لم يأت نفيها عن الله ؛ لأنها صفة نقص محض، مثل صفة الخيانة.

ومثال الصفات التي لم يأت إثباتها ولا نفيها الجسم، والجوهر، والعَرَض.



(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: « قولنا: (سلبية)، يعني المنفية ... قلنا هذا تبعًا لغيرنا، وإلا فالأولى أن يُقال: (ثبوتية ومنفية)؛ لأنَّ قولنا: (منفية) أوضح، وهي التي جاء بها القرآن، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ » [شرح القواعد المثلى ص١٤٧].

المتن

فالثبوتية: ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكلُّها صفاتُ كمالٍ، لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

كالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، والاستواءِ على العرشِ، والنزولِ إلى السماءِ الدنيا، والوجهِ، واليدينِ، ونحو ذلك.

فيجب إثباتُها لله تعالى حقيقةً على الوجه اللائقِ به؛ بدليل السمع والعقل.

إذا أثبت الله جل وعلا لنفسه صفة، فيجب أن نثبتها، ونؤمن بها؛ لأن الله ﷻ أعلم بنفسه من خلقه، فمثلاً قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، فأخبر عن نفسه أنه استوى على العرش فلا يَسَعُ المؤمن إلا الإيمان بهذه الصفة، فلا يجوز للمسلم أن يتردد في إثبات كل ما أثبت الله لنفسه في كتابه.

ونؤمن ونثبت كلَّ ما أثبته رسولنا ﷺ، ورسول الله، فنقول: رسول الله باعتبار أن الله ﷻ أرسله، ورسولنا باعتبار أنه مرسل إلينا، فنثبت لله ﷻ كل اسم أو صفة أثبتها رسول الله ﷺ لله تعالى صحت عنه؛ لأن الله ﷻ أوحى إليه ذلك، والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ، قال جل وعلا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، و(إن) هنا بمعنى: (ما) النافية يعني ما هو إلا وحي يوحى فتكون للحصر، ولها أمثلة في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ ،يعني ما أنا إلا نذير، وقوله تعالى : ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾، يعني: ما أنتم إلا تكذبون.

ومما يدل على أن كلام النبي ﷺ وحيٌ، قصة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله

فأومأ بإصبعه إلى فيه، فقال: «**اكتب فَو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقٌّ**»(١).

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الواسطيَّة: (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه، ثم رسله صادقون مصدَّقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون).

فيجب علينا أن نسير على منهج السلف؛ لأنه منهج معتمد على الكتاب والسُّنَّة، فنؤمن بما أثبت الله لنفسه في كتابه من الأسماء والصِّفات، ونؤمن بما أثبته رسوله ﷺ في سنَّته من الأسماء والصفات.

ثم أورد المؤلف رحمه الله بعض صفات الله عز وجل كالحياة، والعلم، والقدرة إلى آخر ذلك، فهذه الصِّفات نثبتها كما أثبتها الله لنفسه في كتابه وكما أثبتها رسوله ﷺ في سنَّته.

وقوله رحمه الله: (**حقيقة**) للتوكيد؛ احترازًا من أن يقول أحد: صفات الله عز وجل مجاز، قوله: (**بدليل السمع**)، يعني الكتاب والسنة، (**والعقل**) يعني: العقل الصريح.



(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٣٦٤٦)، والترمذي برقم: (٢٦٦٨)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم: (١٥٣٢).

المتن

أما السَّمعُ: فمنه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

فالإيمانُ باللـهِ يتضمَّن: الإيمانَ بصفاتِـهِ.

والإيمانُ بالكتابِ الذي نَزَّلَ على رسوله ﷺ يتضمَّن: الإيمانَ بكلِّ ما جاء فيه من صفات الله.

وكونُ محمدٍ ﷺ رسولَـهُ يتضمَّن: الإيمانَ بكل ما أخبر به عن مرسِلِـهِ، وهو الله ﷻ.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل السَّمعيَّ على وجوب إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلا، وهو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية.

الشاهد منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ فأمرنا الله ﷻ أن نؤمن به، والإيمان بالله ﷻ يقتضي أربعة أمور: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، والله ﷻ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾، وهذا يقتضي أن نؤمن بأسماء الله وصفاته كما أمرنا الله ﷻ.

وأمرنا الله أن نؤمن برسوله ﷺ، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، والإيمان برسول الله ﷺ يقتضي أربعة أمور:

١- تصديقه فيما أخبر.

٢- وطاعته فيما أمر.

٣- والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

٤- وألا يعبد الله ﷻ إلا بما شرع.

فالإيمان بالرسول ﷺ يقتضي تصديقه بما أخبر، فإذا أخبر أن الله ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا، اقتضى ذلك أن نؤمن بنزول الله ﷻ إلى السماء الدنيا، وإذا أخبر بأن الله يفرح بتوبة عبده، فمقتضى الإيمان بالرسول ﷺ أن نؤمن بذلك.

ثم قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، والإيمان بكتاب الله يقتضي أن نؤمن به كله، ومما جاء به الكتاب: آيات الصِّفات كقول الله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وقوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

فالمسلم مأمورٌ بالإيمان بالكتاب كُلِّه، وأن لا يفعل كما فعل أهل الكتاب من قبلنا، كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، إذًا فالآية فيها الأمر بالإيمان، وفيها الوعيد لمن كفر، والكفر بالله ﷻ يكون بإنكار وجوده، أو إنكار ربوبيَّته، أو إنكار ألوهيَّته، أو إنكار أسمائه وصفاته، فالله ﷻ أمر بالإيمان به وتوعَّد مَن يَكْفُرُ به، فقال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾، ففي الآية وعيد لمن يكفر بالكتاب، والكتب معلومة، وأعظمها وخاتمها والمهيمن عليها هو القرآن.

ثم قال: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، أمرنا الله ﷻ في هذه الآية بالإيمان بالرُّسل، ثم بيَّن أن من يكفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.



المتن

وأمَّا العقلُ: فلأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه، وهو أعلم بها من غيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من غيره، فوَجَبَ إثباتها له كما أخبرَ بها من غير تردُّدٍ، فإن التردُّد في الخبر إنما يتأتَّى حين يكون الخبرُ صادرًا ممَّن يجوز عليه: الجهلُ، أو الكذب، أو العيُّ، بحيث لا يفصح بما يريد، وكلُّ هذه العيوب الثلاثةِ ممتنعةٌ في حقِّ الله ﷻ، فوجب قَبولُ خبره على ما أخبر به.

أما الدليل العقلي على وجوب إثبات الأسماء الحسنى، والصفات العُلَا فلأن أسبابُ رَدِّ الخبر ترجع إلى أمور:

إما أن يكون المُخْبِرُ كاذبًا، أو يكون غاشًّا أو جاهلًا، أو عَيِيًّا -أي عاجِزًا- عن النطق إما لعجمةٍ أو لثقل في لسانه، وهذه الأمور منتفية في حقِّ الله ورسوله ﷺ.

أمَّا الصِّدقُ فالله يقول عن نفسه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾؟ ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾؟، والاستفهام في الآيتين بمعنى النفي، يعني: لا أحد أصدق من الله قيلًا، ولا أحد أصدق من الله حديثًا، فانتفى عن كلام الله ﷻ الكذب.

كذلك الله علَّام الغيوب، وهو أعلم بنفسه من خلقه، وأعلم بخلقه من أنفسهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾، فانتفى عن كلام الله الجهل.

كذلك كلام الله ﷻ أحسن الكلام فصاحة، ونظمًا، وبلاغة، وألفاظًا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، فانتفى عن كلامه العيُّ، فكلام الله ليس ككلام البشر، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾، أي: ولو تعاونوا لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فما الذي يجعل الإنسان يتردَّد في إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه؟

فمثلاً: نحن نقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، فنُثبِت الاستواء لله، وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾، فنثبتُ الاستهزاء لله ﷻ بمن يستحق الاستهزاء؛ لأنه كلام رب العالمين فهو أعلم، وأصدق قيلاً وأحسن حديثًا.

لكن المبتدع يقول: أعوذ بالله أن أصف الله وأقول: (الله يستهزئ بهم)!!

سبحان الله، كيف تتعوَّذ بالله؛ أن تقول عن الله ﷻ ما قاله عن نفسه؟! فهو من قال: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾، وكأن هذا المبتدع يستدرك على الله ﷻ، ويقول: (هذا الكلام لا يليق بك، وأنا أُنزِّهك عنه)!

فيقال له: وهل يُعقلُ أن يَصِفَ الله تعالى نفسهُ بما لا يليق به؟!

ثم هذا المبتدع يكذب مرةً أخرى على الله فيقول: هذا غير لائق بالله وما أراد الله ظاهره.

فنقول له: كلامك مردودٌ؛ لأنه ليس في كتاب الله ﷻ، ولا في سُنَّة نبيِّه ﷺ، ولم يقُل به أحدٌ من الصحابة.

فالسنيُّ على أرض صلبة لا يتشكك ولا يتردد، فيقول عن الله ﷻ ما قاله عن نفسه، وينفي عن الله ما نفاه عن نفسه، مؤمن بذلك كله على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى.



المتن

وهكذا نقولُ فيما أخبر به النبي ﷺ عن الله تعالى، فإن النبي ﷺ أعلم الناس بربه، وأصدَقُهم خبرًا، وأنصَحُهم إرادةً، وأفصَحُهم بيانًا، فوجَبَ قَبولُ ما أخبر به على ما هو عليه.

وكذلك الحال في كلام رسول الله ﷺ، فإنه الصَّادق المصدوق، قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصَّادق المصدوق ، فالصَّادق المصدوق رسول الله ﷺ، عالم بالله عز وجل، صادق بقوله، فصيح في كلامه، ناصح للأمة.

فرسول الله ﷺ جمع بين الصِّدق والعلم والفصاحة وكمال النصح، فإذا ثبتت صِفَةٌ لله في سنة النبي ﷺ مثل قوله ﷺ :(**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال : يقاتِل هذا في سبيل الله عز وجل فيُسْتَشْهِدُ ثم يتوبُ الله على القاتل فيُسْلِم فيُقاتِل في سبيل الله عز وجل فيستشهد)** [١] أحدهما مشرك والآخر مسلم فيقتل المشركُ المسلمَ فيدخل المسلمُ الجنة، ثم يسلم المشركُ فيُقتَلُ في سبيل الله فيدخل الجنة.

فإذا جاءنا هذا الحديث فلا نتردد في إثبات صفة الضَّحك لله عز وجل؛ لأن الرسول ﷺ قال: (يضحك الله)، فنقول مثل ما قال، فإذا عاب علينا أحد فهو في الحقيقة إنما يعيب على رسول الله ﷺ، فكأنه يقول: إن الرسول ﷺ وصف اللهَ بما لا يليق به، وهذا غير لائق بالرسول ﷺ، ولا يمكن أن نصفه بذلك وهو الذي قال الله عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، فلقد أوحي إليه بأن يقول لأمته (يضحك الله) فما يسعنا إلا أن نقول: آمنَّا وصدَّقنا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٨٢٦)، ومسلم برقم: (١٨٩٠).

ويضاف في حق الرسول ﷺ أنه الصَّادق المصدوق، فهو صادقٌ فيما يقول ومصدوق، أي: أن رب العالمين يصدِّقه ويُقرُّه على ما يقول، وقد قال الله تعالى في كتابه عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾، فمن تقوَّل على الله ﷻ فإن الله ﷻ يقصمه في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن الله ﷻ لا يرضى أن يتقوَّل عليه أحدٌ حتى رسول الله ﷺ وحاشاه ﷺ أن يتقوَّل على الله ﷻ.

وكذلك العلم، فقد علَّم الله ﷻ نبيَّه محمدًا ﷺ فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فهو ﷺ يتلقى العلم من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.



المتن

والصِّفات السَّلبيَّة: ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكُلُّها صفات نقص في حقه، كالموتِ، والنَّومِ، والجهلِ، والنِّسيانِ، والعَجزِ، والتَّعبِ.

هذه الصفات نفاها الله ﷻ عن نفسه، **والقاعدة**: أن الله ﷻ إذا نفى عن نفسه صفة فيستلزم إثبات كمال ضدها.

فنفى الله ﷻ عن نفسه صفة الموت في كتابه في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[الفرقان: ٥٨]، وهذا يستلزم إثبات كمال ضده وهو الحياة.

مثال آخر: نفى الله ﷻ عن نفسه الضلال والنسيان، أي الخطأ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾، وذلك لكمال علمه ﷻ.

ومثال ثالث: نفى الله ﷻ عن نفسه العجز كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾، لكمال علمه وقدرته، فلذلك لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ومثال رابع: نفى الله ﷻ عن نفسه التَّعب في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، واللغوب أدنى أنواع التعب، وهذا النفي لكمال علمه وقدرته، فالجاهل يتعب وكذلك العاجز، أما ربُّ العزة سبحانه لا يتعب لكمال علمِهِ وقدرته.



المتن

فيجب نَفْيُها عن الله تعالى -لما سبق- مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيانُ انتِفائه؛ لثبوتِ كمال ضدِّه، لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال، إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدمٌ، والعَدَمُ ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون كمالًا، ولأن النَّفي قد يكون لعدم قَابلية المحل له، فلا يكون كمالًا، كما لو قلت: الجدار لا يظلم.

وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصًا، كما في قول الشاعر:

قُـبَـيِّـلَـةٌ لا يـغـدرون بذمَّة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسبٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:إذا قيل: الجدار لا يَظلم، فهذا ليس مدحاً للجدار؛ لأن الجدار غير قابل للظلم، و كذلك إذا قيل: الضعيف العاجز لا يظلم لأنه غير قادر على الظُّلم.

ثم استدل بقول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمَّة ... ولا يظلمون الناس حبةَ خردلِ

لا يظلمون ولا يغدرون؛ لأنهم قُبَيِّلة تصغير قبيلة، فهم خائفون، وهم أيضًا لا يظلمون لعدم قدرتهم على الظلم، مثال: إذا كانت هناك دولة عظيمة تتعدَّى على دولة صغيرة، وكان ردُّ الدولة الصغيرة الصَّبر، فهذا ليس مدحًا لها؛ لأنها دولة ضعيفة غير قادرة على الرد.

المتن

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، فنفيُ الموتِ عنه يتضمَّن كمال حياته.

مثال آخر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، نفيُ الظلم عنه يتضمن كمال عدله.

مثال ثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فنفيُ العجز عنه يتضمن كمالَ علمه وقدرته؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

لأن العجز سببه: إمَّا الجهلُ بأسبابِ الإيجاد، وإمَّا قُصورُ القدرةِ عنه؛ فلكمال علمِ الله تعالى وقدرتهِ لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

وبهذا المثال علمنا أن الصفة السلبيَّة قد تتضمن أكثر من كمال.

كلام المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضح، ونضرب أمثلة أخرى، فنقول: نفى الله عَزَّ وَجَلَّ عن نفسه الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، لكمال وحدانيَّته، وغناه، فالإنسان يفنى إن لم يتزوَّج، فهو بحاجة للزَّوج والولد، لكنَّ الله غني عن ذلك، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ﴿وَلَمْ﴾ حَرْف نفي وقَلْبٍ وجَزم، نفت أن يكون له كُفء؛ وذلك لكمال صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وهذا أيضًا نفيٌ ويدل على كمال صفاته كلِّها.

قوله: (**وبهذا المثال**): يعني قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فالله ﷻ لا يعجزه شيء في السماوات ولا الأرض لكمال علمه وقدرته، وفيها إثبات كمال ضِدِّ العجز وهو العلم والقدرة.

ومثالٌ آخرُ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾، وذلك لكمال رحمته وعدله.



المتن

القاعدة الرابعة: الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالاتُها ظهر من كمالِ الموصوف بها ما هو أكثر؛

ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثرَ بكثيرٍ من الصفات السلبية، كما هو معلوم.

الصفاتُ الثبوتية تأتي في القرآن مفصلة غالبًا، لأن التفصيل في موضع الإثبات أجمل وأكمل وأبلغ في المدح.

مثال الإثبات على سبيل التفصيل في ختام سورة الحشر قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقوله تعالى في مطلع سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، ومطلع سورة طه، وسورة الرعد، وصفة الاستواء يأتي ذكرها دائما في سياق المدح المفصل.

وأما الصِّفات المنفيَّة فتأتي على سبيل الإجمال؛ لأنَّ ذلك أبلغ في الكمال، أي: يأتي نفي صفة معينة في كتاب الله، وهذا يكون لمناسبة غالبًا، فلمَّا قالت اليهود: إن الله ﷻ بعد خلق السماوات والأرض تعب في اليوم السابع واستراح، ردَّ الله

عليهم فقال :﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، ولمَّا قالوا : اتخذ ولدًا، قال:﴿لَمْ يَلِدْ ﴾، ولمَّا قالوا :﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ،قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.

فالغالب أن يأتي النفي مجملًا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وهذا أبلغ.

هذا الأسلوب العربي جاء في القرآن؛ لأن القرآن بلسان عربيٍّ مبين، فكما أنَّ كلماته عربية، فكذلك أساليبه عربية، هذه قاعدة من قواعد الصفات، وهي: **أن الصفات الثبوتيَّة مدح وكمال يأتي فيها التنوع، بينما صفات النفي تأتي مجملة غالباً.**

يقول بعض أهل العلم: لو أن رجًلا أراد أن يمدح ملِكًا من الملوك فيقول له في باب الإثبات: أنت كريم، وشجاع، وذكي، يفصِّل له المدح، وإذا أراد أن ينفي عنه يقول: أنت لست كأحد من رعيتك، ولست كسابقيك من الملوك، أو أنت لست كغيرك من الملوك، ينفي نفياً مجملاً، ويثبت إثباتاً مفصلاً.

لكن لو نفى نفياً مفصلاً لكان ذلك قبيحاً، كما لو دخل رجل يريد أن يمدح ملكًا من الملوك وقال له: أنت لست خبيثًا، ولا خائنًا، ولا لصًّا، فهذا يستحق العقاب من الملك.

وهذه طريقة أهل البدع، فيقولون عن الله: (ليس جسمًا، ولا عرضًا، وليس في جهة)، وهذا ليس سديدًا.



المتن

أما الصِّفاتُ السلبية فلم تذكر غالبًا إلا في الأحوال التالية:

الأولى: بيانُ عموم كماله، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

الثانية: نفيُ ما ادَّعاه في حقِّه الكاذبون، كما في قوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعيَّن، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

جاء النفي مفصلًا ردًّا على دعوى اليهود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، وذلك لأنهم ادعوا أن الله ﷻ لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام تعب فاستراح في اليوم السابع، فرَدَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، واللغوب: أدنى أنواع التعب، فنفى الله تعالى ما قد يتوهَّمه بعضهم من أن الله ﷻ لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام لم يكن قادرا على أن يخلقها في أقل من ذلك، أو لأن هذا أقصى قدرته، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، وإنما لحكمة يعلمها الله جل وعلا.

ومن الأمثلة التي جاء فيها النفيُ مفصَّلًا لدفع توهُّم النقص في كمال الله ﷻ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾، فالآية تدفعُ توهُّم أن الله ﷻ خلق الخلق عبثًا ولَعِبًا؛ لأنه قد يظن بعض الناس أن الدنيا موت وحياة ثُمَّ لا حساب ولا ثواب ولا عقاب، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ،فنفى أن يكون قد خلق الخلق عبثًا ولعبًا.

المتن

القاعدة الخامسة: الصفات الثبوتيَّة تنقسم إلى قسمين: ذاتيَّة وفعليَّة.

الصفات الذاتية: هي الصِّفات التي لا تنفك عن ذات الله، كالحياة، والقدرة، والعلم، والرحمة.

الصِّفات الفعليَّة: هي الصفات المتعلِّقة بمشيئة الله ﷻ متى شاء فعلها، كالنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء، والإتيان.

ومن صفات الله عَزَّوَجَلَّ صفاتٌ ذاتيةٌ باعتبار، وفعليَّة باعتبار: وهي التي متى شاء الله ﷻ فعلها، فيقال: أصل الصِّفة ذاتيَّة، وآحاد الصفة فعليَّة أي مُحدَثٌ، كصفة الكلام، فالله ﷻ متكلم، وصفة الكلام صفة لازمة له، وآحاد كلامه حادث، فكلما أراد شيئًا قال له: (كن) فيكون، وإذا أحبَّ عبداً نادى جبريل فقال: (**إني أحبُّ فلانًا فأحبه**)[1]، وإذا أبغض عبدًا نادى جبريلَ فقال: (**يا جبريل إني أُبغِضُ فلانًا فيبغضه**)، وإذا نزل إلى السماء الدنيا قال: (**مَن يدعوني فأستجيب له ؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له**)[2].



(١) أخرجه البخاري برقم: (٧٤٨٥)، ومسلم برقم: (٢٦٣٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١١٤٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٧٥٨).

المتن

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، كالعلمِ، والقدرةِ، والسمعِ، والبصرِ، والعزَّةِ، والحكمةِ، والعلوِّ، والعظمةِ.

ومنها الصفات الخبرية، كالوجهِ، واليدين، والعينين.

والفعليَّة: هي التي تتعلَّق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنُّزولِ إلى السماء الدنيا.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة للصفات الخبرية التي هي من الصفات الذاتية، وضابط الذاتية الخبرية: ما كان نظيرها في المخلوقين أبعاضًا كالوجه، واليدين والعينين، لكن لا نقول في الله عَزَّ وَجَلَّ أبعاض.

قوله: (**كالاستواء على العرش**) دليله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، إذًا بعدما خلق السماوات والأرض في ستة أيام قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستوي على العرش فاستوى على العرش، فهذه صفةٌ فعليةٌ، أما علوُّه المطلق فمن صفاته الذاتيَّة.



المتن

وقد تكون الصفة ذاتيةً فعليَّةً باعتبارين، كالكلامِ، فإنه باعتبار أصله صفةٌ ذاتيةٌ، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلِّمًا، وباعتبار آحاد الكلامِ صفةٌ فعليةٌ؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلَّم متى شاء بما شاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وكلُّ صفةٍ تعلَّقت بمشيئته تعالى فإنها تابعةٌ لحكمته.

وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، لكننا نعلم علمَ اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئًا إلا وهو موافقٌ للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

إذًا أفعال الله متعلِّقة بحكمته لا يفعل شيئًا عبثًا أو لعبًا، وإنَّما كلُّ ما يفعله الله عز وجل فمتعلِّق بمشيئته، ومشيئتُه متعلِّقة بحكمته، وقد سبق بيان كيفيَّة كون صفة الكلام ذاتية باعتبار، فعلية باعتبار.

فنهى الله عز وجل عن القتل؛ لأنه فساد واعتداء، ونهى عن الرِّبا؛ لأنه ظلم واعتداء، فالحكمة من النهي ظاهرة ومعلومة لنا.

ولما شرع الله تعالى صلاة الفجر ركعتين جهريَّة، وشرع صلاة الظهر أربع ركعات سريَّة، فقد ندرك الحكمة وقد لا ندركها.

لكن حتى إذا لم ندرك حكمته، فنجزم بأن الله تعالى لا يُشَرِّعُ ولا يَفْعلُ ما شرَّعه إلا لحكمة، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.



المتن

القاعدة السادسة: يلزم في إثبات الصفاتِ التَّخلي عن محذورين عظيمين: أحدهما: التَّمثيل، والثاني: التَّكييف.

التمثيل: اعتقاد مثيل لله ﷻ، وقد تقدم معنا أن الله ﷻ لا يماثل أحدًا من خلقه، ولا يماثله أحدٌ من خلقه، والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

مثال تمثيل الخالق بالمخلوق: اعتقادُ اليهود أنَّ الله ﷻ فقير.

ومثال تمثيل المخلوق بالخالق: مَن اعتقد أن الأئمَّة يعلمون الغيب.

والله ﷻ ليس كمثله شيء فلا يماثل المخلوقين، ولا يماثله المخلوقون.

التَّكييف: إثبات كيفيَّة معيَّنة، ومن القواعد في الأسماء والصفات قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، فلأنَّنا لا نحيطُ بالله ﷻ علمًا فالواجب علينا أن نيأس عن إدراك معرفة كيفية صفات الله ﷻ.

سؤال: هل لله تعالى كيفية؟ الجواب: نعم لله ﷻ كيفية، ولصفاته كيفية، لكن لا نعلمها، ولو لم يكن له كيفيَّة لكان معدومًا، فله كيفيَّة يتكلَّم بها، وله كيفيَّة ينزل بها إلى السَّماء الدنيا، وله كيفيَّة يجيء بها، وله كيفيَّة يغضبُ بها، لكن لا نعلمها، ومن تكلَّف فوصف الله تعالى بكيفية معينة من تلقاء نفسه فقد قال على الله تعالى بغير علم، واقتفى ما ليس له به علم، لأن الله في علم الغيب لا نحيط به علمًا، والمقصود أن المسلم عليه أن يبتعد كل البعد عن هذين المحذورين: التمثيل والتكييف، فيصفُ الله ﷻ بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من غير تمثيل ولا تكييف.

فائدة: إذا أردت أن تعرف كيفية شيء ما، فلابد لك من سبيل واحد من ثلاث سبل، وهي:

١. إما أن يخبرك صادق بكيفية هذا الشيء ووصفه، مثل: أن تسأل كيف سيارة فلان؟ فيخبرك أحد بكيفيته.

٢. وإما أن تراه، فتعرف كيفيته.

٣. أو ترى نظيره فتقيس عليه، مثل: أن تقول سيارة فلان مثل سيارة فلان.

وهذه الأمور الثلاثة ممتنعة في حق الله تعالى، فكيف يقال: إن الله ﷻ بالكيفية الفلانية، فهذا مستحيل لأنك لم تر الله ﷻ، ولم تُخبر بالخبر الصادق بالكتاب والسنة عن كيفيَّة صفات الله، ولم تر له نظيرًا حتى تقيس عليه، إذ الله لا نظير له، فالواجب علينا أن نمسك ونحذر مَن القول: إن الله بالكيفية الفلانية.



المتن

فأما التمثيل: فهو اعتقاد المثبِتِ أن ما أثبته من صفات الله تعالى مُماثلٌ لصفات المخلوقين، وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، وقولُه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾.

السَّمع معناه: الكتاب والسنة.

والعقل: يعني العقل الصَّريح السَّليم.

والكاف في قوله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، لها ثلاثة معان:

المعنى الأول: أنْ تكون الكاف بمعنى (مثل)، فيصير المعنى: ليس مِثْلَ مثله شيء – وذلك على فرض أن له مثيلاً–، فمن باب أولى أن الله تعالى لا مثيل له، فيكون معنى الآية: ليس مِثْلَ مِثلِهِ شيء.

المعنى الثاني: أنَّ المثل بمعنى الصفة، ومنه قوله جل وعلا: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، يعني صفة الجنة التي وعد المتقون، فمعنى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ يعني: ليس كصفته شيء.

المعنى الثالث: أنَّ الكاف هنا حرف جرٍّ زائدٌ، فهو زائد اصطلاحًا يفيدُ توكيدًا في المعنى، ويسمى في القرآن حرف صلة، حتى لا يتوهَّم أحدٌ أن القرآن فيه زيادة، ولو قيل عنه زائد من باب الإعراب فلا بأس، فصار معنى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾: ليس مثله شيء، فأفادت الكاف زيادة توكيد نفي المثليَّة.

فائدة: من الأمثلة على ورود حرف الصِّلة في القرآن قول الله ﷻ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾، قوله: ﴿بِكَافٍ﴾،الباء حرف صلة أي حرف زائد، ولذلك لو حُذف هذا الحرف في غير القرآن لكان المعنى مستقيماً، وتكون الجملة: (أليس الله تعالى كافيًا عبده).

ومن الأمثلة أيضًا: قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، فلو قال القائل: (ما لكم إله غيره) دون أن يذكر(مِن) فالمعنى مستقيمٌ، لكن (مِن) جاءت لتوكيد النفي فأصبح المعنى: لا يوجد إله مستحق للعبادة غير الله ﷻ.

قال المصنف: (وقوله ﷻ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾)، أنكر الله ﷻ عليهم تسوية المخلوق بالخالق؛ لأنهم عبدوا الأصنام والأوثان كما يُعبد الله ﷻ، أو عبدوها مع الله، وهذا تمثيل للمخلوق بالخالق، جعلوا للمخلوق الذي لا يستحقُّ العبادة الحقَّ في العبادة؛ فالاستفهام في الآية إنكاريٌّ يفيد نفي التمثيل.

الآية الثالثة: قوله ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ استفهام بمعنى النفي متضمِّنٌ معنى التحدي، أي: لا سمي له، ويتحدَّى أن يكون له سميٌّ، والسَّمي هو المثيل.

وللآية معنى صحيح آخر وهو أن المخلوق ولو تسمى باسم من أسماء الخالق (كالمِلك أو العزيز) ،فلا يَستحق الوصف الكامل الذي يستحقه الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾،أي: ليس له نظيرٌ؛لكمال صفاته جميعًا.



المتن

وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه قد عُلِمَ بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينًا في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباينٌ في الصفات، لأن صفة كُلِّ موصوفٍ تليق به، كما هو ظاهرٌ في صفات المخلوقات المتباينة في الذوات، فقوَّة البعيرِ مثلًا غير قوة الذَّرَّةِ، فإذا ظهرَ التباينُ بين المخلوقاتِ مع اشتراكها في الإمكانِ والحدوثِ، فظهورُ التباينِ بينها وبين الخالق أجلى وأقوى.

قوله: (علم بالضرورة) ،المعلوم بالضرورة: هو الذي تضطر إلى أن تعلمه بلا إثبات ولا دليل، مثاله في أمر الدين: تحريم الزِّنا، والقتل، والعلم بفرضية الصلاة، وهكذا، ومثاله في غير الدين قولنا: النار مُحرِقة، والسماء فوقنا.

وقد علم بالضَّرورة أنَّ ما من ذاتين متباينتين إلَّا ولكلِّ ذاتٍ صفاتٌ تليق بها وتباين صفات الذات الأخرى، كل النَّاس يعلمون بأنَّ ذات الله ﷻ ليست كذات المخلوق، حتى لو سُئِل أحد المشركين ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾، لن يستطيع أن يقول: لا، ولو سئل: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾، لن يستطيع أن يقولَ: (نعم)، حتى فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، ولم يقل : أنا الخالق.

والدَّليل العقليُّ على تباين الصِّفات بين الخالق والمخلوق: أنَّه ما مِن ذاتين إلا وصفاتهما متباينة، فكما أن الذوات متباينة، فصفاتها متباينة أيضًا.

البعير له قوَّة والذَّرَّة لها قوَّة، الذَّرُّ أصغر من النَّمل، فمن يقول: إنَّ قوة البعير مثل قوة الذر؟! فهذا غير مقبول عقلًا، فإذا كان هذا التَّباين بين ذات مخلوقة وذات مخلوقة فلأَنْ يكون أوضح وأبين بين ذات الخالق وذات المخلوق، وهذا دليل عقلي.

المتن

الثاني: أن يقالَ: كيفَ يكونُ الرب الخالق الكامل من جميعِ الوجوه مشابهًا في صفاتِهِ للمخلوقِ المربوب الناقص المفتقر إلى من يُكَمِّله؟ وهل اعتقادُ ذلك إلا تَنقُّصٌ لحق الخالق؟! فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

هذا الدليل الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الاستفهام الإنكاري، كيف يكون الربُّ الكامل من كل وجه مماثلًا للمخلوق الناقص من كل وجه؟! هل الربُّ الحيُّ الذي لا يموت تكون صفاته كالمخلوق الذي يموت؟! هل الربُّ القادر على كل شيء تكون صفاته كالمخلوق الذي قدرته محدودة؟! هل الربُّ الكبير المتعال صفته كصفات المخلوق الصَّغير الفقير؟! عقلًا لا يمكن أن يكون الخالق الكامل كالمخلوق النَّاقص(١).



(١) قال الإمام ابن قيِّم الجوزية: «وهذا بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك احتجاجًا على مُبطل، وإبطالاً لقول مشرك، كما إذا رأيت رجلًا يعبد حجرًا فقلت له: (آلله خير أم الحجر؟) فيحسن هذا الكلام في هذا المقام ما لا يحسن في قول الخطيب ابتداءً: (الحمد لله الذي هو خير من الحجارة)، ولهذا قال يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في احتجاجه على الكفار: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، وقال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ،يوضِّحه: ... أن الرجل إذا تكلم بمثل هذا الكلام في حق المخلوق لكان مُسْتهجنًا جدًا، فلو قال: (الشمس أضوأ من السراج)، و(السماء أكبر من الرغيف، وأعلى من سقف الدار)، ونحو ذلك لكان مُسْتَهجنًا مُسْتَقبحًا مع قرب النِّسبة بين المخلوق والمخلوق، فكيف إذا قيل ذلك بين الخالق تعالى والمخلوق، مع التفاوت الذي بين الله وخلقه» [مختصر الصواعق ٢/ ٣٦٤].

المتن

الثالث: أننا نشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية، فنشاهد أن للإنسان يدًا ليست كيد الفيل، وله قوةٌ ليست كقوة الجمَلِ، مع الاتفاق في الاسمِ، فهذه يدٌ وهذه يدٌ، وهذه قوةٌ وهذه قوةٌ، وبينهما تباينٌ في الكيفية والوصف، فعُلِمَ بذلك أن الاتفاق في الاسم لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة.

تشابُه الأسماء لا يلزم منه تشابه الحقائق والصِّفات، فمثلًا: كلمة يد، يقال: يد عمرو، و يد زيد، ويقال: يد البعير، ويد الفيل، ويد الباب، ويد الطفل، الأيدي كثيرة جدًا، لكن العقل قطعًا يقول: إن بينها تفاوتاً، بل يد الإنسان الواحد تختلف يمينه عن شماله، وهي في ذات واحدة، حتى في الأحكام: هناك فروق كثيرة بينهما، فالأكل والشرب يكون باليمين، والتمسُّح للاستنجاء يكون بالشمال، بل اليد الواحدة تختلف من وقت إلى آخر، يد الصغير ضعيفة، وإذا كَبر في السن وصار شابًّا قويًّا كبُرت يده وأصبحت قويَّة، فإذا صار شيخًا ضعفت مرة أخرى، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم: ٥٤]، ويد الله ﷻ جاءت لها أوصاف عديدة في الكتاب والسنة منها أنَّ الله تعالى يقبض بها الأرض ويطوي بها السماء، فكيفَ يعتقد إنسان أننا إذا قلنا: (يد الله) أنها تكون كيد المخلوق؟! هذا لا يمكن.

حتى إن بعض الناس -لاسيَّما إذا تردَّد في إثبات الصفات الثَّابتة عن الله ورسوله- يقول: لا تقولوا أمام العامة: إن الله تعالى يضحك، فنقول: النبي ﷺ هو من أثبت صفة الضحك لله ﷻ، لكن نقول له: إذا أردت أن تذكر أمام

العامة موضوعًا مناسبًا، فقل: قال رسول الله ﷺ: «**يَضحَكُ اللهُ إلى رَجُلين، يَقْتُلُ أحدُهما الآخرَ كلاهما يدخل الجنة**»، **فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «يُقاتِل هذا في سبيل الله ﷻ فيُسْتَشهَدُ، ثم يتوبُ الله على القاتلِ، فيُسْلِم، فيُقاتِل في سبيل الله ﷻ فيُسْتَشهَدُ**»[١].

وثبتت صفة الضَّحك لله ﷻ في حديث الرجل الذي يسأل الله:أخرجني من النار وقرِّبني من الجنة وكل مرَّة يقول: لا أسألك بعدها أبداً «**فلا يزالُ يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة**»[٢].

فنأتي بالحديث أولاً، ثم نقول للعامة: الله يضحك، لكي لا يُفتنوا، وفي المقابل لا يأتي أحدٌ ويقول: لا تأتِ بهذه الأحاديث عند العامة، فنقول: النبي ﷺ قالها للأمة كلها للعامة والخاصة.

ألا نقول أمام عامَّة الناس: «**إنَّ الله يَبْسُطُ يَدَهُ بالليل ليَتُوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يَدَهُ بالنَّهار ليَتُوب مُسيءُ الليل**»[٣]؟ الله له يد ويبسطها ليلًا ونهارًا، فمن أراد أن يتوب فليتب إلى الله.

وهكذا لا نتردَّد أبدًا في إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ في سنته، مع نفي التمثيل على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى.



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٨٢٦)، ومسلم برقم: (١٨٩٠).

(٢)أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٥٧٣)، ومسلم برقم: (١٨٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٥٩).

المتن

والتَّشبيه كالتَّمثيل، وقد يفرَّق بينهما بأنَّ التَّمثيل التَّسوية في كلِّ الصِّفات، والتَّشبيه التَّسوية في أكثر الصِّفات، لكنَّ التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

العلماء يعبِّرون بكلمة التَّشبيه فيقولون: من غير تشبيه تجوُّزًا، وإلا فكلمة التَّشبيه لا تنطبق انطباقًا تامًّا مع كلمة التمثيل؛ لأنَّ التماثل يلزم منه التَّطابق من جميع الأوجه، فيقال في التشبيه: فلان يشبهُ فلانًا، ويقال في التَّمثيل: العملة الفلانيَّة مثل العملة الفلانية؛ لأنها متماثلة.

والله ﷻ نفى عن نفسه المثيل، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وأمَّا التشبيه فلم يُنْفَ؛ لأنه ما من شيئين إلا وبينهما تشابه، مهما كان هذا عظيمًا وذاك حقيرًا، وأقلُّ درجات التَّشابه بين الموجودات أن يقال: هذا موجود، وهذا موجود، وهذا قائم بنفسه، وهذا قائم بنفسه(١).



---

(١) وقد عبَّر الشيخ رحمه الله في هذه الرسالة بنفي التشبيه في عِدَّة مواطن، وقد بيَّن سبب ذلك فقال في أحدها: «كان ينبغي أن نقول: (تُماثِلا) لكن نحن مشينا في هذا التعبير -أي: نفي التشبيه- على ما عليه أكثر المصنِّفين، وقد كتبتُ هذه الرسالة قبلَ أن يتبيَّن لنا الأولويَّة، فالأولى في كُلِّ ما جاء من تشبيهٍ أن يُجعل بدله التمثيل» [شرح القواعد المثلى ص٨٥]

المتن

وأما التكييفُ: فهو أن يعتقد المثبتُ أن كيفيَّة صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيِّدها بمماثل. وهذا اعتقادٌ باطلٌ بدليلِ السمع والعقل:

أما السَّمع: فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

وقولُه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

ومن المعلومِ أنه لا علم لنا بكيفيَّة صفات ربنا؛ لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها.

فيكون تكييفنا قَفْوًا لما ليس لنا به علم، وقولًا بما لا يمكننا الإحاطة به.

التكييف: هو أن يثبت لله تعالى كيفيَّةً من تلقاء نفسِه.

وعُمدة باب الأسماء والصفات آيتان في كتاب الله:

- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

- وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ نفيٌ للتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، إثبات للصفات، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، نفيٌ للتكييف.

وقوله: ﴿عِلْمًا﴾، نكرةٌ في سياق النفي، والنكرة إذا جاءت في سياق النفي أو النهي أو الشرط، تفيد العموم[1]، والمعنى: ولا يحيطون به أي علم أبدًا، فالله تعالى لا يُحاط به علمًا سبحانه وتعالى.

(١) ينظر كتاب: «التعليق المختصر على نظم القواعد الفقهيَّة» للشارح حفظه الله، ص[٥١-٥٠].

قوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾، أي: لا تتَّبع ما ليس لك به علم.

وقد أخبرنا الله تعالى أنه سميع، بصير، عليم، ويرضى، ويغضب، ويسخط، ولم يخبرنا عن كيفيَّة صفاته، فيكون إثبات الكيفية من القول عليه بلا علم.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾: «قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تقل (رأيتُ) ولم تره، و(سمعتُ) ولم تسمع، و(علمتُ) ولم تعلمه»[١].



(١) «معالم التنزيل» (٥/ ٩٢).

المتن

وأما العقل: فلأنَّ الشيء لا تُعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفيَّة ذاته، أو العلمِ بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصَّادق عنه، وكل هذه الطُّرق منتفيةٌ في كيفية صفات الله ﷻ، فوجب بطلان تكييفها.

وأيضًا فإننا نقول: أيُّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى؟

إن أيَّ كيفية تقدِّرها في ذهنك فالله أعظم وأجلُّ من ذلك.

وأيُّ كيفية تقدِّرها لصفات الله تعالى، فإنك ستكون كاذبًا فيها؛ لأنه لا علم لك بذلك.

وحينئذ يجب الكفُّ عن التَّكييف؛ تقديرًا بالجَنان، أو تقريرًا باللسان، أو تحريرًا بالبَنان.

لو أن إنسانًا وصف لنا رجلًا معيَّنًا لكي نراه في مكان ما، فنحن نرسم في مخيلتنا هيئة معينة، ومع ذلك قد لا تكون الصورة الذهنية المتكونة منطبقة مع الواقع، بل قد يكون هناك اختلافات.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فأنت لم ترَ الله ﷻ ولم تُحط به علمًا، ولم تُخبَر عن كيفيته، ولم تر نظيرًا مساويًا له، فلو أنك حاولت أن تجعل كيفيَّة له في ذهنك وتتخيَّلها فلن تَصل، وسيرجع ذهنك خاسئًا وهوحسير، سواء أكان هذا التكييف في القلب، أم اللسان نطقًا، أم اليد كتابةً.



المتن

ولهذا لـمَّا سئل مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ أطرق رَحِمَهُ اللَّهُ برأسه حتى علاه الرُّحَضَاء (العرق) ثم قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

ورُوِيَ عن شيخه ربيعة أيضًا: (الاستواءُ غير مجهول، والكيف غير معقول).

هذا الميزان العظيم الذي ذكره الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ يقال في الصِّفات كلها كالسَّمع والبصر(١).

وفي لسان العرب يُقال: استوى على الشيء، أي: علا على الشيء.

(**والكيف غير معقول**)، يعني لا تدركه العقول، (**والإيمان به واجب**)، أي: يجب أن نؤمن بأنَّ الله تعالى استوى على العرش، كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه، (**والسؤال عنه بدعة**)، أي: السؤال عن الكيفية بدعة محدثة، فبعض الناس يسأل عن كيفيَّة الاستواء والنزول، والعَجَب أن هؤلاء يسألون عن الكيف، وإذا جاءهم الدليل الشرعي بالسؤال عن الله بــ(أين) قالوا: لا يجوز أن نسأل عن الله بــ(أين)، مع أن النبي ﷺ سأل هذا السؤال، فقال للجارية: «أين الله؟»(٢)،

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢/ ٣٩٨)، وصححه الحافظ الذهبي في «العلو» (ص١٣٩) قال: (هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة أن كيفية الاستواء لا نعقلها).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٥٣٧).

فينزِّهون الله تعالى عما سأل عنه النبيُّ ﷺ ويستنكرون ذلك، ثم يسألون عن كيفية صفات الله تعالى !![1]

إذا قال الجهمي مستنكرًا على السني: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فكيف استوى؟

فليقل له السُّنِّيُّ: كيف ذات الله؟ فسيقول الجهمي: أنا لا أعلم كيف ذات الله، فسيكون جواب السُّنِّيِّ: وأنا لا أعلم كيف استوى؟ فكما أنَّك لا تعرف ذات الله لأنك لا تحيط به علمًا، فأنا أيضًا لا أحيط بالله علمًا، فلا أعلم كيف استوى.



(١) وللشارح حفظه الله رسالة نافعة بعنوان: (الله في السماء)، بناها على طريقة السؤال والجواب.

المتن

وإذا كان الكيفُ غيرَ معقول، ولم يَرِد به الشرع فقد انتفى عنه الدليلان؛ العقلي والشرعي، فوجب الكف عنه.

فالحذرَ الحذرَ من التكييف أو محاولته، فإنك إن فعلتَ وقعتَ في مفاوز لا تستطيع الخلاص منها، وإن ألقاه الشيطان في قلبك فاعلم أنه من نزغاته، فالجأ إلى ربك فإنه معاذك، وافعل ما أمرك به فإنه طبيبك، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ .

يقول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كانت كيفيَّة ذات الله وصفاته لا يمكن أن تدركها العقول، كما دَّل على ذلك الدليل الشرعي والعقلي؛ فالواجب أن نمسك عن الخوض في هذا الباب، ومن خاض فإنه حتماً سيرجع فكره وذهنه خاسئاً وهو حسير، ولو قُدِّر أن أحداً تخيَّل شيئاً من ذات الله تعالى وصفاته، فلا شك أن هذا التخيُّل من الشيطان الرجيم، فليستعذ بالله من الشيطان، فلا يُعيذه منه إلا السميع العليم[1].



(١) وصحَّ عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: مَن خلق كذا، مَن خلق كذا، حتى يقول: مَن خلق ربَكَ؟ فإذا بلغَه فليستعذْ بالله ولينتَه» أخرجه البخاري في صحيحه برقم:(٣٢٧٦)، وأخرجه مسلم برقم: (١٣٤) واللفظ للبخاري، ولفظ مسلم« لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خَلْقُ الله الـخَلْق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا، فليقل: آمنت بالله».

المتن

القاعدة السابعة: صفاتُ الله تعالى توقيفيةٌ لا مجالَ للعقل فيها

فلا نُثبت لله تعالى من الصفاتِ إلا ما دلَّ الكتاب والسنة على ثبوته، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يُتَجاوز القرآن والحديثُ». (انظر القاعدة الخامسة في الأسماء).

سبق أن شرحنا القاعدة الخامسة في الأسماء وهي: أنَّ أسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها؛ وهذه القاعدة تمامًا كتلك القاعدة، وهي أن صفات الله توقيفية لا مجال للعقل فيها، وذلك لأنَّ الله تعالى في علم الغيب، ونحن لا نحيط بالله تعالى علمًا، فلا يجوز أن نُعمل عقولنا ونقول: الله بالوصف الفلاني ، فهذا من التقوُّل على الله بلا علم، فمن وصف الله عَزَّوَجَلَّ بما لم يصف به نفسه فقد قفا ما ليس له به علم، والله يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي الحقيقة أن القول على الله بلا علم من أمر الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩].

فحذار أن تسمي الله عَزَّوَجَلَّ أو أن تصفه بلا علم ولا دليل من الكتاب والسنة، فهذا من أمر الشيطان، وهذا تقوُّلٌ على الله تبارك وتعالى، أعاذنا الله من ذلك.



المتن

ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثةُ أوجهٍ:
الأول: التصريحُ بالصفة كالعزَّةِ، والقوَّةِ، والرَّحمةِ، والبطْشِ، والوجهِ، واليدين ونحوِها.

الوجه الأول من أوجه ثبوت الصفات لله تعالى هو التصريح بالصفة، وقد مَثَّلَ لها الشيخ بأمثلة، ونحن بعون الله نُبيِّنُ أدلتها من القرآن:

دليل صفة العزَّة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾.

ودليل صفة القوَّة قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

ودليل صفة الرَّحمة: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، والآية الأخرى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

ودليل صفة البطش: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

ودليل صفة الوجه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

ودليل صفة اليدين قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فهذا تصريح بهذه الصفات لله تبارك وتعالى.



المتن

الثاني: تضمُّنُ الاسمِ لها، مثل: الغفور متضمِّن للمغفرة، والسميع متضمن للسمع، ونحو ذلكَ. (انظر القاعدة الثالثة في الأسماء).

الثالث: التصريحُ بفعلٍ أو وصفٍ دالٍّ عليها، كالاستواء على العرش، والنزولِ إلى السماء الدنيا، والمجيءِ للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقامِ من المجرمين، الدالُّ عليها -على الترتيبِ- قوله تعالى:﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾.

القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء: أسماء الله أعلام وأوصاف، وفي القاعدة أنه إذا كان الاسمُ مُتعديًا فإنه يتضمن ثلاثة أمور، منها: إثباتُ الصفة، إذًا هو اسم يدلُّ على صفة، ويدلُّ على حكم ومقتضى، وبناء على ذلك فإن أسماء الله: أعلام وأوصاف، وتدل الأسماء على صفات، إذ ليس من أسماء الله ﷻ اسم جامد لا يدل على معنى، فكلُّ أسماء الله مشتقة.

قوله رحمه الله: (**الدال عليها على الترتيب**)، أي: على الأمثلة التي ذكرها، دليل المثال الأول: وهو الاستواء على العرش قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾، فيستفاد من هذا التصريح بالفعل أو الوصف الدالِّ عليها: إثبات الصفة لله تعالى، فنقول: الله ﷻ يستوي على عرشه، والله مستو على عرشه.



المتن

وقول النبي ﷺ: «ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا...» الحديثَ.

صفة النُّزول إلى السَّماء الدنيا ثابتة لله تعالى لقول النبي ﷺ: «**ينزل ربُّنا كلَّ ليلة إلى السَّماء الدنيا**»[1] وأهل البدع يحرفون النزول تحريفًا يفضي إلى التَّعطيل، فيقولون: ينزل ربنا إلى السَّماء الدنيا أي: تنزل رحمته، فيلزم من كلامهم أن الله لا ينزل إلى السماء الدنيا، فهم لا يصرحون بأن الله لا ينزل إلى السماء الدنيا، بل يقولون: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، والمقصود نزول رحمته.

ونقول في الردِّ عليهم: إن رحمة الله لا يختصُّ نزولها في الثلث الأخير من الليل فقط، فهي لا تنقطع عنَّا طرفةَ عين، فلو انقطعت رحمة الله تعالى طرفة عين عن مخلوق من مخلوقاته لهلك، ولو أراد الله ﷻ أن رحمته هي التي تنزل لقال: تنزل رحمتي، كما قال النبي ﷺ: «**إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة**»[2]، فصرَّح بأنَّ الرَّحمة تَغشى، فلماذا لم يقل النبي ﷺ: (تنزل رحمة ربنا) وهو الفصيح الناصح، فلماذا يترك الأمة هكذا ويجعلهم يتخبطون ويؤولون؟!

وقال بعضهم: ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا أي: ينزل مَلَك من ملائكة ربِّنا، وهذا باطل أيضًا، فلو أراد الله أنْ يُنزِلَ مَلَكًا لقال ﷺ: ينزِل مَلَكٌ، ثم هل يصح أن يقول المَلَك: هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه؟ فتمام الحديث: «**ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا إذا كان الثلث الأخير من الليل ويقول: هل من داعٍ فأستجيب له**»، الذي يستجيب الدعاء هو الله ﷻ وليس المَلَكُ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٤٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٥٨).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٩٩).

تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾، فالله هو غفَّار الذنوب وليس الملك ونقول أيضًا: دعاء المَلك من دون الله شرك بالله ﷻ، لو كانوا يعقلون.

ثم ننظر إلى اضطراب هذا التَّحريف، قالوا مرَّة: ينزل ربنا أي: تنزل رحمته، أو ينزل مَلَكٌ من الملائكة، أو ينزل أمر ربنا، وهل أمر الله ﷻ لا ينزل إلا في الثلث الأخير من الليل؟! وهل الأمر يقول: هل من داع فأستجيب له؟! كلا، فالحق الذي لا ريب فيه أنَّ معنى «ينزل ربُّنا»، أي: ينزل الله ﷻ، وفي هذا كمال لله تبارك وتعالى، وأنه ليس كمثله شيء في سعة رحمته، وتودده إلى عباده، فهو الرحمن الرحيم الودود ، يدعو عباده، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويدعو عباده إلى التَّوبة.

فلا إله إلا الله، كيف يحرِّف هؤلاء هذه المعاني العظيمة التي فيها كمال التودُّد وكمال الرحمة من الله ﷻ وهو يدعو عباده إلى أن يسألوه فيستجيب لهم، وإلى أن يستغفروه فيغفر لهم، ويدعوهم إلى التَّوبة ليتوب عليهم؟!



المتن

وقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، ربك: فاعل مرفوع بالفعل (جاء) وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره؛ فإذًا الله تعالى هو الذي يجيء.

قال أهل البدع: المخلوقات هي التي تجيء، فإذا قلنا: الله يجيء، فقد مثَّلْنا اللهَ بالمخلوق، فنقول لهم: هناك مخلوقات لا تجيء، فإن نفيتم عنه المجيء فقد مثلتموه بالمخلوقات التي لا تجيء!!

فيقولون: هو لا يجيء ولا يماثل المخلوقات التي لا تجيء، فنقول لهم: قولوا: يجيء ولا يماثل المخلوقات التي تجيء، فالواجب إثبات الصفة التي أثبتها الله لنفسه مع نفي التمثيل.

لذلك فتحريفهم هذا تعطيلٌ، فلمَّا قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، قالوا: وجاء أمر ربك، فلو أراد الله ذلك لقال: (وجاء أمر ربك) كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، لكن لما أراد أنه هو الذي يجيء قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وليس في هذا تمثيل ولا تنقُّص لله عَزَّوَجَلَّ، بل هذا كمال، ومما يدل على أنَّه كمال: أنَّه سبحانه هو الذي وصف به نفسه، ولا يصف نفسه إلا بالكمال.



المتن

وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

في الآية إثبات صفة الانتقام لله ﷻ، ومما يدل على إثباتها أيضًا قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وإذا انتقم اللهُ ﷻ ممَّن يستحق أن ينتقم منه فإن هذا كمال، وإذا انتقم مسلم من عدو ونكَّل به وشرَّد مَن خلفه فهذا كمال.

وقد حرَّف أهل البدع هذه الآية وأمثالها، فقالوا: معنى انتقام الله ﷻ إيصال العقوبة للمستحق.

وصفة الانتقام هي من الصفات التي تارة تكون كمالاً وتارة تكون نقصاً، فإذا كان انتقامًا ممن يستحق أن ينتقم منه فنثبته لله ﷻ على وجه الكمال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، فالله ﷻ ينتقم من المجرمين، ولم يقل: إنه ينتقم من المؤمنين ومن المتقين، بل يحبهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾.

فهؤلاء كان بعضهم يُحرِّق المؤمنين بالنار من غير ذنب سوى أنهم قالوا: ربنا الله، فهؤلاء يستحقون أن ينتقم الله ﷻ منهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، فهؤلاء مجرمون يستحقون الانتقام على هذه الأفعال الشنيعة التي فعلوها بالمؤمنين، وللأسف يوجد بعض الناس يحرِّف هذه الصفة، وهذا ضلال، مع أنك تجده إذا ظلمه أحد يقول: «الله ينتقم منه».



المتن

قواعد في أدلة الأسماء والصِّفات

القاعدة الأولى: الأدلَّة التي نُثبتُ بها الأسماءَ لله تعالى وصفاتِه، هي: كتابُ الله تعالى، وسنةُ رسوله ﷺ فلا تُثبَتُ أسماءُ الله وصفاتُه بغيرهما.

مصدر التلقِّي عند أهل السنة والجماعة في العقيدة هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما أهل الأهواء فتجدهم متفرقين في مصدر التلقي، فمنهم من يتلقى عن مشايخه المخالفين للكتاب والسنة، ومنهم من يأخذ عن كتب اليونان، ومنهم من يُعمِل عقله ويُحَكِّمه على كتاب الله ﷻ ،ولذلك ترى آراءهم كثيرة ومختلفة خصوصاً في العقيدة.

هناك أنواع من الأدلة غير الكتاب والسنة، مثل الإجماع، والقياس، وقول الصحابي، وعمل أهل المدينة، والاستحسان، ونحو ذلك من الأدلة المختلف فيها، لكن في باب الأسماء والصفات لا يُثبت لله ﷻ صفة إلا بالكتاب أو السنة، فلا يثبت لله صفة بالرأي ولا بالاجتهاد، وقول الصحابي قد تثبت به عقيدة إذا قال قولًا لا يقال مثله بالرأي فيكون له حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الكرسيِّ أنه موضع قَدَمَي الربِّ، هذا قاله ابن عباس واعتبره العلماء في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ.

كذلك الإجماع من الأدلة التي يحتج بها في أبواب العقيدة، ولكن لا يمكن أن يكون هناك إجماع على حكم معين إلا وهو مستند إلى دليل من الكتاب أو السنة، فيذكر الإجماع بعد ذكر الأدلة من الكتاب والسنة للجزم في الحكم، فيقال: الزنا حرام بدليل الكتاب والسنة والإجماع.

المتن

وعلى هذا فما ورد إثباتُهُ لله تعالى من ذلكَ في الكتابِ أو السنةِ وجب إثباتُهُ، وما ورد نفيه فيهما وجب نفيُهُ مع إثبات كمال ضدِّه، وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه، فلا يُثْبَتُ ولا يُنْفَى؛ لعدم ورود الإثبات والنفي فيه.

وأمَّا معناه فيُفصَّل فيه: فإن أريد به حقٌّ يليقُ بالله تعالى فهو مقبول؛ وإن أريد به معنًى لا يليق بالله عز وجل وجب رده.

ما ورد من الأدلة في إثبات الأسماء والصفات أثبتناه، وما ورد نفيه نفيناه مع إثبات كمال ضده، وما لم يرد نفيه ولا إثباته فنتوقَّف في لفظه، ونطلب ممن قاله التفصيل في المعنى ليُوضح لنا مراده، فإن أراد معنًى حقًا أثبتنا المعنى وقلنا: هذا اللفظ غير مستعمل فلا تتلفظ به، وإذا أراد معنىً باطلاً قلنا: اللفظ باطل والمعنى باطل أيضًا، وسنذكر مثالاً يوضح المقصود.

لفظ (الجسم) إذا قال قائل: الله جسم، وقصد أن له وجهاً ويدين وعينين.

قلنا: نعم، الله عز وجل له وجه، وله عينان، وله يدان كما ثبت ذلك في الكتاب والسُّنَّة، فالمعنى الذي تقوله صحيح، لكن لفظ جسم غير وارد في كتاب الله ولا في سنة رسوله لا نفيًا ولا إثباتًا فأمسك عنه.

أتى آخر فقال: الله جسم، وأقصد أنه كسائر الأجسام.

فنقول له: كلمة جسم غير واردة في الكتاب والسنة، والمعنى الذي قصدته باطل، فلا تقل هذه الكلمة ولا تعتقد هذا المعنى.

وهكذا يقال فيما لو قال قائل: الله ليس بجسم، فننكر على الجميع هذه الألفاظ؛ مَن أثبتها ومَن نفاها؛ لأنه لم يرد في كتاب الله ﷻ، ولا في سنة رسوله ﷺ إثباتها ولا نفيها، ونطلب ممن قاله التفصيل في المعنى، فإن أراد معنى صحيحًا أقررناه على المعنى الصحيح مع التوقف في اللفظ، وإن أراد بها معنىً باطلاً أنكرنا عليه المعنى لبطلانه، واللفظ لعدم ثبوته.

مسألة مهمة: بعض الناس يستنكر على أهل السُّنَّة تدريس العقيدة التي تتحدث عن تفاصيل دقيقة قد لا يدركها عوام الناس، ويقولون: إنكم تشغلون أنفسكم بهذه المسائل، وقد حدث للمسلمين كذا وكذا في بقاع الأرض، وقد انتشرت الفواحش والمنكرات، وأنتم جالسون في المسجد ما أهمية هذا الذي تقولون؟!!

الجواب: إن دراسة الكتاب والسنة، ومعرفة ما جاء فيهما من قضايا ليست سببًا في تأخر نصر الأمة، ولا صارفًا للناس عن القضايا الهامة التي تنكرون علينا عدم الخوض فيها، ولذا نقول لكم: إن نصرة الأمة تكون باتباع كتاب الله ﷻ، والمسلم إذا آمن بأن الله ﷻ في علوه يعلم سره ونجواه استقام على دينه، لكن هذا الذي يقول: الله ليس له رِجْل، وليس له وجه، وليس له يد، ولا يسمع، ولا يبصر، فهذا جعله كالأصنام، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾، أي: ليس بكفء أن يُعبد الذي لا يسمع ولا يبصر وليس له صفات الكمال، فإذا آمنا ودعونا المسلمين إلى الإيمان بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا، التي ذكر الله في كتابه وسنة رسوله، هل يقال ليس في ذلك فائدة؟!!سبحان الله!!هذا بهتان عظيم.

بل بعضهم يقول: ما شأننا إن كان القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق؟

فيقال له: كيف يُوصَفُ الله بالنقص وينسب إليه ونسكت؟ هذا جهل.

لو قيل لرجل متكلم فصيح لديه شهادة عُليا (أنت لستَ متعلمًا)، فلن يرضى بهذا الكلام، فكيف يقال عن الله ﷻ: إنه لا يتكلَّم، فهذا انتقاص له، فكيف ترضون أن يوصف الله ﷻ بالنقص؟

والقرآن كلام الله الذي أنزله، والإيمان بالقرآن ركن من أركان الإيمان، فلا يصحُّ إيمان عبد حتى يؤمن بكتاب الله، والذي لا يعتقد بأن القرآن كلام الله فهو كافر لا يدخل الجنة؛ لأنه كَذَّبَ رب العالمين، والله تعالى يقول: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾، اقرأ كتاب الله وانظر كيف وصف الله كتابه ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ ﴾ ، فكتاب الله ﷻ فيه الهدى، والنور، وهو شفاء لما في الصدور، كل هذه الأوصاف لكتاب الله، ثم يأتي مَن يقول: ما شأننا نقول مخلوق أو غير مخلوق !! نسأل الله العافية.



المتن

فمِمَّا وَرَدَ إثباتُهُ لله تعالى: كلُّ صفةٍ دلَّ عليها اسمٌ من أسماءِ الله تعالى دلالةَ مطابقةٍ، أو تضمُّنٍ، أو التزام.

ومنه: كلُّ صفةٍ دلَّ عليها فِعْلٌ من أفعاله، كالاستواء على العرش، والنزولِ إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده يوم القيامة، ونحو ذلك من أفعاله التي لا تحصى أنواعُها فضلًا عن أفرادِها ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

ومنه: الوجه، والعينان، واليدان، ونحوُهَا، ومنه: الكلامُ، والـمشيئةُ، والإرادة بقسميها: الكوني والشرعي، فالكونيةُ بمعنى المشيئة، والشرعية بمعنى المحبة، ومنه: الرضا، والمحبةُ، والغضبُ، والكراهية ونحوها.

تقدم أنَّ اللَّفظ إذا دلَّ على الشيء كلِّهِ فهو بالمطابقة، وإذا دلَّ على بعض معناه فهو بالتضمن، وإذا دلَّ على أمر لازم خارج عنه فبالالتزام[١].

ثمَّ بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإرادة قسمان:

الأول: **إرادة كونيَّة**، وهي المشيئة، وضابطها أنها لا تتخلَّف، بمعنى أن ما شاء الله يقع كما شاء سبحانه، سواء أكان محبوبًا لله أم غير محبوب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ومثالها: أنَّ الله أراد أن تكون السماوات سبعًا فصارت سبعًا كما شاء الله.

الثاني: **إرادة شرعيَّة**، وهي: ما أراد الله أن يشرعه لعباده، وضابطها كونها محبوبةً لله ومرضيةً عنده، لكن ليس بالضرورة أن يمتثل الناس ما أراده الله شرعًا،

---

(١) تقدَّم الكلام على دلالات الألفاظ في القاعدة الخامسة من قواعد الأسماء (ص٥٥).

فمنهم من يمتثل، ومنهم من لا يمتثل، وهذه الإرادة قد تتحقَّق وقد لا تتحقَّق.

ومثالها: أراد الله من عباده التوبة شرعاً؛ لأنه يحب التوبة مِن عباده، لكن مِن عباده مَن تاب، ومنهم مَن لم يتب.

فائدة: لا تنقسم المشيئة إلى كونية وشرعية، وإنما هي بمعنى الإرادة الكونية فقط[(١)].



(١) وقد ذكر العلامة ابن القيم في كتابه «شفاء العليل» (ص٦) الأمور التي جاء في الشرع انقسامها إلى كونيٍّ وشرعي، وهي: «القضاء والقدر، والإرادة، والكتابة، والحُكم، والأمر، والإذن، والجَعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والعطاء والمنع إلى كوني يتعلق بخلقه وديني يتعلق بأمره».

المتن

ومما ورد نفيه عن الله سبحانه لانتفائه وثبوت كمال ضده: الموتُ، والنوم، والسِّنة، والعجز، والإعياء، والظلم، والغفلة عن أعمال العباد، وأن يكون له مثيل، أو كفءٌ، ونحو ذلك.

هذه أمثلة لما نفاه الله عن نفسه، فيجب علينا نفيها مع إثبات كمال ضدها:

- **الموت والنوم والسِّنة**: ودليلها قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فنفى الله عن نفسه الموت والسِّنة والنوم لكمال حياته وقيُّوميَّته.

- **العجز**: ودليله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، فنفى عن نفسه العجز لكمال علمه وقدرته.

- **الإعياء**: ودليله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾، فنفى الإعياءَ لكمال علمه وقدرته.

- **الظُّلم**: ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، فنفى الظلمَ لكمال عدله ورحمته.

- **الغفلة**: ودليلها: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فنفى الغفلةَ لكمال علمه.

- **المثيل**: ودليله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

- **الكُفء**: ودليله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

فنَفيُ المثيل والكفء يتضمَّن إثبات الكمال المطلق في جميع صفاته.



المتن

ومما لم يرد إثباته ولا نفيه لفظ (الجهة)، فلو سأل سائل: هل نثبت لله تعالى جهةً؟

قلنا له: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسُّنَّة إثباتًا ولا نفياً.

قوله: (إثباتًا)، أي: لم يرد في النصوص أن الله في جهة.

وقوله: (نفيًا)، أي: لم يرد في النصوص أن الله ليس في جهة.

وهنا قاعدة: إن المُثبِت مُطالبٌ بالدليل، لأن الأصل التَّوقُّف.

فإذا قال قائلٌ: إن الله في جهة، وهي العلو، وأنَّه محيطٌ بجميع خلقه.

فنقول له: المعنى صحيح، لكن كلمة الجهة لم تَرد، وتحتمل معنىً فاسداً، ويغني عنها ما ورد في الكتاب والسنة من الأدلة الكثيرة الدالة على علو الله، منها قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾،وقول النبي ﷺ: **(ألا تأمنوني وأنا أمين مَن في السماء)**[١]،وغيرها من الآيات والأحاديث الكثيرة جداً.

لكن إذا قال: أقصد بالجهة أنَّ الله في مكان يحيط به.

فنقول: هذا المعنى باطل، كمن يقول: إن معنى الحديث المتقدِّم **(وأنا أمين مَن في السماء)**، أي: أن السماء تُحيط به، وهي ظرف له، وكيف يقال هذا، والسماوات السبع الشداد يطويها الله بيمينه؟! فهذا من أبطل الباطل، أما المعنى الصحيح فيقال: إن الله في العلو، أو يقال إن (في) بمعنى (على)، أي: على السماء.

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٣٥١).

المتن

ويُغني عنه ما ثبت فيهما من أن الله تعالى في السماء، وأمَّا معناه فإما أن يراد به جهةُ سفل، أو جهة علو تحيط بالله، أو جهة علوٍّ لا تحيط به.

فالأول: باطلٌ؛ لمنافاته لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة، والإجماع.

والثاني: باطل أيضًا؛ لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

والثالث: حق؛ لأنَّ الله تعالى العليُّ فوق خلقه، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

ودليل هذه القاعدةِ: السَّمع والعقل، فأمَّا السَّمع فمنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ .

قوله رحمه الله: (**الأول**)، أنه إذا أراد بالجهة السُّفل فهذا باطل.

وقوله: (**الثاني**)، إن أراد بالجهة أنها جهة عُلُّو ولكنها تحيط بالله فهذا باطل أيضًا، بل الله بكل شيءٍ محيط، ومن أسماء الله المحيط، وأثبت هذا الاسمَ جماعةٌ من العلماء منهم المؤلف -كما تقدَّم-.

لكنَّ كلمة "جهة" لا نثبتها ولا ننفيها، فإن دلَّت على معنًى باطل أنكرنا المعنى الباطل وتوقَّفنا في اللَّفظ، وإن دلَّت على معنىً صحيح أثبتنا المعنى الصحيح وتوقَّفنا في اللَّفظ.

معنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي: لكي تُرحموا، فـ (لعل) في هذا السياق ونظائره للتعليل وليست للتَّرجي، فالله لا يرجو منا أنْ يرحمنا وإنما يبين سبب الرحمة وهو اتباع كتابه.

المتن

وقولهُ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ ﴾، الضمير يعود للنبي ﷺ، فالآية دلت على وجوب اتباع الكتاب والسنة في باب الأسماء والصفات، وفي غيرها من أبواب الدِّين.

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾.

جاءت في سياق ذكر الفيء وهو: ما تركه العدوُّ من غير قتال، والفيء يُقسم تقسيماً غير تقسيم الغنائم.

ومن القواعد المقرَّرة عند أهل العلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدلُّ عليها ما ذكره الصحابيُّ الجليل ابن مسعود رضي الله عنه حين روى حديث النبيِّ ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ الواشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن، المغيرات خلق الله**» فقالت أم يعقوب: ما هذا؟ قال عبد الله: «**وما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله، وفي كتاب الله؟**» قالت: والله لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدته، قال: «والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾»[1].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٩٣٩)، ومسلم برقم: (٢١٢٥).

المتن

وقولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾.
وقولُه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.
وقولُه: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.
إلى غير ذلك من النُّصوص الدالة على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن والسنة.

قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، دليل على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى ،وهذا كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، وتكرار فعل (أطيعوا) يدلُّ على أن طاعة الرسول ﷺ تجبُ استقلالًا، ولم يذكر الفعل عند ذِكْر أولي الأمر، فدلَّ على أن طاعتهم مقيدة بطاعة الله ورسوله.

وطاعة الرسول ﷺ تكون في الأحكام والعقائد، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، (إنْ) أداة شرط، و(شيءٍ) نكرةٌ، والنكرة في سياق الشرط تدل على العموم، فمعنى الآية: فإن تنازعتم في أيِّ شيء فردوه إلى الله، أي: إلى كتابه، وإلى الرسول، أي: إلى شخصه في حياته، وإلى سنَّته بعد وفاته، وجعل ذلك شرطًا في الإيمان بالله واليوم الآخر، بمعنى: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فليكن ردكم عند التنازع إلى الله ورسوله، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، أي: في الحال، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، أي: في المآل والعاقبة.

فهذه النصوص الواضحة تدل على وجوب الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة، وأعظم ما نؤمن به هو ما ثبت لله من الأسماء الحسنى والصفات العُلا، فما ثبت أثبتناه، وما جاء نفيه نفيناه مع إثبات كمال ضده.

المتن

وكل نص يدل على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن فهو دالٌّ على وجوب الإيمان بما جاء في السُّنَّة؛ لأن مما جاء في القرآن الأمر باتِّباع النبي ﷺ، والرد إليه عند التنازع؛ والرد إليه يكون إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

وهنا مسألة مهمة وهي مما امتاز به أهل السنة عن أهل الأهواء، وهي أنَّهم يستدلون بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، فيأتي آتٍ ويقول: فلنكتف بالكتاب والسنة ، لماذا تقولون: وما كان عليه سلف الأمة؟

فنقول: الأمر باتِّباع سبيل المؤمنين ثابت في الكتاب والسُّنَّة ، ألم يقل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إنَّ بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترقُ على ثنتين وسبعين فرقةً، كلها في النار إلا واحدة وهي: الجماعة** »[1]فحينئذٍ لو أننا قلنا: الكتاب والسنَّة ولم نقل " وما كان عليه سلف الأمة"، فإننا سنكون مخالفين لما في الكتاب والسنَّة مِن الأمر باتباع سلف الأمة، فليُحذر من هؤلاء المشاغبين الذين يشكِّكون في الدين، ومن الذين يُزهِّدون في العلماء وأهميَّة اتباعهم، ولذلك تجدهم في غاية الجهل.



(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم: (٢٦٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (٢٠٤).

المتن

فأين الإيمان بالقرآن لمن استكبر عن اتباع الرسول ﷺ المأمور به في القرآن؟ وأين الإيمان بالقرآن لمن لم يَـرُدَّ النزاع إلى النبيِّ ﷺ، وقد أمر الله به في القرآن؟ وأين الإيمان بالرسول الذي أمر به القرآن لمن لم يقبل ما جاء في سنَّته؟! ولقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، ومن المعلوم أن كثيرًا من أمور الشريعة العلميَّـة والعمليَّـة جاء بيانها بالسنة، فيكون بيانها بالسنة من تبيان القرآن.

وأمَّا العقل، فنقول: إن تفصيل القول فيما يجب أو يمتنع أو يجوز في حق الله تعالى من أمور الغيب التي لا يمكن إدراكها بالعقل، فوجب الرجوع فيه إلى ما جاء في الكتاب والسنة.

أعظم ما جاء في الكتاب والسنة هو ما لله ﷻ من الأسماء الحسنى والصِّفات العلا، وأن الله قد أنزل على نبيه الكتاب تبيانًا لكل شيء، والنبي ﷺ قد بيَّن الشريعة أكمل بيان، كما قال ﷺ: «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك أو ضال**»[١]، وكما جاء في حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه حينما **قال له الرَّجل: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة،فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجيَ باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجيَ برجيع أو بعظم**[٢].

(١) أخرجه أحمد برقم:(١٧١٤٢)، وابن ماجه برقم:(٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٤٣٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٢).

فهل يعقل أن النبي ﷺ يذكر ما يقال في آداب قضاء الحاجة، ولا يذكر ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، مما يجب علينا أن نعتقده ونؤمن به؟!

وإذا كانت مسألة واحدة من مسائل قضاء الحاجة قد وردت فيها أحاديث كثيرة، فهل يعقل أن باب الأسماء والصفات الذي يجب على الأمة أن يؤمنوا به يحيلنا الله فيه إلى عقولنا؟!، فيأتي هذا ويثبت سبع صفات، وهذا يثبت ثلاث عشرة صفة، وهذا لا يثبت إلا الأسماء، وهذا لا يثبت الأسماء ولا الصفات، وهذا يُحَرِّف، وهذا يُؤَوِّل، وهذا يقول مجاز...إلى آخره، لا يمكن هذا، وقد وصف الله كتابه فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ .



المتن

القاعدة الثانية: الواجب في نصوص القرآن والسنةِ إجراؤها على ظاهرها دون تحريفٍ، لاسيَّما نصوص الصفات، حيث لا مجال للرأي فيها ودليل ذلك: السَّمع والعقل.

أما السَّمع: فقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾، **وقوله:** ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، **وقوله:** ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللِّسان العربي إلَّا أن يمنع منه دليل شرعي.

وقد ذم اللهُ تعالى اليهودَ على تحريفهم، وبيَّن أنهم بتحريفهم من أبعد الناس عن الإيمان فقال: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، **وقال تعالى:** ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

فالصفات تنقسم إلى أقسام: صفات تجب لله تعالى وهي ما أثبتها لنفسه، كالعِلم، والحياة، وصفات تمتنع عن الله ﷻ، وهي صفات النقص كالموت، والعجز، ومنها صفات يجوز أن يتصف الله ﷻ بها كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، ويتوقف إثباتها لله ﷻ على ورود النَّص.

قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾، أي: بَيِّنٌ واضح، فالواجب إجراء الآيات على ظاهرها، فالتحريف من أفعال اليهود التي ذمَّها اللهُ وتوعد فاعلها، فمن حَرَّفَ من أمة محمد ففيه شبه من اليهود، وقد قال النبي ﷺ على سبيل التحذير: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٧٣٢٠)، ومسلم برقم: (٢٦٦٩).

المتن

وأما العقل: فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين، فوجب قَبولُه على ظاهره، وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة.

هذا الدَّليل العقليُّ: على أنَّ الأصل فهم الكلام على ظاهره، فإذا قال الله ﷻ عن نفسه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، فنقول: إنَّ الأصل هو الظاهر، فنثبت لله ﷻ يدين حقيقيتين مبسوطتين.



المتن

القاعدة الثالثة: ظواهر نصوص الصِّفات معلومة لنا باعتبار، ومجهولة لنا باعتبار آخر، فباعتبار المعنى هي معلومة، وباعتبار الكيفيَّـة التي هي عليها مجهولة. وقد دلَّ على ذلك: السَّمع والعقل.

ظاهر النصوص معلوم لنا باعتبار المعنى، ومجهول لدينا باعتبار الحقيقة والكيفيَّة، مثل صفة الاستواء التي قال عنها الإمام مالك: الاستواء (غير مجهول)(١)، أي: أن معناه واضح، والكيف غير معقول، أي لا ندركه بعقولنا.

مثال آخر: نحن نعلم أن الله يتكلم ونعلم معنى الكلام، لكن كيف يتكلَّم؟ هذا لا نحيط به علمًا، فصارت نصوص الصفات معلومة لدينا باعتبار معناها، وغير معلومة لدينا باعتبار كيفيَّتها وحقيقتها، وهذا كما هو في حقِّ الله عز وجل كذلك يقال في الغيبيات كالجنَّة، والنَّار، والملائكة، والصراط، والميزان، والحوض، والقبر نعيمه وعذابه.



(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٩٨)، وصححه الحافظ الذهبي في «العلو» (ص١٣٩) قال: (هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة أن كيفية الاستواء لا نعقلها).
ومُراد الإمام مالك رحمه الله بقوله: (والكيف غير معقولٍ) أي: غير معلوم لنا، فهو نفيٌ لعِلْمنا بالكيفية، وليس نفيًا للكيفية؛ لأن ما لا كيفية له لا وجودَ له، فصفات الله لها كيفية لا يعلمها إلا هو.

المتن

أمَّا السمع: فمنه قوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وقوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وقوله جل ذكره: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

والتدبُّر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه؛ ليتذكَّر الإنسان بما فهمه منه، وكون القرآن عربيًا؛ ليعقله من يفهم العربية، يدلُّ على أنَّ معناه معلوم، وإلَّا لما كان فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها. وبيان النبيِّ ﷺ القرآنَ للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه.

قوله عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أمر الله النبيَّ ﷺ أن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، وما لم يكن من القرآن معلومًا ومفهومًا؛ فإن النبيَّ ﷺ يبينه للناس، أما وقد تركنا النبيُّ ﷺ على ظاهر النصوص ،ولم يبين لنا شيئاً غير ظاهرها، فعُلِمَ أن ظاهرها مراد، ولذلك لم يزده بياناً، وإنما بيَّن ما أشكل على الصحابة من ذلك.

إذاً لماذا نقرأ التفاسير ما دام أن القرآن بَيِّنٌ؟

السَّبب في ذلك هو بعدنا عن اللغة وأساليبها، فأصبح الواحد كأنه أعجميٌّ لا يفهم من القرآن إلا قليلًا، بل ربما يفهم خلاف ما أراد الله تعالى من كلامه، وهذا بسبب البعد عن أساليب اللُّغة، ومعانيها، وألفاظها، وبلاغتها.



المتن

وأمَّا العقل؛ فلأن من المحال أن ينزِّل الله تعالى كتابًا، أو يتكلَّم رسوله ﷺ بكلام يُقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق، ويبقى في أعظم الأمور وأشدِّها ضرورة مجهولَ المعنى، بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم منها شيء؛ لأن ذلك من السَّفه الذي تأباه حكمة الله تعالى، وقد قال الله تعالى عن كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

هذه دلالة السَّمع والعقل على علمنا بمعاني نصوص الصفات، وأمَّا دلالتها على جهلنا لها باعتبار الكيفيَّة، فقد سبقت في القاعدة السادسة من قواعد الصفات.

وبهذا علم بطلان مذهب المفوضة الذين يفوضون علم معاني نصوص الصفات، ويدَّعون أن هذا مذهب السلف.

بعض الناس يقول: مذهب أهل السنَّة والجماعة إمَّا التأويل وإمَّا التفويض، -والتفويض معناه الجهل بمعاني الصفات-والسلف بريئون من مذهب المفوضة فهم يعلمون المعاني ويجهلون الكيفية، لأن كتاب الله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾، كيف لا نعلمه وهو بلسان عربي مبين، والنبي ﷺ يبيِّن للناس ما نزِّل إليهم؟! فهو معلوم المعنى، لكن المفوِّضة - والذين يقال عنهم المجهِّلة - يقولون: الله أعلم ما معنى هذا، وهكذا جعلوا آيات الصفات الواضحة البيِّنة مثل قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾،﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ ،وغير ذلك من الآيات الكثيرة جدًا، جعلوها بمنزلة (حمٓ، الٓمٓ، كٓهيعٓصٓ)، والله تعالى ذكر هذه الأحرف لبيان أن القرآن الذي نزله على محمد ﷺ من جنس الأحرف التي يتكلم بها كفار قريش وغيرهم من العرب، فيظهر في ذلك صدقه ﷺ، ويظهر عجزهم على أن يأتوا بمثله.

المتن

والسلف بريئون من هذا المذهب، وقد تواترت الأقوال عنهم بإثبات المعاني لهذه النصوص إجمالًا أحيانًا، وتفصيلًا أحيانًا، وتفويضهم الكيفيَّة إلى علم الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المعروف بـ (العقل والنقل) (ص١١٦/ج١) المطبوع على هامش (منهاج السنة): وأما التفويض فمن المعلوم أن الله أمرنا بتدبُّر القرآن، وحَضَّنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يُرادَ منَّا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله إلى أن قال (ص١١٨): وحينئذ (فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن أو كثيرٌ مـمَّا وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه، قال: ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذ كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هدىً وبيانًا للناس، وأمر الرسول أن يبلِّغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نُزِّل إليهم، وأمر بتدبُّر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه- وهو ما أخبر به الرب عن صفاته - لا يعلم أحد معناه فلا يُعقل ولا يُتدبر، ولا يكون الرسول بيَّن للناس ما نزل إليهم، ولا بلَّغ البلاغ المبين؛ وعلى هذا التقدير فيقول كلُّ ملحد ومبتدع: الحقُّ في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك؛ لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، ولا يعلم أحد معناها، وما لا يَعلم أحدٌ معناه لا يجوز أن يستدل به، فيبقى هذا الكلام سدًّا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحًا لباب من يعارضهم ويقول: إنَّ الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء؛ لأننا نحن نعلم ما نقول ونبيِّنه بالأدلة العقلية؛ والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلًا عن أن يبيِّنوا مرادهم، فتبين أن قولَ أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد). انتهى كلام الشيخ، وهو كلام سديد من ذي رأي رشيد، وما عليه مزيد، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجمعنا به في جنات النعيم.

معنى كلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يقال للمفوِّضة: لقد فتحتم باباً لأهل البدع من الفلاسفة ونحوهم، لأن المبتدع سيقول: الذي لا يعرف فعليه السكوت، ثم يأتي بمعانٍ من هوى نفسه، ولذلك قيل عن المفوِّضة: لا هُم للحق نصروا، ولا هُم للفلاسفة كسروا، بل فتحوا باباً لأهل الأهواء، ولكلِّ ملحد أن يقول ما شاء، ومعلوم أن الذي يَعلم أكمل من الذي لا يَعلم، وأهل السنَّة هم أعلم الناس بالحقِّ، وأرحمهم بالخلق، فيعلمون الحق ويعلمون المعاني ويتدبَّرون كتاب الله.



المتن

القاعدة الرابعة: ظاهر النصوص ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنًى في سياق، ومعنًى آخر في سياق، وتركيب الكلام يفيد معنًى على وجه، ومعنًى آخر على وجه، فلفظ (القرية)، مثلًا يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى.

هنا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتناول قضية مهمة ألا وهي: هل في القرآن مجاز أم ليس فيه مجاز؟

و**الصواب**: أن القرآن ليس فيه مجاز، وكلُّه حقيقة، وحقيقة الكلام: هو ما تبادر إلى الذهن من الكلام، فإذا قال لك أحدٌ: رأيت أسدًا يخطب على المنبر، فإنَّك تفهم منه أنه رأى رجلاً شجاعاً، وليس حيوانًا، فإن قوله: يخطُب دلَّ على أنه إنسان، وليس حيوانًا، ومثلًا إذا قيل: إن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان بحراً في العلم، فنفهم منه أنه ذو علم واسع.

فالمتبادر إلى الذهن هو حقيقة الكلام، وظاهر نصوص الكتاب هكذا؛ لأنها بلسان عربي مبين، فكلام رب العالمين بأساليب العرب، كالاستفهام والتعجُّب والنفي، وغيرها، فبذلك نزل القرآن الكريم، وجعله الله حجَّة عظيمة وآية كبيرة لنبينا محمد ﷺ تحدَّى الناس أجمعين، بل تحدَّى الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، مع أن الأساليب واحدة والمفردات واحدة، فما تبادر لذهن المستمع هو حقيقة الكلام، وليس في لغة العرب كلمات مفردة إلا أن تُركَّب في جُمل وفي سياق فيظهر معناها، وهذا الباب مهم جدًا ؛لأن أهل التحريف الذين يسمُّون أنفسهم زورًا وبهتانًا أهل التأويل حتى يلطِّفوا مذهبهم، ماذا فعلوا ليحرِّفوا كتاب الله ؟ قالوا: هذا مجاز، ولم يرد الله هذا المعنى الظاهر، بل أراد معنىً آخر، حتى بلغوا مبلغ

أهل البدع الكبار من الجهمية والمعتزلة، لكنهم سموا أنفسهم أهل السنة حتى إذا قيل مَنْ أهل السنة؟ قالوا: هم الأشاعرة والماتريدية! وهذا زور وبهتان، والحقيقة أن الأشاعرة والماتريدية هم أفراخ المعتزلة، الذين نفوا صفات الله ﷻ، ولكن أولئك أصرح منهم وأجرأ بباطلهم.

فالمعتزلة يقولون عن الله تعالى: سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر(١)، والجهميَّة يقولون: لا نثبت لله أسماء ولا صفات.

وأمَّا الأشاعرة الذين هم أفراخ المعتزلة، فقد أثبتوا بعض الصفات، وحرَّفوا أكثرها، وذلك لزعمهم أن في القرآن مجازًا، قالوا: المراد بالانتقام في الآيات هو إيصال العذاب، بل يستنكرون ذلك فالكلمة ليست على ظاهرها، وإنَّما المعنى أن يوصل العذاب، إذًا الله في الحقيقة لا ينتقم.

والحقيقة أنَّ هذه الصفات لو لم تكن لائقة بالله لما وصف بها نفسه، إذ هو أعلم بنفسه من خلقه سبحانه وتعالى، فهذا أسلوب من أساليب أهل البدع وهو قولهم بأن القرآن فيه مجاز؛ للتخلُّص من إثبات صفات الله ﷻ لموافقة المعتزلة والجهمية، لذلك سمَّاه ابن القيم: "طاغوت المجاز"، لأنه استُعمل لتحريف صفات الله ﷻ، ونفيها وتعطيل الله ﷻ عنها.

كذلك استعملوا أسلوبًا آخر وهو قولهم: إنَّ أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة، فهذان السِّلاحان استعملهما أهل البدع لنصرة عقائدهم الباطلة، وإنكار الحق لما قالوا بالمجاز، وأن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة، لكن أهل السنَّة لهم بالمرصاد، فردُّوا عليهم وأفحموهم بحمد الله ﷻ.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «الله تعالى سمَّى نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، فإنْ كان إثبات الصفات يستلزم التشبيه فإثبات الأسماء كذلك، وإنْ كان إثبات الأسماء لا يستلزم التشبيه فإثبات الصفات كذلك، والتفريق بين هذا وهذا تناقض، فإما أنْ يثبتوا الجميع فيوافقوا السلف، وإما أنْ ينفوا الجميع فيوافقوا غلاة الجهمية والباطنية، وإما أنْ يفرقوا فيقعوا في التناقض». [تقريب التدمرية ص٢٩].

المتن

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾[الإسراء: ٥٨].

ومن الثاني: قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

تطلقُ القرية في اللغة على المباني، وعلى أهل القرية، هذا كلام العرب، والسياق العام للكلام هو الذي يحدِّد المراد.

الذين أهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ كما جاء في الآية هم أهل القرية؛ المشركون، الظَّلَمة، المجرمون، هؤلاء المستحقُّون للعذابِ الذي عذَّبهم الله به، وليس المقصود قطعاً أن الله تعالى عذب المباني؛ لأن المباني غير مكلَّفة، فالله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

فالمقصود بقول الله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي: وإنْ من قوم يسكنون قرية إلا ونحن مهلكوهم قبل يوم القيامة أو معذِّبوهم عذابًا شديدًا.

قوله:(ومن الثاني) أي ومن إطلاق القرية على المباني وعلى المساكن قوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، لو كان المراد بالقرية هنا النَّاس لصار المعنى: أهل هؤلاء القوم، وهذا معنىً غير مستقيم، وإنما المعنى المقصود بقوله: أهل هذه القرية، يعني: سكان هذه المباني، فصار هنا معنى القرية المباني والمساكن.

فهناك معنيان للقرية: الأوَّل: البَشَر، والثاني: المباني والمعالم، والذي يحدد أحد المعنيين هو سياق الكلام.



المتن

وتقول: صنعتُ هذا بيدِي، فلا تكون اليدُ كاليد في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، لأنَّ اليد في المثال أضيفت إلى المخلوق، فتكون مناسبةً له، وفي الآية أضيفت إلى الخالق، فتكون لائقةً به، فلا أحدَ سليم الفطرة صريح العقل يعتقد أن يد الخالق كَـيَـدِ المخلوق أو بالعكس.

اليد تارة تضاف إلى الخالق وتارة إلى المخلوق، فكيف يتبادر إلى ذهن إنسان عاقلٍ أن يد الخالق كَيَدِ المخلوق بحجَّة تشابه الأسماء في كلمة (يد)؟! هذه (يد) أضيفت إلى الخالق، وهذه (يد) أضيفت إلى المخلوق، هذه يد ،وهذه يد، لكن هذه أُضيفت إلى الله، وهذه أُضيفت إلى المخلوق، كما يقال: يد زيد، ويد عمرو، وكما يقال: يدي اليمنى، ويدي اليسرى، اختلفت هذه عن هذه مع أنهما أضيفتا إلى شخص واحد، لكن أضيفت إلى وصف ، ولا يتبادر إلى عقل إنسان سليم الفطرة ويفهم اللغة أننا إذا ذكرنا يدين اثنتين وأضيفت كلُّ يد إلى مَن أضيفت إليه، فإنهما بذلك تتماثلان.



المتن

ونقول: (ما عندك إلَّا زيد)، و(ما زيد إلا عندك)، فتفيد الجملة الثانية معنى غيرَ ما تفيده الأولى مع اتحاد الكلمات، لكن اختلف التركيب فتغيَّر المعنى به.

الجملتان المذكورتان فيهما تطابقٌ في الكلمات وعددها، لكن بينهما اختلافٌ واضحٌ في المعنى والدلالة؛ فإذا قلنا: (ما عندك إلا زيد)، أي: لا يوجد أحدٌ غيره، وإذا قلنا: (ما زيد إلا عندك)، أي: ليس في مكان آخر، ولا يمنع من وجود غيره، فيختلف هذا عن هذا، فكلام العرب فيه اختلاف بسبب الحروف والمعاني والضَّبط، فإذا قلنا: يد الله فوق أيديهم، لا يلزم منه أن يد الله ستكون مثل يد المخلوقين أبداً.

الذي نفى صفة اليد عن الله تعالى وقع في محظورين:

الأول: التَّمثيل؛ لأنَّه مثَّل في ذهنه الخالق بالمخلوق.

الثاني: التَّعطيل؛ وهو إمَّا أن يكون صريحاً كتعطيل الجهمية، وإمَّا أن يكون غير صريح –أي: تعطيلٌ عن طريق التحريف– كالأشاعرة، والخلاصة أن هذا المحرِّف وقع في محظورين: التَّمثيل، والتَّعطيل.



المتن

إذا تقرَّرَ هذا فظاهرُ نصوصِ الصِّفات ما يتبادر منها إلى الذِّهن من المعاني.

وقد انقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مَنْ جعلوا الظاهرَ المتبادرَ منها معنًى حقًّا يليق بالله ﷻ، وأبقوا دلالتها على ذلك، وهؤلاء هم السَّلف الذين اجتمعوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابُه، والذين لا يصدق لقب أهل السنة والجماعة إلا عليهم.

قوله: (**هؤلاء هم السلف**)، أي: الذين مضوا، ويُسمَّوْن الجماعة؛ لأنهم اجتمعوا على التمسُّك بسنة النبي ﷺ، ومذهبهم هو جعل الظاهر المتبادر منه معنى حقًّا يليق بالله ﷻ، فهم أبقوا دلالتها على ذلك، فقالوا في يد الله: يد تليق بالله ﷻ، لا تماثل يد المخلوق، فأخذوها على ظاهرها.

قوله: (**والذين لا يصدق لقب أهل السنة والجماعة إلا عليهم**) فيه ردٌّ على من يقول: أهل السنَّة والجماعة هم أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي، ومنهما تكونت فرقة أهل السنَّة والجماعة !! وهذا زور وبهتان، كيف يكون هؤلاء أهل السنَّة والجماعة ، وهؤلاء في آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع؟ فأين رسول الله ﷺ وأين أبو بكر وعمر وعثمان، وأين المهاجرون والأنصار ﷺ ، وأين الأئمة في القرون الثلاثة الأولى المفضَّلة، الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، كيف يكون هؤلاء هم أهل السنة والجماعة إذا كانت فرقة أهل السنَّة والجماعة خرجت من أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي؟!



المتن

وقد أجمعوا على ذلك كما نقله ابن عبد البرِّ فقال: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كُلِّها في القرآن الكريم والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنَّهم لا يكيِّفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة» ا.هـ

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب «إبطال التأويل»: «لا يجوز رَدُّ هذه الأخبار، ولا التشاغلُ بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله، لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يُعْتَقَدُ التشبيه فيها، لكن على ما روي عن الإمام أحمدَ وسائر الأئمة» ا هـ.

نقل ذلك عن ابن عبد البرِّ والقاضي شيخُ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحمويَّة (ص٨٧-٨٩/ ج٥) من مجموع الفتاوى لابن القاسم.

وهذا هو المذهب الصحيح، والطريق القويم الحكيم، وذلك لوجهين:

الأول: أنه تطبيق تام لما دلَّ عليه الكتاب والسنَّة، من وجوب الأخذ بما جاء فيهما من أسماء الله وصفاته كما يعلم ذلك من تتبعه بعلم وإنصاف.

الثاني: أن يقال: إنَّ الحقَّ إما أن يكون فيما قاله السلف أو فيما قاله غيرهم.

المقصود بالثاني: أن يكون الحقُّ فيما قاله غير السلف، وهذا باطل، فإذًا تعيَّن أن يكون الحق مع السلف.



المتن

والثاني باطل، لأنه يلزم منه أن يكون السلف من الصَّحابة والتابعين لهم بإحسان تكلموا بالباطل تصريحًا أو ظاهرًا، ولم يتكلَّموا مرة واحدة لا تصريحًا ولا ظاهرًا بالحقِّ الذي يجب اعتقاده.

وهذا يستلزم أن يكونوا إما جاهلين بالحق، وإما عالمين به لكن كتموه، وكلاهما باطل، وبطلانُ اللازم يدل على بطلان الملزوم، فتعين أن يكون الحق فيما قاله السَّلف دون غيـرِهم.

كلا الافتراضين باطل؛ لأنه يلزم من كلامهم أن يكون السَّلف جاهلين بالحق، أو يكونوا عالمين به لكنَّهم كتموه -حاشاهم-، فهم أعلم خلق الله ﷻ بعد الأنبياء والمرسلين، ولولا الله ﷻ ثم السلف لما وصلنا الدين ولا وصل غيرَنا لأنهم هم النواة الأولى، وهم الذين سمعوا العلم و بلَّغوه عن رسول الله ﷺ.

فالحق أن النبي ﷺ عَلِمَ الحق وبلَّغه، وما لم يبلِّغه فليس من الحق، إذ لو كان من الحق لبلَّغه، وما كان باطلًا لم يكن يعتقده، إذ كيف يُظن بأن النبي ﷺ يعتقد الباطل فنأتي إلى كلام لم نجده عند النبي ﷺ ولا خلفائه، كقولهم إن معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، أي: استولى، أو قولهم: إن معنى قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ،أي: وجاء أمر ربك ،إلى آخره من التحريفات الباطلة، فنقول: هذه الأقوال ما قالها الرسول ﷺ إذاً هي باطلةٌ، لأنها لو كانت حقاً لبلَّغها ﷺ.

و المسألة ليست فقهيَّة يستنبط منها الحُكم فيُحتَمل أن يكون كذا أو كذا، وإنَّما هي عقيدة وأخبار يُخبِر الله بها ،فهي من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فلا مجال فيها للاستنباط والاجتهاد، وإنَّما مجال العقيدة التصديق أو التكذيب.

المتن

القسم الثاني: من جعلوا الظاهر المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلًا لا يليق بالله وهو: التشبيه، وأبقوا دلالتها على ذلك.

وهذا القسم الثاني خطير جدًا، لأن التشبيه كفر، -والتشبيه أن يُقال: الله يشبه المخلوق-، والدليل على أنَّه كُفْرٌ كونه تكذيبًا لقول الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، والمشبِّه يقول: بل له مثيل، وقال الله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، والممثِّل يقول: بل له كفء.

فأصحاب القسم الثاني يقولون: إنَّ ظاهر القرآن حق، وهو يفيد التَّمثيل.

فمن قال: ظاهر نصوص القرآن والسنَّة يدلُّ على التَّمثيل، فهذا يعني أنَّ ظاهر القرآن يدلُّ على الكفر، وهذا باطل.

والقاعدة: يلزم في إثبات صفات الله ﷻ التخلي عن محذورين عظيمين:

الأول: التَّمثيل.

الثاني: التَّكييف.



المتن

وهؤلاء هم المشبِّهة، ومذهبهم باطل محرم من عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه جنايةٌ على النصوص، وتعطيل لها عن المراد بها، فكيف يكون المراد بها التشبيه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟

مذهب المشبِّهة فيه جناية على النصوص التي دلَّت على نفي التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: نظراء وأشباه، وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فهؤلاء جنوا على هذه النصوص وأبطلوها، وجعلوها دالَّة على التمثيل، وهم كُثُر، حتَّى وإن لم يقولوا عن أنفسهم إنهم ممثِّلة، فليس بالضرورة أن يقولوا ذلك، فكل مَن يعبد الأصنام، والأوثان، والأولياء فهو في الحقيقة مُمثِّلٌ، فهو يعبد هذا المخلوق كما يُعْبَد رَبُّ العالمين، فيدعو هذا المخلوقَ كما يجب أن يدعو اللهَ، ويرجو المخلوق كما يجب أن يرجو الله، ويخاف من المخلوق كما يجب أن يخاف من الله، وينذر للمخلوق كما يُشرع أن ينذر لله، وهذا التمثيل الصريح الذي غفل عنه كثير من الناس.

والأعجب من ذلك سكوت كثير من الدُّعاة عن إنكار هذا الشرك، والذي فيه أعظم تمثيل للمخلوق بالخالق، والله المستعان.



المتن

الثاني: أنَّ العقل دل على مباينة الخالق للمخلوق في الذات والصفات، فكيف يُحكَمُ بدلالة النصوص على التَّشابه بينهما؟

الثالث: أن هذا المفهوم الذي فهمه المشبِّه من النصوص مخالف لما فهمه السلف منها، فيكون باطلًا.

سبق أن ذكرنا أن العقل يعلم بالضرورة أن الخالق غير المخلوق، فلا يوجد مخلوق يقول عن نفسه: أنا الخالق، حتى فرعون لم يقل أنا الخالق، وحتى إبليس لم يقل ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾، فعُلِم بالضرورة أن الخالق غير المخلوق، فهناك تباينٌ بين الخالق والمخلوق، فالذي يجعل ظاهر النصوص التمثيلَ قد أنكر هذه الحقيقة التي هي معلومةٌ بالضرورة دينًا وعقلًا، حتَّى المجوس الذين زعموا أن للعالم خالقَيْن وهما الظلمة والنور، اعتقدوا أن النور خيرٌ من الظلمة، لأن الظلمة خَلَقَتِ الشرَّ، والنور خالق للخير، وهم مجوس ما أثبتوا خالِقَين متساويين، فكيف يقول الممثل: إنَّ النصوص دالة على التمثيل !!ويجعلُ الخالق كالمخلوق؟

قوله: (**الثالث: أن هذا المفهوم الذي فهمه المشبِّه**): تقدم معنا الإشارة إلى هذا الكلام، وهو إمَّا أن يكون السلف على حق، وإمَّا أن يكون مَن خالفهم على حق، والثاني باطل، إذًا يتعين أن السلف هم الذين على الحق، فمن قال: إن النصوص تفيد التشبيه، فقد خالف السلف، فهو إذًا من أهل الباطل.



المتن

فإن قال المشبِّه: أنا لا أعقل من نزول الله ويده إلا مِثْلَ ما للمخلوق من ذلك، والله تعالى لم يخاطبنا إلا بما نعرفه ونعقله فجوابه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي خاطبنا بذلك هو الذي قال عن نفسه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

أثبت الله ﷻ لنفسه الصفات العلا، وأخبرنا أنه ﷻ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، فقوله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، ضلت في فهمه طائفتان:

الأولى: نفت صفات الله ﷻ كلها وهم: (الجهمية، والمعتزلة، وكل معطِّل).

الثانية: جعلت صفات الله كصفات المخلوقين وهم: (المشبِّهة الممثلة).

وأهل السنة اعتقدوا بأن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، مع إثبات الصفات كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾،فهو ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، لكنه سميع بصير على وجهٍ يليق به سبحانه وتعالى، ولا يماثل المخلوقين.



المتن

ونهى عباده أن يضربوا له الأمثال، أو يجعلوا له أندادًا فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وكلامه تعالى كُلُّه حقٌّ يصدق بعضه بعضًا، ولا يتناقض.

ثانيها: أن يقال له: ألست تعقل لله ذاتًا لا تشبه الذوات؟ فسيقول: بلى!

فيقال له: فلتعقل له صفاتٍ لا تشبه الصِّفات، فإن القول في الصفات كالقول في الذات، ومن فرَّق بينهما فقد تناقض.

قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، أي :لا تقولوا: هذا الشيء مِثْلُ الله، ولا تقولوا: الله مِثْلُ الشيء الفلاني، فالله ﷻ لـمَّا نهى عن ضرب الأمثال له قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا ردٌّ على من شَبَّه الخالق بالمخلوق وقال: أنا لا أعلم من الصفات إلا ما أراه عند المخلوقين، إذا قلتَ له: الله سميع بصير، قال: أنا لا أعرف سميعًا بصيرًا إلا الإنسان، فنقول: الذي قال: إن الله سميع بصير هو الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فمن اعتقد أن المخلوق يماثل الخالق فقد جعل لله ﷻ ندا أي: نظيرًا، والله يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾،أي: أنَّ الله ليس له ندٌّ يخلق كخلقه.

والممثِّلة يقولون: صفات الخالق مثل صفات المخلوق، وإذا سألتهم عن ذات الخالق؟ قالوا: لا، ذات الخالق تختلف عن ذات المخلوق!!

فنقول لهم: القول في الصفات كالقول في الذات، فكما أن لله ﷻ ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين، فكذلك له صفاتٌ لا تماثل صفات المخلوقين؛ لأنَّ الصفات تابعة للذات.

قوله: (القول في الصفات كالقول في الذات): وهذه من القواعد التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته "التدمرية"، وهي: **أَنَّ القولَ في الصفات كالقول في الذات** نفيًا وإثباتًا وتنزيهًا، فكما أنَّنا لا نحيط بذات الله فإننا لا نحيط بصفات الله، وكما أنَّ ذات الله ليست كذوات المخلوقين، فصفات الله عَزَّ وَجَلَّ ليست كصفات المخلوقين، وكما أن ذات الله عَزَّ وَجَلَّ تليق به كذلك صفاته تليق به، وهكذا القول في الصفات كلها كالقول في الذات، وهذه القاعدة قوية جدًا، ومحكمة تُفْحِم بها كل مبتدع، لو فهمتها وعرفت كيف تستدلُّ بها ؛ لأن المبتدع يلزمه التناقض، لأنه سينفي نظير ما أثبتَ، فتقول له: لابد أن تقول في الصفات ما قلته في الذات، أو تقول في الذات ما قلته في الصفات، فالباب واحد وإلَّا ستكون متناقضًا.

فإذا قلت: لله ذات غير معلومة الكيف لدينا، فيجب أن تقول: وله صفات غير معلومة الكيف لدينا، وإذا قلت: لله ذات تليق به، فقل: له صفات تليق به، فالباب واحدٌ، والقول في الصفات كالقول في الذات.



المتن

ثالثها: أن يقال: ألست تشاهد في المخلوقات ما يتَّفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية؟ فسيقول: بلى!

فيقال له: إذا عَقَلْتَ التباين بين المخلوقينَ في هذا، فلماذا لا تعقله بين الخالق والمخلوق؟! مع أن التباين بين الخالق والمخلوق أَظْهَرُ وأعظم، بل التماثل مستحيل بين الخالق والمخلوق كما سبق في القاعدة السادسة من قواعد الصفات.

كثير من صفات المخلوقات تتَّفق في الأسماء، وتختلف في الحقيقة والكيفيَّة، مثال ذلك: يد الإنسان، ويد الحيوان، وكذلك بعض الجمادات لها أيدٍ كيد الباب، وهي متطابقة في الأسماء، ومختلفة في الكيفيَّة والحقيقة، فهناك فرق كبير بين يد الإنسان و يد غيره من حيوان أو جماد.



المتن

القسم الثالث: من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلًا، لا يليق بالله ﷻ وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله ﷻ.

القسم الثاني ممن ذكرهم المؤلف رحمه الله: الذين جعلوا ظاهر كلام الله ﷻ يفيد التمثيل.

وأمَّا أصحاب القول الثالث: فإنهم جعلوا أيضًا ظاهر آيات الصفات يفيد التمثيل، ولا بد من نفي التمثيل، فذهبوا إلى تعطيلها، بحجة أنَّها غير لائقةٍ بالله، فمنهم من عطَّل مباشرة، ونفى الأسماء والصفات، وهم الجهمية، ومنهم من أثبت الأسماء دون الصفات، وهم المعتزلة، ومنهم من أثبت الأسماء، وبعض الصفات، وحرَّف معظمها، وهم الأشاعرة.

فيتلخص مما سبق:

أن كل معطل ممثل؛ لأنه مثَّل أولًا، ثمَّ عطَّل.

وكل ممثِّل معطل؛ لأنه عطل النصوص الدالة على نفي التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وأيضاً عطَّل الله تعالى عن صفات الكمال اللائقة به فجعلها كصفات المخلوق الناقص.



المتن

وهم أهل التعطيل، سواءٌ كان تعطيلهم عامًّا في الأسماء والصفات، أم خاصًّا فيهما، أو في أحدهما.

فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معانٍ عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطرابًا كثيرًا، وسَمَّوا ذلك تأويلًا، وهو في الحقيقة تحريف.

المعطِّلة إما أن يكون تعطيلهم عامًّا في الأسماء والصفات كالجهمية، أو يكون في الصفات دون الأسماء كالمعتزلة، أو بعض الصفات كالأشاعرة، فهؤلاء وإن كان تعطيلهم متفاوتاً إلا أنهم يُسمَّوْن معطلة.

أمَّا أهل السنة -ولله الحمد- فلم يعطِّلوا؛ لأنهم أثبتوا وآمنوا، ولم يمثِّلوا؛ لأنهم نزَّهوا الله ﷻ عما لا يليق به.

قوله: (**وسمَّوا ذلك تأويلًا**) كقولهم: يد الله أي نعمته أو قدرته، وهذا صرف للنص عن ظاهره، وهذا القول لم يأت في القرآن ولا في السنَّة، وإنما قالوه بمحض عقولهم، ولذلك اضطَربوا في تعيين التأويل اضطرابًا كثيرًا، وهكذا في باقي الصفات.

فمثلًا: يقولون في صفة الاستهزاء: إنها بمعنى إيصال العقوبة أو العقوبة نفسها، ويقولون في صفة الرأفة والمحبة: إنها بمعنى إيصال الثواب أو الثواب نفسه، وهكذا.



المتن

ومذهبهم باطل من وجوه:

أحدها: أنه جناية على النصوص، حيث جعلوها دالة على معنى باطل غيرِ لائق باللهِ، ولا مرادٍ له.

قوله: (**حيث جعلوها دالةً على معنى باطل**)؛لأنهم جعلوا ظاهر النصوص دالًّا على التمثيل، وهذا باطل؛ لأنه جناية على النصوص.

مثال ذلك: إذا سمع المعطل قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾، أو سمع قول النبي ﷺ: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة**»[1]، انتفض وتغيَّر وجهه، وقال: (أعوذ بالله أن أثبت صفة الاستهزاء أو الضحك لله!)، وكأنَّ الذي قال هذا الكلام رجل من آحاد الناس، مع أن الذي قال ذلك اللهُ تعالى عن نفسه في كتابه، وقاله رسوله ﷺ عن ربه ،وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

فالواجب علينا إذا سمعنا كلام الله وكلام رسوله أن نصدق ونؤمن، لا أن نستنكر ونستشكل ،فهذا لا يجوز.



(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٨٢٦)، ومسلم برقم: (١٨٩٠).

المتن

الثاني: أنه صرف لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ عن ظاهره.

والله تعالى خاطب الناس بلسان عربي مبين، ليعقلوا الكلام ويفهموه على ما يقتضيه هذا اللسان العربي، والنبي ﷺ خاطبهم بأفصح لسان البشر؛ فوجب حمل كلام الله ورسوله على ظاهره المفهوم بذلك اللسان العربي؛ غيرَ أنه يجب أن يصان عن التكييف والتمثيل في حق الله عز وجل.

من جناية أهل البدع على النصوص: صرفهم الكلام عن ظاهره بلا دليل ولا برهان، وبلا إذن من الله ورسوله، هكذا من تلقاء أنفسهم، فرأوا أن الظاهر من القرآن لا يليق بالله- كما زعموا- فأخذوا يحرفون بمجرَّد التحكُّم.

هؤلاء المبتدعة تَقَوَّلُوا على الله عز وجل بقولهم: ظاهر النصوص غير مفهوم وغير مراد.

فنقول: كيف يكون كذلك؟ والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَبَ تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾، فهذا الكتاب المبين لو لم يُرِدِ الله عز وجل ظاهرَه من النصوص التي وصف بها نفسه لبيَّن لنا ذلك؛ لأن القرآن تبيانٌ لكل شيء، ولم يأتِ في آية واحدةٍ أَمْرُ العباد بصرف نصوص الصفات عن ظاهرها، لأنَّها لا تليق بالله، بل لو كانت غير لائقة بالله لما وصف الله بها نفسه، وأيضًا لو لم يرد الله ظاهر النصوص لبيَّن لنا ذلك الرسول ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

فعُلِم من ذلك أن ظاهر النصوص- وهو ما يتبادر إلى الذهن- مراد لله سبحانه وتعالى.

فكتاب الله نصوصه واضحة جلية، فكيف يكون قول المعطلة كالأشاعرة وغيرهم هو الهدى والنور، وهم لم يأتوا إلا بعد القرون المفضَّلة؟! هذا لا يمكن أبداً.

المتن

الثالث: أن صرف كلام الله ورسوله عن ظاهره إلى معنى يخالفه، قول على الله بلا علم، وهو محرَّم.

لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ولقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالصارف لكلام الله تعالى ورسوله عن ظاهره إلى معنى يخالفه قد قفا ما ليس له به علم، وقال على الله ما لا يعلم من وجهين:

الأول: أنه زعم أنه ليس المراد بكلام الله تعالى ورسوله كذا، مع أنه ظاهر الكلام.

الثاني: أنه زعم أن المراد به كذا، لمعنى آخر لا يدل عليه ظاهر الكلام.

وإذا كان من المعلوم أن تعيين أحد المعنيين المتساويين في الاحتمال قول بلا علم؛ فما ظنك بتعيين المعنى المرجوح المخالف لظاهر الكلام؟ مثال ذلك: قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾، فإذا صرف الكلام عن ظاهره، وقال: لم يرد باليدين اليدين الحقيقيتين، وإنما أراد كذا وكذا. قلنا له: ما دليلك على ما نفيت؟ وما دليلك على ما أثبت؟

فإن أتى بدليل - وأنَّى له ذلك - وإلا كان قائلاً على الله بلا علم في نفيه وإثباته.

من صرف النصوص عن ظاهرها لمعنى يخالفها فقد تقوّل على الله مرتين بغير علم:

الأولى: لما قال: لم يرد الله ﷻ بالآية ظاهرها.

الثانية: قوله: إنَّما أراد بها كذا وكذا للمعنى الذي قد وضعه.

فمثال الأول: قول ﷻ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ قالوا: لم يرد الله ﷻ باليدين اليدين الحقيقيتين !!

ومثال الثاني: قوله: إنَّما أراد باليدين النعمتين، لما قال الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، فذكر صفة اليد بالتثنية، والمعطلة يقولون: اليد معناها القدرة، وقولهم باطل من وجهين:

الوجه الأول: لو كانت اليد بمعنى القدرة لما قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾، ولقال: بيَدِي، أو بقدرتي، فلا يستقيم تفسيرهم مع التثنية.

الوجه الثاني: لو كان معنى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، أي: بقدرتيَّ لما كان لآدم عليه السلام ميزة على سائر المخلوقات، ولا حتى إبليس؛ لأن كل المخلوقات خلقت بقدرة الله ﷻ، ولقال إبليس: وأنا خلقتني بقدرتك أيضا، لكن إبليس لم يقل ذلك، بينما هؤلاء قالوا -وبكل جرأة-: اليدان معناهما القدرة، والسياق لا يسعفهم لا لفظاً ولا معنىً.

أمَّا اللفظ فقد جاء بصيغة التثنية، وأمَّا المعنى: فلو كانت اليد بمعنى القدرة لما كان لآدم مزيَّة على بقية المخلوقات؛ إذ كلها مخلوقة بقدرة الله ﷻ.

فهذا نصٌّ جلي عظيم، فمن أراد الله به الهداية، وألقى سمعه وهو شهيد؛ علم أن عقيدة السلف هي الحق، وهي إثبات الصفات لله ﷻ على ظاهرها من غير تحريف.

فإذا قال قائل: هل في لغة العرب أن اليد تطلق على النعمة أو على القدرة؟

فالجواب: نعم، لكن لا بد أن يدلَّ السياق على ذلك، كما إذا قال قائل:

لفلان عليَّ يدٌ، حيث إنه أعطاني ، أو نصحني ، فهنا يراد باليد النعمة.

ومِمَّا يدلُّ على ذلك: أنَّ أبا بكر الصديق ﷺ في صلح الحديبية لما تكلم في رجل من المشركين، فنظر إليه ذلك المشرك وقال لأبي بكر: لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك -وكان أبو بكر الصديق ﷺ له فضل على هذا الرجل قديمًا- [1].

والعرب إذا أطلقوا (اليد) وأرادوا بها النعمة يطلقونها مُنَكَّرَة غير مضافة فيقولون : لفلان عليَّ يدٌ، ولا يقولون يد فلانٍ عليَّ.

ومما يمنع تفسير اليد بالقدرة:

أولًا: أنَّ الذي وصف نفسه بأن له يداً هو (الله) ﷻ ،وكذلك وصفه رسوله ﷺ.

ثانياً: أنَّ صفة اليد صفة كمال.

ثالثاً: جاءت كلمة اليد في سياقات تدلُّ على أنَّ المراد بها اليد الحقيقية.

وقد ألقى الشيطان في قلوب أهل البدع شبهةً فظنُّوا أنهم إذا أثبتوا لله يداً لزم من ذلك التمثيل، فقالوا : ليس له يد، وإنما يده نعمته، فنقول لهم: المخلوق أيضاً له نعمة، أليس لأبي بكر يَدٌ على ذلك المشرك؟ يعني: له نعمة على ذاك المشرك إذًا شَبَّهُوا الله ﷻ بالمخلوق الذي له يد بمعنى النعمة، فلا فائدة من ذلك، فسيقولون: يد الله نعمته، ونعمته تليق به لا كنعمة المخلوق، قلنا لهم: قولوا : يد الله حقيقية تليق به لا تماثل أيدي المخلوقين.



(١) أخرج البخاريُّ القصةَ في صحيحه برقم: (٢٧٣١).

المتن

الوجه الرابع: في إبطال مذهب أهل التعطيل: أن صرف نصوص الصفات عن ظاهرها مخالف لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها، فيكون باطلًا؛ لأن الحق -بلا ريب- فيما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه، وسَلَفُ الأمة وأئمتُها.

الوجه الخامس: أن يقال للمعطِّل: هل أنت أعلم بالله من نفسه؟ فسيقول: لا.

ثم يقال له: هل ما أخبر الله به عن نفسه صدق وحق؟ فسيقول: نعم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الوجه الرابع: في إبطال مذهب أهل التعطيل: أن صرف نصوص الصفات عن ظاهرها**)، هذا الصرف نوع من التحريف، التحريف أمر حادث وهذا مما يدل على بطلانه لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ وسلف الأمة، فهم لم يقولوا: (استوى) بمعنى استولى، ولا (يده) بمعنى قدرته أو نعمته، ولكن هذا قيل بعد وفاته ﷺ ، فكيف يكون هذا هو الحق؟ ، لا ريب ولا شك أن الحق مع النبي ﷺ وسلف الأمة، وأما ما خالف ذلك فهو ضلال قطعاً لقول الله تعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ .

قوله: (**الوجه الخامس: أن يقال للمعطِّل: هل أنت أعلم بالله من نفسه؟ فسيقول: لا**)؛ لأنه لو قال: نعم لكفر.

قوله:(**ثم يقال له: هل ما أخبر الله به عن نفسه صدق وحق؟**) لا يستطيع أن يقول: ما أخبر الله به عن نفسه كذب وباطل، ولو قاله لكفر.



المتن

ثم يقال له: هل تعلم كلامًا أفصح وأبين من كلام الله تعالى؟ فسيقول: لا.

ثم يقال له: هل تظن أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُعَمِّيَ الحق على الخلق في هذه النصوص؛ ليستخرجوه بعقولهم؟ فسيقول: لا.

هذا ما يقال له باعتبار ما جاء في القرآن.

أما باعتبار ما جاء في السنة، فيقال له:

هل أنت أعلم بالله من رسوله ﷺ؟ فسيقول: لا.

قوله: (**ثم يقال له: هل تعلم كلامًا أفصح...**)، هل سيقول: نعم الشاعر الفلاني أفصح، أو الأديب الفلاني أفصح، لا يستطيع أن يقول ذلك، بل سيضطر إلى أن يقول: كلام الله تعالى أفصحُ وأبين، ولو زعم أنَّ أحدًا من الناس أفصح كلامًا وأبين من كلام الله لكفر، فلا يوجد أفصح ولا أبين من كلام الله قطعًا.

قوله: (**ثم يقال له: هل تظن أن الله سبحانه أراد أن يُعمِّي...**)، لأن الله سبحانه إنما أراد لعباده الهداية لا الغواية.

قوله: (**هل أنت أعلم بالله من رسوله ﷺ؟ فسيقول: لا**):لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، وهو الصادق المصدوق والأمين على وحي الله عز وجل ودينه.



المتن

ثم يُقال له: هل ما أخبر به رسول الله ﷺ عن الله صدق وحق؟ فسيقول: نعم.

ثم يُقال له : هل تعلم أن أحدًا من الناس أفصَحُ كلامًا وأبين من رسول الله ﷺ؟ فسيقول :(لا)، ثم يقال له: هل تعلم أن أحدًا من الناس أنصح لعباد الله من رسول الله؟ فسيقول: (لا)، فيقال له: إذا كنت تقر بذلك فلماذا لا يكون عندك الإقدام والشجاعة في إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ على حقيقته وظاهره اللائق بالله؟ وكيف يكون عندك الإقدام والشجاعة في نفي حقيقته تلك، وصرفه إلى معنى يخالف ظاهره بغير علم؟ وماذا يضيرك إذا أثبتَّ لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه، أو سنة نبيه على الوجه اللائق به، فأخذتَ بما جاء في الكتاب والسنة إثباتًا ونفيًا؟

أفليس هذا أسلم لك وأقوم لجوابك إذا سئلت يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ أوليس صرفك لهذه النصوص عن ظاهرها، وتعيين معنى آخرَ مخاطرةً منك؟ فلعل المراد يكون على -تقدير جواز صرفها- غيرَ ما صرفتها إليه.

الوجه السادس في إبطال مذهب أهل التعطيل: أنه يلزم عليه لوازم باطلة؛ وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

فمن هذه اللوازم؛أولًا: أن أهل التعطيل لم يصرفوا نصوص الصفات عن ظاهرها إلا حيث اعتقدوا أنه مستلزم أو موهم لتشبيه الله تعالى بخلقه، وتشبيه الله تعالى بخلقه كُفْرٌ؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

قال نُعيم بن حماد الخزاعي- أحد مشايخ البخاري رحمهما الله-: (من شبه الله بخلقه فقد كَفَرَ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا) اهـ.

ومن المعلوم أن من أبطل الباطل أن يـجعل ظاهر كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ تشبيهًا وكفرًا أو موهمًا لذلك.

فهؤلاء عطلوا النصوص وصرفوها عن ظاهرها، والذي دفعهم إلى ذلك هو زعمهم بأن ظاهر النصوص يلزم منه التشبيه، وهذا باطل، إذاً كيف يصف الله تعالى نفسه بما ظاهره التمثيل والتشبيه؟! وهو الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فلو كان ظاهر كلامه يوهم التمثيل لكان في كتاب الله اختلاف، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾.



المتن

ثانيًا: أن كتاب الله تعالى -الذي أنزله تبيانًا لكل شيء، وهدًى للناس، وشفاءً لما في الصدور، ونورًا مبينًا، وفرقانًا بين الحق والباطل-: لم يبيِّن الله تعالى فيه ما يجب على العباد اعتقاده في أسمائه وصفاته، وإنَّما جعل ذلك موكَّلًا إلى عقولهم، يثبتون لله ما يشاؤون، وينكرون ما لا يريدون، وهذا ظاهر البطلان.

ذكرَ المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ اللازم الثاني من قولهم، وهو لا يقرُّ بهذا القول، وإنَّما يقول: يلزم من قوله كذا، وهذا باطل، ويلزم من كون الله عَزَّ وَجَلَّ لم يبيِّن أنه ما أراد الظاهر، أو أراد من الظاهر المعنى الفلاني، فيلزم من هذا أن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يبيِّن لنا، وأوكل الأمر للعقول لتجتهد، ونتقوّل عليه كما نشاء، وهذا الكلام باطل، فالله تعالى لم يتركنا إلى عقولنا حتى نخوض في أسمائه وصفاته، لنقول من تلقاء أنفسنا ما شئنا أن نقول، فهذا لا يمكن أبداً.



المتن

ثالثًا: أن النبي ﷺ وخلفاءه الراشدين وأصحابَه وسلفَ الأمة وأئمَّتها، كانوا قاصرين أو مقصِّرين في معرفة وتبيين ما يجب لله تعالى من الصفات، أو يمتنع عليه، أو يجوز؛ إذ لم يَرِد عنهم حرف واحد فيما ذهب إليه أهل التعطيل في صفات الله تعالى وسمَّوه تأويلًا.

وحينئذ إمَّا أن يكون النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون وسلف الأمة وأئمتنا قاصرين؛ لجهلهم بذلك، وعجزهم عن معرفته، أو مقصِّرينَ لعدم بيانهم للأمة، وكلا الأمرين باطل.

هذا أيضاً من اللوازم التي تلزم من تحريف صفات الله تعالى، فكأنَّ الرسول ﷺ وخلفاءه وسلف الأمة قصَّروا عندما لم يحرِّفوا مثل تحريف هؤلاء.

والحقُّ أنَّهم غير مقصرين في فهم النصوص، وتبليغها، بل أخذوا النصوص على ظاهرها، وبلَّغوها كما أخذوها.



المتن

رابعًا: أن كلام الله ورسوله ليس مرجعًا للناس فيما يعتقدون في ربِّهم وإلههم الذي معرفتهم به من أهم ما جاءت به الشرائع، بل هو زُبدة الرسالات، وإنَّما المرجع تلك العقول المضطَربة المتناقضة، وما خالفها فسبيله التكذيب إن وجدوا إلى ذلك سبيلًا، أو التحريف -الذي يسمونه تأويلًا- إن لم يتمكَّنوا من تكذيبه.

ما ذكره المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هو لازم كلامهم، أي: يلزم من كلامكم - إن أنتم حرفتم من تلقاء أنفسكم - أن كلام الله تعالى وكلام الرسول ﷺ في أعظم أبواب الإيمان؛ وهو الإيمان بأسمائه وصفاته ليس مرجعًا، إنَّما المرجع عقولكم وتأويلكم.



المتن

خامسًا: أنه يلزم منه جوازُ نفي ما أثبته الله ورسوله، فيقال في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: إنه لا يجيء.

وفي قوله ﷺ: «ينزل ربُّنا كل ليلة إلى السماء الدنيا، إنه لا ينزل؛ لأن إسناد المجيء والنزول إلى الله مجاز عندهم.

هذا لازمٌ قويٌّ جدًّا، الذين يعطلون، أو يحرِّفون ثم يعطِّلون، يلزم من كلامهم نَفيُ ما أثبت الله لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، وفي الحقيقة أنهم كَذَبوا على الله، فالله يقول: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، فهم إذا أوَّلوا هذه الآية وعطَّلوا الله عن صفة المجيء، وقالوا: إن الله لا يجيء، مع أن الله ﷻ هو الذي قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وهو أعلم بنفسه من خلقه، فكيف يجترِئ هذا المعطل أو ذلك المحرِّف فيقول: الله لا يجيء؟ وهل سيكون له مخرج ومَخْلص يوم القيامة، إذا سأله الله ﷻ لماذا قلت هذا؟

بينما السُّنِّي لو قال: الله يجيء، فإذا أوقفه الله يوم القيامة وقال له: عبدي لـمَ قلت عني: إني أجيء؟ فما جواب السُّنِّي؟ جوابه أن يقول: يا رب قرأت كتابك في سورة الفجر ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، فلا زدتُ ولا أنقصتُ، فقلت: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، فهل يَسْلمُ أو لا يَسْلمُ؟

وهذا كما هو في الأخبار كذلك في الأحكام لو سُئِلت: لماذا تصلي الصلوات الخمس؟ لقلتَ: لأن الله تعالى فرض عليّ الصلوات الخمس.

ولو سئلت لماذا تقول: إن الخمر حرام؟ لقلت: لأن ربَّ العالمين حرَّمها فقلتُ: إنَّها حرام.

فباب الأخبار مثل باب الأحكام، كما أنَّه لا يجوز أن تتقوّل على الله، فتحلِّل ما حرَّم الله، أو تحرِّم ما أحلَّ الله، أو توجب على الناس ما لم يوجبه الله ﷻ، كذلك الأخبار لا نثبتُ إلَّا ما ثَبَت، ولا ننفي إلا ما نُفِي، وما لم يأتِ إثباته ولا نفيه نمسك عنه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**قوله ﷺ: «ينزل ربُّنا ...»**)، قال أهل البدع: (إنَّه لا ينزل)، وهذا نفي للصفة، ويلزم من قولهم: (لا ينزل) أيضًا نفي ما أثبته الرسول ﷺ.



المتن

وأظهر علامات المجاز عند القائلين به صحة نفيه، ونَفْيُ ما أثبته الله ورسوله من أبطل الباطل، ولا يمكن الانفكاك عنه بتأويله إلى أمره؛ لأنه ليس في السياق ما يدل عليه.

قسَّم علماء البلاغة الكلام إلى حقيقة ومجاز، وذكروا أن من أظهر علامات المجاز أنه ما صحَّ نفيه، مثلًا شخص لديه ابن من أبنائه سريع، فقال: عندي في البيت غزال، هذا مجاز بدليل أنك تستطيع أن تنفي، وتقول: ليس عندك غزال، فإذا ذهبت إلى البيت وبحثت فلن تجد غزالاً، وإنما قصد بذلك ابنه السريع، فالمجاز هو ما صح نَفيه.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أردنا أن نطبِّق تعريف المجاز على القرآن فإنه لا يصحُّ، إذ لا يوجد في القرآن مجاز؛ لأنه ليس في القرآن شيء يصحُّ نفيه، بل كل ما في القرآن يجب إثباته؛ لأن الذي قاله هو الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف ننفي شيئًا قاله الله عَزَّوَجَلَّ؟!

لكن قد يشكِل حينئذ، ويقولون: هناك أشياء في غاية الوضوح أنها مجاز، وإلا فما المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ ؟ هل للإنسان جناح حتى يخفضه؟

وما المقصود بقوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾، فما الذي يُعْصَر: العنب، أم الخمر؟ العنب؛ أليس هذا مجازًا؟

وقوله تعالى: ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ ،والجدار لا إرادة له؟

وقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ،ولو سألت القرية ما أجابتك؟

أليست هذه من المجازات التي توجد في القرآن؟

فكيف يقال: لا يوجد مجاز في القرآن؟

الجواب: قلنا لا مجاز؛ لأن من علامات المجاز: صحة نفيه، وكتاب الله ﷻ ليس فيه شيء يصح نفيه؛ لأنك لا تستطيع أن تقول عن كلام الله: إنَّه كَذِبٌ، ولا يمكن وصف الله ﷻ بذلك، و الله يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾، فلما كان كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ لا يصحُّ نفيه إذًا لا مجاز فيه.

وأمَّا الأمثلة التي ضربوها فحقيقة الكلام هو ما تبادر إلى ذهن السامع، فإذا قال قائلٌ: يا فلان اعتنِ بابني، فيقول له: حسنًا سأعتني به وأضعه في عيني.

فتفهم منه أنه سيحرص عليه ويحفظه، ولا يمكن أن يتبادر لذهنك أن قوله: (أضعه في عيني)، أنه سيضعه في عينه بذاته، لا أحد يفهم هذا، بل الذي يتبادر إلى الذهن أنه سيهتمُّ به، ولا يمكن أن يقصد المتكلم من هذا الكلام بأنه سيضع شخص الابن في عينيه.

إذًا ما حقيقة قوله ﷻ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾، أو قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾؟

الجواب: المتبادر إلى الذهن ومقصود كلام الله تعالى هو الحقيقة، فالعرب يعبِّرون عن القوي بأنه أسد، وعن الواسع بأنه بحر، وعن السريع بأنه غزال، وعن الجميل بأنه قمر، وهكذا، فهذا كله من الحقيقة لا مجاز فيه، وحقيقة الكلام: هو المعنى الذي أراده المتكلم، والمعنى الذي يفهمه المستمع، فهذه هي حقيقة الكلام.



المتن

ثم إن من أهل التعطيل من طَرَدَ قاعدته في جميع الصفات، أو تعدَّى إلى الأسماء أيضًا.

ومنهم من تناقض فأثبت بعض الصفات دون بعض.

أي: ومن أهل التعطيل مَن قال: كل صفات الله مجاز، إذًا ليس لله صفة، وهم المعتزلة، وبعضهم تعدَّى وقال: ولا أسماء، وهم الجهمية.

قوله: (**ومنهم من تناقض...**)، وجه تناقضهم أنَّهم يثبتون بعض الصفات وينفون نظيرها، وهنا نلاحظ أن المعتزلة -وهم أسوأُ حالًا من الأشاعرة- اطَّردوا في قاعدتهم أكثر من الأشاعرة، فالأشاعرة أثبتوا بعض الصفات، ونفوا أكثرها.

قالت المعتزلة: إنَّنا إذا أثبتنا الصفات لزم من إثباتها تمثيل الخالق بالمخلوق، هذه شبهتهم، وهي باطلة بلا شك،والأشاعرة يثبتون بعض الصفات، ويقولون: نثبتها على الوجه اللائق بالله، بينما ينفون غيرها من الصفات؛ ويقولون: يلزم من إثباتها تمثيل الخالق بالمخلوق.

وإذا قيل لهم: لماذا أثبتم بعض الصفات ونفيتم غيرها؟ قالوا: حتى لا نمثل الخالق بالمخلوق، فإذا قال لهم أهل السنة: ولماذا أثبتم بعض الصفات التي أثبتموها؟ قالوا: أثبتناها على الوجه اللائق بالله، فيقول أهل السنة لهم: هذا تناقض، فإمَّا أن تنفوا كلَّ الصفات، أو تثبتوها كلها.



المتن

كالأشعريةِ والماتريدية: أثبتوا ما أثبتوهُ بحجة أن العقل يدل عليه، ونفوا ما نَفَوْه بحجة أن العقل ينفيه أو لا يدلُّ عليه.

أثبت جمهور الأشاعرة لله ﷻ سبع صفات، وبعضهم يثبت أكثر من ذلك، ولم يثبتوها لأن الله أثبتها لنفسه في كتابه، أو لأن رسوله ﷺ أثبتها لربِّه في سنَّته، بل لأنَّ العقل دَلَّ عليها، فإنهم نظروا إلى هذا العالَم فقالوا: لا يمكن أن يكون الذي خلقه ميتاً، بل لابد أن يكون حيًّا، فقالوا: إذاً الله ﷻ حيٌّ، فالصِّفة الأولى صفة الحياة.

الصفة الثانية: قالوا لا يمكن أن يكون خالق هذا الكون العظيم لا عِلْمَ له؛ إذ لو لم يكن عالمًا لما استطاع أن يَخْلُق، إذًا الله ﷻ عليم، فأثبتوا صفة العلم.

الصفة الثالثة: نظروا إلى هذا الخلق العظيم، فقالوا: لا يمكن أن يكون الذي خلقه عاجزاً؛ إذ لو كان عاجزًا ما استطاع أن يَخْلُق، فلابد أنه ذو قدرة، فأثبتوا صفة القدرة.

الصفة الرابعة: تأمَّلوا في هذا العالَم، فوجدوا أنه متفاوت، فخَصَّ بالطول، والقِصَر، والحياة، والموت، فلو لم يكن لله ﷻ إرادة يخص بها ما شاء مَن خلقه -فيعطي هذا ويمنع هذا- لما كان هذا التفاوت موجوداً في المخلوقات، فالتخصيص يدل على أن الله مريدٌ، فأثبتوا صفة الإرادة.

الصفة الخامسة، والسادسة، والسابعة، قالوا: من كمال الحيِّ العليم القدير المريد أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا، فأثبتوا صفات السمع، والبصر، والكلام. هذه الصفات السبع يثبتها جمهور الأشاعرة، وزادت الماتريدية صفة التكوين.

وقالوا: إنَّ العقل لا يثبت إلا هذه الصفات، وهذا باطل، بل العقل يثبت صفات كثيرة غير تلك الصفات السبع، كما سيبيِّن المؤلِّف رحمه الله.

المتن

فنقول لهم: نَفْيُكم لما نفيتموه بحجة أن العقل لا يدلُّ عليه يمكن إثباتُهُ بالطريق العقلي الذي أثبتُّم به ما أثبتُمُوهُ كما هو ثابت بالدليل السمعي.

نستطيع أن نصف الله ﷻ بصفات أخرى غير السَّبع باستعمال طريقتكم العقليَّة، فذكر المؤلف رحمه الله -ردًّا على المعطلة- ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيميَّة في التدمرية بقوله: إن ما نفيتموه هو نظير ما أثبتموه، فقولوا في صفة الرحمة مثلما قلتم في صفة الإرادة، فكما أن العقل يدل على الإرادة، فهو كذلك يدل على الرحمة، ولو فُرِضَ أن العقل لا يدل على إثبات صفة الرحمة، فإنه لا ينفيها، مع أن العقل يثبت صفة الرحمة ، ويوافق السمعَ أي:الكتاب والسنة، فصارت صفة الرحمة ثابتة لله ﷻ بدلالة السمع، و العقل، فلماذا لا نثبتها لله ﷻ؟! قالوا: كلامك صحيح، لكن إذا أثبتناها لله مثلناه بالمخلوق قلنا لهم: أنتم متناقضون كما قال المؤلِّف: تثبتون بعض الصفات وتنفون نظيرَها، فماذا ستقولون في الصفات التي أثبتموها؟ فسيقولون: نثبتها على الوجه اللائق بالله ﷻ ولا تماثل صفات المخلوقين، قلنا لهم: وما نفيتموه لماذا لا تثبتونه على الوجه اللائق بالله ﷻ، والذي لا يماثل صفات المخلوقين؟ ثم إنكم أيها الأشاعرة إذا التقيتم بالمعتزلة، وقالوا لكم: لماذا تثبتون سبع صفات، إذ يلزم من إثباتها مماثلة المخلوق؟ سيقول الأشاعرة: هذه الصفات السبعة تليق بالله ،وإثباتها لا يلزم منه مماثلة المخلوقين، وأهل السُّنة وهم يستمعون للنقاش بين المعتزلة والأشاعرة قالوا: والله إنكم متناقضون أيها الأشاعرة، نحن نقول لكم ما تقولونه للمعتزلة أثبتوا الصفات كُلَّها على الوجه اللائق بالله ﷻ، من غير تمثيل بصفات المخلوقين، فنحن نحتجُّ على الأشاعرة فيما نفوه بحجتهم التي احتجوا بها على المعتزلة فيما أثبتوه، فقد أثبتوا سبع صفات وخالفوا المعتزلة،

مع قولهم: إن إثباتها لا يلزم منه مماثلة المخلوقين، قلنا لهم: ونحن نثبت كلَّ الصفات التي نفيتموها وحرَّفتموها، ونقول لكم كما تقولون للمعتزلة: إنَّها تليق بالله، ولا تماثل صفات المخلوقين.

فإذا قال الأشعريُّ: لكن أنتم تقولون: الله يغضب ويَسخط، والغضب معناه ارتفاع ضغط الدم، واحمرار الوجه، فهل يليق بالله أن يغضب؟ نقول:

أولاً: إن الله ﷻ وصف نفسه بصفة الغضب فقال في كتابه: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، وهو أعلم بنفسه، فلو كان غير لائق بالله لما وصف به نفسه.

ثانيًا: لماذا تقولون: الغضب ارتفاع ضغط الدم... إلى آخره، وهل كُلُّ مَنْ غضب ماثل غَيرَهُ في غضبه؟ الجواب: لا، فإذا كانت المخلوقات تتفاوت في غضبها، فلماذا لا يقال: إن الله ﷻ يغضب غضبًا يليق به، لا يماثل غضب المخلوقين؟



المتن

مثال ذلك: أنهم أثبتوا صفة الإرادة، ونفوا صفة الرحمة.

أثبتوا صفة الإرادة لدلالة السمع والعقل عليها.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

وأما العقلُ: فإن اختلاف المخلوقات، وتخصيصَ بعضِها بما يختص به من ذاتٍ أو وصف دليل على الإرادة.

ونفوا الرحمة؛ لأنها تستلزم لين الراحم ورقَّتَه للمرحوم، وهذا محالٌ في حق الله تعالى، وأوَّلوا الأدلة السمعية المثبتة للرحمة إلى الفعل أو إرادةِ الفعل، ففسروا الرحيم بالمُنْعِم أو مريد الإنعام.

فنقول لهم: الرحمة ثابتةٌ لله تعالى بالأدلة السمعيَّة، وأدلةُ ثبوتِها أكثرُ عددًا وتنوعًا من أدلَّة الإرادة، فقد وردت بالاسم مثل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والصفة مثل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، والفعل مثل: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾.

ويمكن إثباتُها بالعقل، فإن النعمَ التي تترى على العباد من كلِّ وجه، والنقمَ التي تُدفع عنهم في كل حين دالةٌ على ثبوتِ الرحمة لله ﷻ، ودلالتها على ذلك أَبْيَن وأجلى من دلالة التخصيص على الإرادة؛ لظهور ذلك للخاصة والعامة، بخلاف دلالة التخصيص على الإرادة، فإنه لا يظهر إلا لأفراد من الناس، وأمَّا نفيها بحجة أنها تستلزم اللين والرِّقة؛ فجوابه: أن هذه الحجةَ لو كانت مستقيمةً لأمكن نفي الإرادة بمثلها، فيُقال: الإرادة ميل المريد إلى ما يرجو به حصولَ منفعةٍ أو دفع مضرةٍ؛ وهذا يستلزم الحاجةَ، والله تعالى مُنزَّه عن ذلك.

فإن أجيب: بأن هذه إرادة المخلوق أمكن الجواب بمثله في الرحمة بأن الرحمة المستلزمةَ للنقص هي رحمة المخلوق.

السمع: هو النقل، وسُمِّيت الأدلة سمعيَّة لأنها تُسمع، مثل حدَّثنا وأخبرنا، وتسمى أدلة نقلية أيضا؛ لأنها تُنقلُ.

وأثبت الأشاعرة صفة الإرادة لله ﷻ عن طريق التخصيص، أي أنه ﷻ جعل صفات المخلوقين متباينة كالطول، والقِصَر، والفقر، والغنى فكل مخلوق له صفات تختص به، فالتخصيص دليل على أنَّ الله ﷻ ذو إرادة، فلو أن الإنسان لم يتعلَّم هذه الطريقة العقلية التي ذكروها، ما استطاع أن يستنبط - عقلًا - صفة الإرادة لله ﷻ.

أما صفة الرحمة: فلو سألْتَ أي مسلم، صغيرًا كان أم كبيرًا ،فإنه يستطيع أن يُثبتَ لله ﷻ صفةَ الرحمة بالدليل العقلي فيقول: إنه ﷻ خَلَقَنا ،ورزقنا، وأنزل الأمطار، وأنعم علينا بالسمع والأبصار، كلُّ الناس يدركون بأننا نعيش برحمة الله، نحن لا نستغني عن رحمة الله طَرْفة عين.

وصفة الرحمة ثابتةٌ لله بدليل السمع، فهي مذكورةٌ في كتاب الله ﷻ، بأكثر من صيغة، فقد سمَّى الله نفسَهُ الرحمن الرحيم، ووصف نفسه بأنه ذو رحمة، وأرحم الراحمين، ويرحم، وكتب على نفسه الرحمة، وغير ذلك، فالأدلة السمعية تدل على إثبات صفة الرحمة، وكذا الأدلة العقلية دلت على إثبات صفة الرحمة، فكيف يُحرِّفون صفة الرحمة ويقولون: إنها لا تليق بالله؟ والله ﷻ يَحْمد بها نفسه، ويُثْني بها على نفسه، وحجَّتهم في ذلك أن الرحمة فيها ضعف، فهي صفة للمخلوق، جعلها الله في قلوب عباده غير لائقة بالله، ولذلك دمعتْ عينُ النبيِّ ﷺ لوفاة ابن ابنته ، فقال بعض الصحابة: ما هذا يا رسولَ الله، تدمع عيناك؟

قال ﷺ: «**هذه رحمة وضعها اللهُ في قلوب مَنْ شاء مِن عباده**»[١]

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٥) ،و مسلم (٩٢٣).

قال الأشاعرة: الرحمةُ التي في القلوب تجعل العيون تَدمع، فإذا قلنا: إن الله يتصف بالرحمة، فيلزم من ذلك حصولُ آثارها من ضعف القلب، ودمع العين، وهذا لا يليق بالله، قلنا لهم: والإرادة يقال فيها ما يقال في الرحمة، فإن مِن لوازم الإرادة: ميلُ القلب لجلب ما ينفع، ودفعِ ما يضر، فإذا قالوا: لله ﷻ إرادة تليق به، قلنا لهم: وكذا له رحمة تليق به، وكيف يأتي في أذهان هؤلاء أن إثبات صفة الرحمة لله ﷻ يلزم منها مماثلة المخلوق؟! فهذه رحمة تليق بحال الإنسان، وأما رحمة الله فقد وسعت كُلَّ شيء.

والقاعدة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أن القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر؛ ولذلك المعتزلة والجهميَّة أكثر انحرافًا من الأشاعرة، لكنهم مطَّردون في عقائدهم المنحرفة، فنفوا الصفات كُلَّها؛ لأن إثبات الصفات عندهم يستلزم التمثيل، فقالوا: ليس لله صفات، بينما الأشاعرة قالوا: لله صفات، وإثباتها لا يستلزم التمثيل، وإذا بهم ينفون صفات أخرى هي أجْلَى وأوضح، وأكثر ذِكْرًا في كتاب الله؛ فالله ﷻ ما سَمَّى نفسَه المريد، بينما سمَّى نفسَهُ الرحمن الرحيم، ولم يَصِف نفسه بأنه ذو إرادة، بينما قال عن نفسه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، فذكر عن نفسه أنه ذو رحمة، وتَوافقَ ذِكْرُ الإرادة بالفعل كَذِكرِ الرحمة، فقال: يريد، وقال: يرحم، فمن كلمة (يريد) أثبتم الإرادة، ومن كلمة الرحمن، والرحيم ،وذو رحمة، ويرحم نفيتم الرحمة!!

قالوا: لكن العقل دل على صفة الإرادة بالتخصيص، قيل لهم: وكذلك العقل يدلُّ على صفة الرحمة، بل دلالة العقل على صفة الرحمة أوضح من دلالته على صفة الإرادة؛ فالواقع الذي نشاهده ما له من دافع، من رحمة الأم بابنها؛ لأن الذي خَلَقَ الرحمة في قلب الأم هو الله ﷻ، ونحن لا نستطيع أن نستغني عن رحمة الله طَرْفَةَ عين فإنه سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، لولا رحمة

الله ﷻ ما أمسك السماء، ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴾، يعني: ستقع على الأرض يوم القيامة، فمثلًا: الطائرة تحمل أطناناً من البشر والأمتعة مع وزنها، ومع ذلك تطير في الهواء؛ هذا من آثار رحمة الله، ﴿ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ ﴾، فينزل الله عليها الغيثَ من السماء، ﴿ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾، ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾، فصفة الرحمة لا يستطيع أن ينكرها أحدٌ، ومن أنكرها فقد خالف الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، والحس.

تنبيه: رقة القلب ليست هي الرحمة، وإنما هي من آثار الرحمة، وكذلك ميل القلب ليس هو الإرادة، وإنما ذلك من آثار الإرادة.

نفى الأشاعرة صفة الرحمة عن طريق التحريف؛ لأنه من الممكن أن تأتي إلى أشعري فتقول له: هل صحيح أنكم تنفون صفة الرحمة؟ فيقول: لا، من الذي قال ذلك؟ لأنه لا يوجد إنسان ينكر رحمة الله ﷻ، وليس من المعقول أن يقرأ الأشعري قول الله ﷻ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، و﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ ﴾، ويقول: ليس لله رحمة، لكنه يقول: الرحمة معناها الثواب أو إرادة إيصال الثواب للمرحوم، فالنتيجة أن الله ﷻ ليس له رحمة، ولذلك عندهم الرحمة، والرأفة، والمغفرة، ونحو هذه الصفات معناها واحد، وهو إرادة إيصال الثواب للمرحوم، أو الثواب نفسه، وإنما أوَّلوها كلَّها إلى صفة الإرادة؛ لأنهم يثبتون الإرادة، ونظير ذلك صفات الغضب والسخط والانتقام، كلُّ هذه الصفات عندهم معناها: العذاب أو إرادة الله إيصال العذاب للمعذَّبين، والنتيجة: أن الله ﷻ لا رحمة له، وأن معنى الرحمة: الإرادة؛ فهم وإن زعموا أنهم يثبتون الرحمة ويؤمنون بها، لكنهم في الحقيقة بهذا التحريف لا يثبتونها.



المتن

وبهذا تبيَّن بطلان مذهب أهل التعطيل، سواء كان تعطيلًا عامًّا أو خاصًّا، وبه علم أن طريق الأشاعرة والماتريدية في أسماء الله وصفاتِه، وما احتجوا به لذلك لا تندفع به شبه المعتزلة والجهمية، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه طريق مبتَدَع لم يكن عليه النبيُّ ﷺ ولا سلفُ الأمة وأئمتُها، والبدعة لا تدفع بالبدعة، وإنما تُدفع بالسُّنَّـة.

الثاني: أن المعتزلة والجهمية يمكنهم أن يحتجُّوا لما نفوه على الأشاعرة والماتريدية بمثل ما احتج به الأشاعرة والماتريدية لما نفوه على أهل السنة.

تحكيم العقل على النصوص فَتَحَ بابَ شرٍّ وبلاء على الأمة، فالمعتزلة قالوا: عقولنا تثبت أسماء الله وتنفي صفاته.

والجهمية قالت: إن عقولنا لا تثبت أسماء الله ولا صفاته، وليست عقولكم أيها الأشاعرة بأولى من عقولنا.

وقالت الفلاسفة: عقولنا لا تدلُّ على النبوة، ولا الرسالة، وأما الأنبياء والرسل فهم ناسٌ وَجدوا في أقوامهم قتلاً وسلباً ونهباً ،فقالوا: لكي نمنع القتل والسلب والنهب وغير هذا من المساوئ، ونخرج مجتمعاً صالحًا، يخرج أحدنا ويقول: إنَّه نبيٌّ، أو رسول عنده رسالة، فما دام أن المسألة مبناها على العقول فعقولكم ليست بأولى من عقولنا.

وقال أهل السنَّة: ذروا العقول التي ليس بعضها أولى من بعض، وحكِّموا الكتاب والسنة، فالله في علم الغيب، ولا نحيط به علمًا، فلا نثبت له إلا ما أثبت

لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله ﷺ في سنته، وهكذا نكون قد نصرنا الحق وأغلقنا باب الباطل، وقطعنا الطريق على أهله، وأما الاحتجاج بالعقل وتحكيمه على الكتاب والسنة فطريق مبتدع وباب لأهل الباطل.



المتن

فيقولون: لقد أبحتم لأنفسكم نفيَ ما نفيتم من الصفات بما زعمتموه دليلًا عقليًّا، وأوَّلتم دليله السمعيَّ، فلماذا تحرِّمون علينا نفي ما نفيناه بما نراه دليلًا عقليًّا، ونُؤول دليله السمعيَّ، فلنا عقول كما أن لكم عقولًا، فإن كانت عقولنا خاطئة، فكيف كانت عقولكم صائبة؟!

وإن كانت عقولكم صائبة، فكيف كانت عقولنا خاطئة؟! وليس لكم حجَّة في الإنكار علينا سوى مجردِ التحكُّم واتباع الهوى.

وهذه حجة دامغة وإلزام صحيح من الجهمية والمعتزلة للأشعرية والماتريدية، ولا مَدفَع لذلك ولا محيص عنه إلا بالرجوع لمذهب السلف الذين يطرُدون هذا الباب، ويثبتون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ إثباتًا لا تمثيل فيه، ولا تكييف، وتنزيهًا لا تعطيل فيه، ولا تحريف، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

تنبيه: عُلِمَ مما سبق: أن كُلّ معطِّل ممثِّل، وكُلَّ ممثِّل معطِّل.

أما تعطيل المعطل فظاهرٌ، وأما تمثيله؛ فلأنَّــه إنما عطَّل لاعتقاده أن إثباتَ الصــفاتِ يســتلزم التشــبيه فمثَّل أولًا، وعطل ثانيًا، كما أنه بتعطيله مثَّلَه بالناقص.

الذي دفع المعطِّل للتعطيل هو وقوعه في التمثيل، فقد ظن أن في إثبات الصفات تمثيلاً للخالق بالمخلوق، فأراد الهروب من التمثيل الذي وقع في قلبه، فعطَّل الله ﷻ عن صفاته، ولـمَّا عطَّل الله عن صفاته التي هي صفات الكمال مثَّله بالناقص عن الكمال، فوقع في التمثيل مرَّتين، الأولى :عندما أثبت الصفات، ووقع في قلبه أن إثبات الصفات يستلزم التمثيل، فعطَّل هروبًا من التمثيل ، والثانية: عندما مثَّل الخالق الكامل بصفاته من كل وجه بالمخلوق الناقص بصفاته من كل وجه.

المتن

وأما تمثيل الممثِّل فظاهر.

وأما تعطيله فمن ثلاثة أوجه:

الأول: أنه عطَّل نفسَ النص الذي أثبت به الصفة، حيث جعله دالًّا على التمثيل، مع أنه لا دلالة فيه عليه، وإنما يدلُّ على صفة تليق بالله ﷻ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**تمثيل الممثل ظاهر**)، كقول اليهود: إن الله ﷻ فقير، وقولهم: إن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صارع اللهَ فغلبه، وقولهم: يد الله مغلولة، فكل هذا تمثيل ظاهر.

قوله: (**الأول: أنه عطَّل نفسَ النص**)، أي أن الممثِّل عطَّل نصوص الصفات الثابتة لله ﷻ، أي: عطَّل دليلها، فمثلاً قول الله ﷻ: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾، وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، قال المعطِّل: (الله لا يغضب)، فلم يجعلها دالة على صفةٍ لائقةٍ بالله، وإنما جَعَلَها دالةً على صفةٍ تماثل المخلوق.



المتن

الثاني: أنه عطَّل كُلَّ نصٍّ يدل على نفي مماثلة الله لخلقه.

الثالث: أنه عطَّل اللهَ تعالى عن كماله الواجب حيث؛ مثَّله بالمخلوق الناقص.

النوع الثاني من أنواع التعطيل: تعطيل النصوص التي تدل على نفي مماثلة الخالق للمخلوق كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾،فهذه وغيرها من النصوص عطَّلها الممثِّل، ولم يُعملها.

والنوع الثالث من أنواع التعطيل: تعطيل الله عن كماله الواجب، وجَعْله مثل المخلوق الناقص، فالخلاصة أن الممثِّل عطَّل في ثلاثة أمور:

١ .عطَّل النصوص الدالة على الصفات على الوجه اللائق بالله ﷻ.

٢ .عطَّل النصوص النافية للتمثيل.

٣ .عطَّل اللهَ ﷻ فيما يعتقد بقلبه -وإلا فالله لن يتعطَّل-، فجعل صفاته الكاملة كصفات المخلوق الناقصة.



المتن

فَصلٌ: اعلم أن بعض أهل التأويل أورد على أهل السنة شبهةً في نصوص من الكتاب والسنة في الصفات، ادَّعى أنَّ أهلَ السنة صرفوها عن ظاهرها؛ ليُلزم أهل السنة بالموافقةِ على التأويل أو المداهنةِ فيه.

يقول أهل البدع لأهل السنة: إمَّا أن توافقونا، أي: تؤولون كما نؤول، أو تداهنونا، أي: تسكتون عنا، فلا تقولوا: مُحرِّفة، فكونوا على إثباتكم للصفات، ونحن نبقى على تأويلها، وكلٌّ يعذر الآخر بما يعتقد.

وأيضاً أهل البدع دائمًا يدّعون أنَّهم من أهل السنة والجماعة، فلو سألت الأشاعرة والماتريدية: مَنْ أهل السنَّة والجماعة؟ لقالوا لك: أبو الحسن الأشعري، و أبو منصور الماتريدي، ويقولون: إن أهل السنة على مذهبين، ولا ينكر أحدٌ على أحدٍ، ولذلك قالوا: مذهب السَّلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم؛ لأنهم لا يتجرَّؤون أن يقولوا: إن مذهب السلف باطل، ولذلك تراهم يُسَمُّونَ أهل السنة بالمجسمة، والحشوية، والمشبهة؛ لمزًا لهم.

فائدة:

الأشاعرة والماتريدية بينهم خلاف شديد، فقد لا يصلي بعضهم خلف بعض، وقد يُكفر بعضهم بعضًا لكنَّهم يتظاهرون بأنَّهم متفقون ويمثِّلون أهل السنَّة.



المتن

وقال: كيف تنكرون علينا تأويلَ ما أوَّلناه مع ارتكابكم لمثله فيما أَولتُمُوهُ؟

ونحن نجيب -بعون الله- عن هذه الشبهة بجوابين: مجملٍ، ومفصلٍ.

أما المجمل: فيتلخص في شيئين:

أحدهما: أن لا نُسَلِّم أن تفسير السلف لها صرف عن ظاهرها، فإن ظاهر الكلام ما يتبادر منه من المعنى.

وهو يختلف بحَسَبِ السياق، وما يضاف إليه الكلام، فإن الكلماتِ يختلف معناها بحسبِ تركيب الكلام، والكلام مركَّب من كلماتٍ وجملٍ، يظهر معناها ويتعيَّن بضمِّ بعضها إلى بعض.

أولاً: السلف لم يصرفوا الكلام عن ظاهره، وإنَّما أثبتوا المعنى المتبادر إلى الذهن.

ثانيًا: أن العرب يتكلَّمون بكلمات مركَّبة لا مفردة، والكلمات المفردة لا يقال عنها كلام حتى يُضمَّ بعضها إلى بعض وتصاغ في جُمَلٍ، فحينئذٍ تكون الجمل مفيدة ولها معنًى.

مثال: لو قال قائل: محمد، فهذا لا يُعَدُّ كلاماً حتى يوضع هذا الاسم في جملة ولو تقديراً، مثل أن يسأل أحدٌ: مَن حضر الدرس؟ فتقول: محمدٌ، أي: حضر محمدٌ الدرس، وأيضاً الكلمات يختلف معناها باختلاف السياق، فهناك كلمات لها معانٍ عدة، والسياق يحدد المعنى المراد منها.

مثل كلمة عين: كلَّما وضعتها في جملة اختلف معناها، فتقول: رأيته بعيني،

وهذا ليس كقولك: شربت من العين، وليس مثل: جاء محمد عينه، وليس كقولنا: أرسل الملك عيونه.

فكلمة (عين) في كلِّ جملة من الجمل الأربعة يختلف معناها لاختلاف السِّياق.

فإذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، أي: تبقى ذات الله ﷻ.

فإن قال قائل: أنتم أوَّلتم.

قلنا له: لم نؤوِّل، وإنما هذا هو المعنى المتبادر من السياق، فالله تعالى يبقى بعد فناء مَنْ في السماوات والأرض، والآية فيها إثبات صفة الوجه لله تعالى موصوفاً بالجلال والإكرام خلافًا لأهل البدع.

ولذلك لو قال قائل: عفوت عنك إكراماً لوجه هذا الرجل، فالمعنى المتبادر للذهن هو أنه عفا عنه إكراماً لهذا الرجل بشخصه، ويُفهم منه أن للرَجل وجهاً؛ لأنه لو لم يكن لهذا الرجل وجه لم يقل لوجه هذا الرجل.

فأهل البدعة يتفقون مع أهل السنة أن الذي يبقى هو الله، لكن أهل السنة مع هذا يثبتون أن لله ﷻ وجهاً بدليل هذه الآية، بينما أهل البدعة لا يثبتون ذلك، فالسلف لم يصرفوا الكلام عن ظاهره، وإنَّما هذا هو ظاهر الكلام وهو المعنى المتبادر إلى الذهن.



المتن

ثانيهما: أننا لو سلَّمنا أن تفسيرَهم صرفٌ لها عن ظاهرها، فإن لهم في ذلك دليلًا من الكتاب والسنة، إما متصلًا وإما منفصلًا، وليس لمجرَّد شبهات يزعمها الصارف براهينَ وقطعيَّاتٍ يَتوصلُ بها إلى نفي ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

يعني: لو قلنا بالتأويل، فالتأويل تأويلان: تأويل حق، وتأويل باطل.

أما التأويل الحق: فهو صرف النص عن ظاهره بقرينة دلَّت عليه، إمَّا موجودة في النص نفسه، وإمَّا موجودة في نص آخر.

وأما التأويل الباطل: فهو صرف النص عن ظاهره من غير دليل، ولا بيِّنة، ولا سياق يدل على ذلك، وإنَّما تبعاً للهوى، وتقليداً وتعصُّباً لمذاهب درسوها ونشأوا عليها.

ولذلك نقول عن تأويل المؤولةِ تحريفٌ، وذلك لأسباب:

أوَّلاً: لأن الله تعالى سماه تحريفاً في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ولم يقل: يؤوِّلون.

ثانياً: لأنه في حقيقته تحريف، وليس تأويلاً.

ثالثاً: لأن التأويل منه ما هو حَقٌّ، ومنه ما هو باطل، أمَّا التحريف فكله باطل مذموم.

رابعاً: لأن هذا أدْعى للتنفير منهم، إذا قيل: هؤلاء المحرفة بخلاف لو قلنا: هؤلاء المؤوِّلة.



المتن

وأما المُفَصَّلُ فعلى[١] كل نص ادُّعِيَ أن السلف صرفوه عن ظاهره.

ولنمثِّل بالأمثلة التالية، فنبدأ بما حكاه أبو حامد الغزَّاليُّ عن بعض الحنبلية أنه قال: إن أحمد لم يتأوَّل إلا في ثلاثة أشياء: «الحجرُ الأسودُ يَمينُ اللهِ في الأرضِ»، و«قلوبُ العبادِ بينَ إصبعين من أَصابعِ الرحمن»، و«إني أجد نَفَسَ الرحمنِ من قِبَلِ اليَمَنِ».

نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية(ص٣٩٨/ ج٥) من مجموع الفتاوى، وقال: هذه الحكاية كذب على أحمد.

هذه الحكاية لا تثبت عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وليس لها سند صحيح[٢]، وقوله: إن الإمام أحمد أوَّل أي حرَّف هذه النصوص الثلاثة.

ولننظر هل هذه الأحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ؟ إذا لم تثبت أصلاً اكتفينا بردها لعدم صحَّتها، فإذا لم تكن صحيحة ولم يقلها النبي ﷺ فلن نحتاج إلى تأويلها، وعلى فرض صحتها سيوجهها الشيخ كما سيأتي:



(١) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأحسن أن نقول: (فعن كلِّ نصٍّ) لأنَّ الجواب إذا عُدِّيَ بـ(على) فهو جوابُ سؤال سائلٍ، وإذا عُدِّيَ بـ(عن) فهو دفع شبهة مشبِّه» [شرح القواعد المثلى ص٣٢٧-٣٢٨].

(٢) تمام كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه الحكاية كذب على أحمد لم ينقلها أحد عنه بإسناد، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف لا علمه بما قال، ولا صدقه فيما قال».

المتن

المثال الأول: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض».

والجواب عنه: أنه حديث باطل، لا يثبت عن النبي ﷺ .

قال ابن الجوزي في (العلل المتناهية): (هذا حديث لا يصحُّ).

وقال ابن العربي: (حديث باطل، فلا يلتفت إليه).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (روي عن النبي ﷺ بإسناد لا يثبت) اهـ.

وعلى هذا فلا حاجة للخوض في معناه.

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمشهور - يعني: في هذا الأثر - إنَّما هو عن ابن عباس قال: « الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله، فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه ».

ومن تدبَّر اللفظ المنقول تبيَّن له أنه لا إشكال فيه، فإنه قال: «يمين الله في الأرض»، ولم يُطلِق فيقول: يمين الله، وحُكْم اللفظ المُقَيَّد يخالف حكم المطلق، ثم قال: «فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه».

وهذا صريح في أن المصافِحَ لم يُصافح يمين الله أصلًا، ولكن شُبِّه بمن يصافح الله، فأول الحديث وآخره يبين أن الحجر ليس من صفات الله تعالى كما هو معلوم لكل عاقل. اهـ (ص٣٩٨/ ج٦) مجموع الفتاوى.

ليس للحديث سند صحيح عن النبي ﷺ وإنما روي موقوفًا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا يصحُّ أيضًا.

وقيَّده بقوله: (**في الأرض**)، وقال: (**فكأنما صافح**)، فهذا دليل على أنَّه ما أراد يمين الله عز وجل؛ لأنه لو أراد يد الله عز وجل لما قال في الأرض، ولقال: فمن صافحه فقد صافح الله، ومن قَبَّلَه فقد قَبَّل يمين الله، لكن قال: (**فكأنَّما**).

المتن

المثال الثاني: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن».

والجواب: أن هذا الحديث صحيح، رواه مسلم في الباب الثاني من كتاب القدر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدمَ كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم مُصرِّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

وقد أخذ السلفُ أهلُ السنَّة بظاهر الحديث وقالوا: إن لله تعالى أصابعَ حقيقةً، نثبتها له كما أثبتها له رسوله ﷺ.

عقيدة أهل السنة والجماعة أن لله أصابع، ونحن نقول ذلك لأن الرسول أخبرنا بذلك، والله يقول في كتابه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

فلا إشكال في إثبات صفة الأصابع لله تعالى كما يَليق به، كما أن له ذاتاً تليق به، لكن الذي استشكله أهل البدع قوله: «**القلوب بين إصبعين**»، قالوا: كيفَ يكون ذلك وكل واحد قلبه في صدره؟!

فنردُّ عليهم: أنه لا يلزم كون القلوب بين أصبعين أن تكون ملاصقة لأصابع الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.



المتن

ولا يلزم من كونِ قلوبِ بني آدمَ بين إصبعين منها أن تكون مماسةً لها حتى يقال: إن الحديث موهِمٌ للحلول فيجب صرفُهُ عن ظاهره، فهذا السحاب مُسخَّر بين السماء والأرض، وهو لا يمسُّ السماء ولا الأرض.

ويقال: بدر بين مكة والمدينة مع تباعد ما بينها وبينهما.

فقلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن حقيقة، ولا يلزم من ذلك مماسَّة ولا حلول.

قوله: (**الحلول**)، أي: أن الله حالٌّ بالمخلوقات كما يقول ذلك غلاة الصوفيَّة الذين يقال عنهم الحلوليَّة، والحق أن كون القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن لا يلزم منه الحلول.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ،فالسَّحاب ليس ملاصقًا للسماء، ولا للأرض، ومع ذلك وصفه الله ﷻ بأنه بين السماء والأرض.

فإذا كان هذا في المخلوقات ممكناً، فإن القلوب تكون بين أصبعين من أصابع الرحمن، ومع ذلك غير مماسة لأصابع الرحمن كما أن السحاب غير مماس للسماء ولا للأرض.

قوله: (**ويقال: بدرٌ بين مكة والمدينة...**)، بدر: موقع بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب منه إلى مكة وليس هو ملتصقًا بالمدينة ولا بمكة.



المتن

المثال الثالث: «إني أجد نَفَسَ الرحمن من قِبَلِ اليمن».

والجواب: أن هذا الحديث رواه الإمام أحمدُ في المسند من حديث أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «ألا إن الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية، وأجد نَفَسَ ربكم من قِبَلِ اليمن».

قال في مَجْمَع الزوائد: «رجاله رجال الصحيح غيرَ شبيب وهو ثقةٌ».

قلت: وكذا قال في (التقريب) عن شبيب ثقة من الثالثة، وقد روى البخاري نحوه في (التاريخ الكبير).

وهذا الحديث على ظاهره، والنَّفَسُ فيه اسم مصدرٍ نَفَّس يُنَفِّسُ تنفسيًا، مثل: فَرَّج يفرجُ تفريجًا وفَرَجًا، هكذا قال أهل اللغة كما في (النهاية)، و(القاموس)، و(مقاييس اللغة).

قال في مقاييس اللغة: النَّفَسُ كل شيء يفرج به عن مكروب، فيكون معنى الحديث: أن تنفيس الله تعالى عن المؤمنين يكون من أهل اليمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة، وفتحوا الأمصار، فبهم نَفَّس الرحمن عن المؤمنين الكربات. اهـ. (ص٣٩٨/ ج٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام لابن القاسم.

قوله: (**فَتَحُوا الأمصار**)، هذا ما حصل في التاريخ، لـمَّا جاءت أمدادٌ من اليمن، وفتح الله ﷻ بهم، ونفع بهم، فجاء النَّفَس -يعني: تنفيس الكربات- من أهل اليمن الذين التحقوا بالإسلام والمسلمين، واليمن كانت تطلق على المنطقة الجنوبيَّة كلها، ويمكن أن يقال: الأوس والخزرج، وهم من الأزد أنهم

من قبائل اليمن، وقد نصر الله بهم الإسلام والمسلمين، فهذا معنى كلام النبي ﷺ: «**إني أجدُ نفس ربكم من قبل اليمن**»، يعني: التفريج سيأتي من اليمن، ومثل هذا قول النبي في الحديث المشهور: (**من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة**)[1].

فائدة: قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «**ففرَّج اللهُ عني بالأنصار**»، «يعني: أنه يجد الفرج من قبل الأنصار، وهم من اليمن»[2].



(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٦٩٩).

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص٣٠٧).

المتن

المثالُ الرابع: قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾.
والجواب: أن لأهل السنَّة في تفسيرها قولين:
أحدهما: أنها بمعنى: ارتفع إلى السماء.

فسَّر بعضُ أهل السنة والجماعة قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني: قصد، فقال المحرفة: تفسيركم الاستواء (بالقصد) تأويل منكم للآية.

فنقول: هذا التفسير صحيحٌ وليس بتحريف؛ لأنَّ الفعل تعدى بحرف الجر (إلى) والفعل يختلف معناه بحسب ما يتعدَّى به.

ومع ذلك فُسِّرت الآية: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: ارتفع إلى السماء، وعلا على السماء، فـ (إلى) بمعنى علا .

والفعل استوى له ثلاث حالات:

١- أن يتعدى بنفسه، مثاله: استوى الطعام، يعني: نضج، واستوى الشاب يعني: كَمُل في شبابه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾.

٢- أن يتعدَّى بحرف الجر (على)، مثاله: استوى على الشيء، أي علا وارتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾.

٣- أن يتعدَّى بحرف الجر (إلى) مثاله: استوى إلى الشيء، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ،ولها تفسيران:

الأول: ارتفع إليه. **الثاني**: قَصَدَه.

وليس في أحد التفسيرين تأويلٌ ،ولا تحريفٌ.

المتن

وهو الذي رجَّحه ابن جرير، قال في تفسيره بعد أن ذكر الخلاف: (وأولى المعاني بقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ ،علا عليهن وارتفع، فدَبَّرهن بقدرته، وخلقهن سبع سموات) اهـ.

وذكره البغويُّ في تفسيره: قول ابن عباس وأكثر مفسِّري السلف، وذلك تمسكًا بظاهر لفظ ﴿ ٱسۡتَوَىٰ ﴾، وتفويضًا لعلم كيفيَّة هذا الارتفاع إلى الله ﷻ.

القول الثاني: إن الاستواء هنا بمعنى القصد التام؛ وإلى هذا القول ذهب ابن كثير في تفسير سورة البقرة، والبغويُّ في تفسير سورة فصلت.

قال ابن كثير: «أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا ضُمِّن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّي بـ(إلى)».

قول ابن كثير عُدِّي بـ(إلى)، أي: حرف الجر الذي بعده هو (إلى) .

ومعنى الفعل يختلف بحسب ما يتعدَّى به فمثلًا فعل (نَظَرَ):

١- إذا تعدى بنفسه فيكون بمعنى انتظر، ومنه قوله ﷻ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، أي: انتظرونا.

٢- إذا تعدَّى بحرف الجر (إلى)، مثاله قوله ﷻ :﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾، أي: ترى الله ، فنظر إلى الشيء، أي: أبصره.

٣- إذا تعدى بحرف الجر (في) ، فيكون بمعنى التفكُّر والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾،ومنه: نظر في المسألة.

المتن

وقال البغوي: (أي عمد إلى خلق السماء).

وهذا القول ليس صَرفًا للكلام عن ظاهره؛ وذلك لأن الفعل ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ اقترن بحرف يدلُّ على الغاية والانتهاء، فانتقل إلى معنىً يناسب الحرف المقترن به، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾، حيث كان معناها: يَرْوَى بها عباد الله؛ لأن الفعل ﴿يَشۡرَبُ﴾ اقترن بالباء فانتقل إلى معنى يناسبها وهو يَرْوَى، فالفعل يضمَّن معنًى يناسب معنى الحرف المتعلق به؛ ليلتئم الكلام.

قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: يشرب منها عباد الله؛ لأن الفعل عُدِّيَ بالباء، فدل ذلك على أنه شرب مع ارتواء[1].



(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنًى مع الحرف، ومعنًى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيُشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله وطريقة حُذَّاق أصحابه يُضَمِّنون الفعل معنى الفعل، لا يُقِيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة، جليلة المقدار، تستدعي فطنة ولطافة في الذهن.

وهذا نحو قوله تعالى ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، فإنهم يُضمنون (يشرب) معنى (يَروى)، فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين؛ أحدهما: بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها» [بدائع الفوائد ٢/ ٤٢٤، ٤٢٣].

المتن

المثال الخامس والسادس: قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾، وقوله في سورة المجادلة: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾.

والجواب: أن الكلام في هاتين الآيتين حقٌّ على حقيقته وظاهره، ولكن ما حقيقته وظاهره؟

هل يُقال: إنَّ ظاهره وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون مختلطًا بهم، أو حالًّا في أمكنتهم؟

أو يقال: إن ظاهره وحقيقته أنَّ الله تعالى مع خلقه معيَّة تقتضي أن يكون محيطًا بهم: علمًا، وقدرةً، وسمعًا، وبصرًا، وتدبيرًا وسلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته مع علوِّه على عرشه فوق جميع خلقه؟

المعنى الثاني: هو الحق، فلا يقال: إنَّ معنى قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾، أنه مخالط وممازج لخلقه في أمكنتهم، وإنَّ هذا هو الظاهر من قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾، نقول: إن حرف (مع) في لغة العرب لا يقتضي معنىً واحدًا، وهو أن معيَّة الشيء مع الشيء تعني أنه مخالط له، كما يقال مثلًا: الماء مع اللبن.

وعلوُّ الله ﷻ مطلق على جميع خلقه، وهذا ما دلَّ عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، فالله ﷻ هو الذي ذكر عن نفسه أنه فوق مخلوقاته، مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقه، ثم ذكر أنه معنا، فنفهم حينئذٍ يقينًا بأن هذه المعية لا تقتضي ذلك المعنى الباطل في حق الله ﷻ، بل هو ممتنع غاية الامتناع، وهو أن يكون مخالطاً للناس في أماكن يتنزه الله عنها، فهذا ينافي علو الله تبارك

وتعالى، فلمَّا كانت المعية لها معانٍ عدة ، ناسب أن نحمل المعية الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على ما يليق بالله عز وجل، ومعيَّة الإحاطة تعني أنَّه محيط بخلقه قادر عليهم، يسمع كلَّ شيء، ويبصر كلَّ شيء، ويعلم كلَّ شيء، و مع ذلك هو فوق عرشه سبحانه وتعالى.



المتن

ولا ريب أن القول الأول لا يقتضيه السياق، ولا يدلُّ عليه بوجه من الوجوه؛ وذلك لأن المعية هنا أضيفت إلى الله ﷻ، وهو أعظم وأجَلُّ من أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

قوله: (**القول الأول لا يقتضيه السياق**)، أي: الممازجة والمخالطة للمخلوقات، ويعني بالسياق: أي سياق قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

فقد ذكر الله في السياق نفسه أنه استوى على العرش، ومع ذلك أثبت معيَّته لخلقه في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ .

والسياق في الآية الثانية الذي ذكر الله ﷻ فيه المعية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فبدأ الآيات بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾، وختم الآيات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فالسياق يدل على أن هذه المعية أراد الله ﷻ بها معيةَ العلم، فهو ﷻ مع خلقه بعلمه، لا تخفى عليه خافية، فالمعنى يتحدَّد بحسب سياق الكلام .



المتن

ولأنَّ المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن لا تستلزم الاختلاط أو المصاحبة في المكان، وإنَّما تدل على مطلق مصاحبة، ثمَّ تفسَّر في كل موضعٍ بحسبه.

وتفسير معيَّة الله تعالى لخلقه بما يقتضي الحلول والاختلاط باطل من وجوه:

الأوَّل: أنه مخالف لإجماع السلف، فما فسَّرها أحد منهم بذلك؛ بل كانوا مجمعين على إنكاره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**إنما تدل على مطلق المصاحبة**)، يعني: لا تدلُّ على معنى الامتزاج أو الاختلاط دائمًا، فقد تأتي بمعنى الامتزاج والاختلاط، وقد تأتي لمعانٍ أخرى حسب السياق.

وقد أجمع السلف على إنكار أن يكون الله ﷻ ممازجاً لخلقه ومخالطاً لهم، بل هو ﷻ عال على خلقه مستوٍ على عرشه، وهذا يدل على بطلان كون المعية في الآيتين أُريد بها معية ممازجة واختلاط، وإذا قيل: إن المعيَّة لا تقتضي الممازجة والاختلاط قالوا: هذا تحريف منكم للآية، فتنكرون علينا تحريف الآيات وأنتم تحرفونها.

فنقول لهم: إن إثبات المعية لله ﷻ لا ينافي علوه سبحانه وتعالى، فكلاهما حق دل عليهما القرآن والسنة، وأجمع على ذلك سلف الأمة.



المتن

الثاني: أنه منافٍ لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع السلف، وما كان منافيًا لما ثبت بدليل كان باطلًا بما ثبت به ذلك المنافي، وعلى هذا فيكون تفسير معية الله لخلقه بالحلول والاختلاط باطلًا بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع السلف.

صفة العلو من أوضح وأجَلِّ صفات الربِّ عَزَّوَجَلَّ التي تنوَّعت فيها الأدلة وتكرَّرت، حتى ذكر بعض أهل العلم أنها تجاوزت ألف دليل.

منها: أدلة الكتاب، وهي متنوعة، ففيها:

أنه على العرش استوى، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، وفيها: أنه في السماء، كما في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وفيها: أنه فوق خلقه، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾.

ومنها أدلة السنة بأنواعها الثلاثة القولية، والفعلية، والتقريرية:

١- **القوليَّة**: كحديث النبي ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**»[(١)].

٢- **الفعليَّة**: أنه كان يقول على رؤوس الأشهاد يوم عرفة: «**هل بلغت؟ اللهم فاشهد**»[(٢)] ويشير إلى السماء وينكتها إلى الناس «**اللهم فاشهد اللهم فاشهد**».

٣- **التقريريَّة**: أنه أقرَّ الجارية على قولها: إن الله ﷻ في السماء.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، انظر السلسلة الصحيحة للألباني (٩٢٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم:(٧٠٧٨)، ومسلم برقم:(١٢١٨).

قوله: (**العقل**)، أي: أن العقل الصحيح الصريح يدل على أنه ﷻ في أشرف الجهات وهي العلو.

وقوله: (**الفطرة**)، فالإنسان يَجِدُ في نفسه ضرورة أنه إذا أراد أن يلجأ إلى الله ﷻ في الشدة والرخاء توجه إلى العلو.

قوله: (**وإجماع السلف**)، نقله غير واحد، منهم الإمام الأوزاعي قال: كنا نقول والتابعون متوافرون: «إن الله ﷻ مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه»[١].



(١) أخرجه البيهقي في الأسماء الصفات، رقم: (٨٦٥)، وصحح إسناده ابن القيم في «اجتماع الجيوش» (١/١٨٦).

المتن

الثالث: أنه مستلزم للوازم باطلة لا تليق بالله سبحانه وتعالى.

ولا يمكن لمن عرف الله تعالى وقدره حق قدره، وعرف مدلول المعيَّة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن يقول: إن حقيقة معيَّة الله تعالى لخلقه تقتضي أن يكون مختلطًا بهم، أو حالًّا في أمكنتهم، فضلًا عن أن تستلزم ذلك، ولا يقول ذلك إلا جاهل باللغة، جاهل بعظمة الربِّ جل وعلا.

من عظمة الله ﷻ أن يكون في العلو لا في السُّفل، وقد كان بعض الزنادقة يقول: سبحان ربي الأسفل[1]؛ لاعتقاده أنه ﷻ في كل مكان، والقول: إنَّ الله ﷻ في كل مكانٍ كلامٌ باطل مخالف لأدلة علوِّ الله ﷻ.



(١) القائل هو بشر المريسي، انظر: بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام (٥/٩٩).

المتن

فإذا تبين بطلان هذا القول تعيَّن أن يكون الحق هو القول الثاني، وهو أن لله تعالى مع خلقه معيَّة تقتضي أن يكون محيطًا بهم، علمًا وقدرة، وسمعًا وبصرًا، وتدبيرًا، وسلطانًا، وغير ذلك مما تقتضيه ربوبيته مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه.

وهذا هو ظاهر الآيتين بلا ريب؛ لأنهما حق، ولا يكون ظاهر الحق إلا حقًّا، ولا يمكن أن يكون الباطل ظاهر القرآن أبدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية»(ص١٠٣/ ج٥) من مجموع الفتاوى لابن قاسم: (ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، دلَّ ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطَّلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن، عالمٌ بِكُمْ، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته، وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، **إلى قوله:** ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ **الآية، ولمَّا قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار:** ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، كان هذا أيضًا حقًا على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطِّلاع والنصر والتأييد) اهـ.

وهذا نحو قول الله ﷻ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، فهذه معية الاطِّلاع والنصر والتأييد.



المتن

ثم قال: (فلفظ المعية قد استُعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر.

فإمَّا أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدلَّ على قدر مشترك بين جميع مواردها، وإن امتاز كل موضع بخاصيَّة، فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها). اهـ.

المعيَّة نوعان:

١- معيَّة عامَّة للخلق جميعًا: وهي المذكورة في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وتقتضي الإحاطة، والسمع، والعلم.

٢- معية خاصة بالمؤمنين: وهي المذكورة في قوله ﷻ :﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وتقتضي النصرة والتأييد، فالسياق هو الذي يُحدِّد معنى المعية.



المتن

ويدل على أنه ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق أن الله تعالى ذكرها في آية المجادلة بين ذِكْرِ عموم علمه في أوَّل الآية وآخرها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فيكون ظاهر الآية أن مقتضى هذه المعية علمه بعباده، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض.

أمَّا في آية الحديد فقد ذكرها الله تعالى مسبوقة بذكر استوائه على عرشه وعموم علمه، متلوَّة ببيان أنه بصير بما يعمل العباد، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الآية واضحة ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾، وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، لا بد أن يكون المعنى متناسقاً، أمَّا أن يكون الله ﷻ تارةً مستوٍ على العرش، وتارة مختلطًا مع الخلق في الأرض، فهذا تناقض يأباه السياق.



المتن

فيكون ظاهر الآية أن مقتضى هذه المعيَّة: علمه بعباده، وبَصَرُهُ بأعمالهم مع علوِّه عليهم، واستواؤه على عرشه؛ لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض؛ وإلا لكان آخر الآية مناقضًا لأولها الدالِّ على علوه واستوائه على عرشه، فإذا تبيَّن ذلك علمنا أن مقتضى كونه تعالى مع عباده: أنه يعلم أحوالهم، ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ويدَبِّر شؤونهم؛ فيحيي ويميت، ويُغني ويُفقِر، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء؛ إلى غير ذلك مما تقتضيه ربوبيَّته وكمال سلطانه لا يحجبه عن خلقه شيء، ومن كان هذا شأنه فهو مع خلقه حقيقة ،ولو كان فوقهم على عرشه حقيقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» (ص١٤٢/ ج٣) من مجموع الفتاوى لابن قاسم في فصل الكلام على المعية، قال: (وكلُّ هذا الكلامِ الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش وأنه معنا حقٌّ على حقيقته؛ لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة). اهـ.

وقال في «الفتوى الحموية» (ص١٠٢، ١٠٣/ج٥) من المجموع المذكور: (وجِماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسنَّة يحصل منهما: كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنَّة نبيه، وقَصَدَ اتِّباع الحق، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحادِ في أسماء الله وآياته.

ولا يحسب الحاسب أن شيئًا من ذلك يناقض بعضه بعضًا ألبتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله ﷻ فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، وقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَلَ وجهه»، ونحو ذلك، فإن هذا غلط.

لا منافاة بين كون الله ﷻ مستوياً على عرشه وكونه مع خلقه، وسيذكر المؤلف: أن القمر مخلوق من مخلوقات الله، هو فوق الناس، ومع ذلك يقول الناس: ما زلنا نسير والقمر معنا.

فإذا كان هذا ممكناً -أن يكون الشيء فوقك ومعك- وهو مخلوق وأنت مخلوق، فما المانع أن يكون الله ﷻ فوقك ومعك؟ و أيضاً في قول النبي ﷺ: «**إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبلَ وجهه فإن الله قِبلَ وجهه إذا صلى**»[1].

ولا تنافي بين علوه ﷻ وكونه قِبل وجه المصلي، فالشمس حين شروقها، أو حين غروبها سيجدها الإنسان تلقاء وجهه، وهي فوقه عالية عليه.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٠٦)، ومسلم برقم: (٥٤٧).

المتن

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فأخبر أنه فوق العرش، يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنَّا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه». اهـ.

جمع الله في هذا السياق بين كونه جلّ وعلا مستوياً على عرشه، وبين كونه مع الخلق.

اختلف أهل العلم في ثبوت حديث الأوعال[١]، والحديث فيه ذكر صفة حَمَلَةِ العرش، فقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم أوعال، والوعل أصله: تيس الجبل، لكن الكيفيَّة مختلفة، كما أنَّ للملائكة أجنحة، وللطيور أجنحة، والمعنى معلوم، لكن الكيف مجهول، والحقيقة متفاوتة.



(١) أخرجه أحمد برقم: (١٧٧٠)، وابن ماجه برقم: (١٩٣)، وضعفه الألباني في الضعيفة: (١٢٤٧).

المتن

واعلم أن تفسير المعيَّة بظاهرها على الحقيقة اللائقة بالله تعالى لا يناقض ما ثبت من علو الله تعالى بذاته على عرشه وذلك من وجوه ثلاثة:

الأوَّل: أن الله تعالى جمع بينهما لنفسه في كتابه المبين المنزَّه عن التناقض، وما جمع الله بينهما في كتابه فلا تناقض بينهما.

وكلُّ شيء في القرآن تظن فيه التناقض فيما يبدو لك، فتدبَّره حتى يتبين لك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

التناقض الذي قد يتوهَّمه الإنسان سببه عدم تدبُّرِّه للقرآن، فلو تدبرنا القرآن لما وجدنا فيه تناقضاً.

فائدة: قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما لفظ: (بذاته) فقال أبو منصور السجزي (المتوفى سنة ٤٤٤ هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وأئمتنا كالثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن زيد، والفضيل، وأحمد، وإسحاق مُتَّفقون على أن الله فوق العرش بذاته، وأن علمه بكل مكان). اهـ.

وأبو إسماعيل الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما صرح في كتبه بلفظ (الذات) قال: (ولم تزل أئمة السلف تصرح بذلك) انتهى.

فهذان نقلان يفيدان إطلاق هذا اللفظ لدى السلف من غير نكير» [(١)].



(١) معجم المناهي اللفظية (ص٥٩٧)، وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (١/ ٣٧٥).

المتن

فإن لم يتبيَّن لك، فعليك بطريق الراسخين في العلم الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾.

وكِلِ الأمرَ إلى مُنَزِّله الذي يعلمه، واعلم أن القصور في علمك، أو في فهمك، وأن القرآن لا تناقض فيه.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام في قوله فيما سبق: (كما جمع الله بينهما)، وكذلك ابن القيم كما في -مختصر الصواعق- لابن الموصلي (ص٤١٠/ ط الإمام) في سياق كلامه على المثال التاسع مما قيل: إنه مجاز؛ قال: (وقد أخبر الله أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه، وقَرَن بين الأمرين كما قال تعالى، -وذكر آية سورة الحديد-.

ثم قال: (فأخبر أنه خلق السماوات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال (واللهُ فوق العرش يرى ما أنتم عليه)، فَعُلُوُّه لا يناقض معيتَه، ومعيتُه لا تُبطل علوه، بل كلاهما حق. اهـ.

الوجه الثاني: أنَّ حقيقة معنى المعية لا يناقض العلوَّ، فالاجتماع بينهما ممكن في حق المخلوق، فإنه يقال: مازلنا نسير والقمر معنا، ولا يعد ذلك تناقضًا، ولا يفهم منه أحد أن القمر نزل في الأرض، فإذا كان هذا ممكنًا في حق المخلوق، ففي حق الخالق المحيط بكل شيء -مع علوِّه سبحانه- من باب أولى؛ وذلك لأن حقيقة المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

ويقال: زوجة الرجل معه، وقد تكون هي في بلد وهو في بلد، فلو قيل لمن يعمل خارج بلده: هل زوجتك معك أم طلَّقتها؟ فيقول: مازالت معي، مع أنها في بلد آخر، ومع ذلك يقول: زوجتي معي، فهذه المعاني معانٍ صحيحة ومستقيمة.

وتقول: ما زلنا نسير والقمر معنا -وهو فوق- وكلها عبارات صحيحة فصيحة، والسياق هو الذي يحدد المعنى.



المتن

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية» (ص١٠٣) المجلد الخامس من مجموع الفتاوى لابن قاسم حيث قال: (وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قُيِّدتْ بمعنًى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: مازلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا.

ويقال: هذا المتاع معي؛ لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة). اهـ.

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فإنَّ من كان عالمًا بك، مطلعًا عليك، مهيمنًا عليك، يسمع ما تقول، ويرى ما تفعل، ويدبر جميع أمورك، فهو معك حقيقة، وإن كان فوق عرشه حقيقة؛ لأن المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

الوجه الثالث: أنه لو فرض امتناع اجتماع المعية والعلو في حق المخلوق لم يلزم أن يكون ذلك ممتنعًا في حق الخالق الذي جمع لنفسه بينهما؛ لأن الله تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» (ص١٤٣/ج٣) من مجموع الفتاوى حيث قال: (وما ذُكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيَّته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عليٌّ في دنوِّه، قريب في علوِّه). اهـ.

نقل المؤلِّف عن شيخ الإسلام كلامًا نافعًا مؤصَّلًا، مفاده لو أن المعية في المخلوق يلزم منها المخالطة، أو الاجتماع في المكان الواحد؛ فهذا بين المخلوق

والمخلوق، أما الخالق فهو ليس كالمخلوق، حتى إذا قيل: إنه مع خلقه، يلزم أن يكون معهم في مكان واحد، أو ممازجاً لهم، أو مختلطاً بهم، نقول لهم:الخالق غير المخلوق، فلا يجوز أن نقيس الخالق على المخلوق، ولا يجوز أن نجعل ما وَجب للخالق واجباً للمخلوق، ولا أن نجعل ما كان ممكنًا للمخلوق ممكنًا للخالق، فنحن ندرك تمامًا بأن المخلوق لا يمكنه أن يسمع مائة شخص في لحظة واحدة، ولا يمكن أن يفهم ما يقولون، لكن الخالق يسمع الخلق جميعًا في لحظة واحدة، ففي يوم عرفة الحجاج كلهم يقولون: يا ربُّ، يا ربُّ، كلٌّ واحد يدعو بلغة وبلهجة، وبحاجة، والله يعلم مَن حقَّق شروط الإجابة ممن لم يحقِّقها، يعلم كل ذلك في لحظة واحدة، كما أنه يرزقهم في لحظة واحدة، الحيتان في البحر، والديدان في الأرض، والطيور على رؤوس الجبال، كلهم يرزقهم الله في لحظة واحدة، كما أنَّه يسمعهم في لحظة واحدة، ويبصرهم في لحظة واحدة، ، كذلك يبعثهم كنفس واحدة، ويحاسبهم كنفس واحدة.

قال ﷻ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، فلا يستحيل ذلك على الله ﷻ، فلو قال قائل: هذا يستحيل على الله؛ لأنه لا يمكن أن تجد واحداً يسمع الناس كلهم في لحظة واحدة، فنقول: هل الله ﷻ مثل الناس حتى تمثله بالمخلوق، وتقول: بما أن المخلوق لا يستطيع أن يسمع الناس في لحظة واحدة؛ إذًا الله ﷻ لايسمع الناس في لحظة واحدة؟! هل الله ﷻ كالمخلوق حتى تقيسه عليه؟ قطعاً لا، فالخالق ليس كالمخلوق.

فلو فرضنا أن المعيَّة معناها يقتضي الممازجة، أو الاختلاط، أو الاجتماع في مكان واحد، فهذا في حق المخلوق، أما الخالق فلا يكون ذلك في حقِّه سبحانه الذي أخبر عن نفسه أنه مستوٍ على عرشه، وهو الذي أخبر عن نفسه أنه مع خلقه، ولا منافاة بينهما.

المتن

تتمة: انقسم الناس في معيَّة الله تعالى لخلقه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يقولون: إن معيَّة الله تعالى لخلقه مقتضاها العلم والإحاطة في المعية العامة، ومع النصر والتأييد في المعية الخاصة، مع ثبوت علوِّه بذاته، واستوائه على عرشه،وهؤلاء هم السلف، ومذهبهم هو الحق، كما سبق تقريره.

القسم الثاني: يقولون: إن معيَّة الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض مع نفي علوه واستوائه على عرشه!

وهؤلاء هم الحُلوليَّة من قدماء الجهمية وغيرهم، ومذهبهم باطل منكر، أجمع السلف على بطلانه وإنكاره كما سبق.

القسم الثالث: يقولون: إن معية الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض مع ثبوت علوه فوق عرشه.

ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٢٢٩/ ج٥) في مجموع الفتاوى.

وقد زعم هؤلاء أنَّهم أخذوا بظاهر النصوص في المعيَّة والعلو، وكذبوا في ذلك فَضَلوا، فإن نصوص المعيَّة لا تقتضي ما ادَّعوه من الحلول؛ لأنه باطل، ولا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله باطلًا.

تنبيه: اعلم أن تفسير السلف لمعيَّة الله تعالى لخلقه: (بأنه معهم بعلمه) لا يقتضي الاقتصار على العلم، بل المعية تقتضي أيضًا إحاطته بهم سمعًا، وبصرًا، وقدرة، وتدبيرًا، ونحو ذلك من معاني ربوبيَّته.

تنبيه آخر: أشرت فيما سبق إلى أن (علوَّ الله تعالى) ثابت بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة، والإجماع.

ويقال أيضًا: ثبت العلوُّ باتفاق الشرائع السماوية السابقة.

المتن

أماَّ الكتاب فقد تنوَّعت دلالته على ذلك:

فتارة بلفظ العلوِّ، والفوقيَّة، والاستواء على العرش، وكونه في السماء.

أدلَّة الكتاب تعدَّدت أي: تكرَّرَت، وأتت بأعداد كثيرة، وتنوَّعت، أي: جاءت بصيغ مختلفة.

فالعلوُّ، والفوقيَّة، واستواؤه على العرش تُسمَّى: أنواع الأدلَّة، لكن العلو -مثلًا- فيه عدَّة أدلة، و الاستواء عدَّة أدلة، فقد ورد الاستواء في القرآن في سبع آيات، ووردت الفوقيَّة في آيتين: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾، و﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

ولو جمعنا أدلَّة الفوقيَّة، وأدلَّة الاستواء، وأدلَّة العلوِّ، وأدلَّة كونه في السماء، وأدلَّة النزول إلى سماء الدنيا، وأدلَّة إنزال الكتاب، وغير ذلك، لوجدناها كثيرةً جداً، أما من حيث التنوُّعُ فقد تنوعت إلى أحد عشر نوعًا تقريبًا، والأنواع هي: العلو، والفوقية، والاستواء على العرش، ونزوله إلى السماء الدنيا، وإنزال الكتاب، وصُعود الكلم الطيب إليه، وأنَّه كَتَبَ كتاباً فهو عنده فوق العرش، ورَفَعَ عيسى ابن مريم عليه السلام إليه، وعروج الملائكة والروح إليه، هذه نسمِّيها أنواع الأدلة، وأمَّا أفرادها: فتتجاوز أكثر من ألف نصٍّ من الكتاب والسنة، كلها تدل على علوِّ الله تبارك وتعالى.



المتن

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، دليل على العلو، والمقصود: العلو المطلق، فيشمل: علو الذات، وعلو الصفات ،وعلو القهر.

أمَّا أهل البدع فيقصرون العلوَّ على علوِّ الصفات وعلو القهر، وينكرون علو الذات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، هذا دليل إثبات الفوقية لله ﷻ، أما أهل البدع فيقصرون معنى هذه الآية فيقولون: الله فوق عباده قدرًا، كما يقال: الذهب فوق الفضة، فليس معناه أن قطع الذهب فوق قطع الفضة، وإنَّما المراد قَدْر الذهب فوق قَدْرِ الفضَّة، أي: أن ثمن الذهب أعلى من ثمن الفضة، فأهل البدع يُثبِتون الفوقيَّة، لكنهم يحصرونها في معنىً قاصر، (وهو: فوقيَّة القدر).



المتن

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، هذا من أدلة الاستواء على العرش، وقال السلف: إنَّ استوى بمعنى: علا، وارتفع، وصعد، واستقر.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، هذه الآية دليل على أن الله في السماء، وللآية تفسيران:

الأوَّل: بمعنى أأمنتم مَن في العلوِّ؛ لأن الشيء العالي يقال عنه سماء، كما يقال عن السَّحاب: سماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، أي: من السَّحاب.

الثاني: بمعنى أأمنتم من على السماء؛لأنَّ (في) تأتي بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: على الأرض، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾، أي: على جذوع النخل ،وقوله ﷺ: «**ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**»(١)، أي ارحموا من على الأرض يرحمكم من على السماء.

وكلا القولين حقٌّ لا يتنافيان، والقاعدة أنَّ الآية متى احتملت أكثر من معنًى لا منافاة بينهما حُمِلت عليهما.



(١) أخرجه أبو داود برقم: (٤٩٤١)، انظر السلسلة الصحيحة للألباني (٩٢٥).

المتن

وتارة بلفظ صعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه كقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾، ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، وتارة بلفظ نزول الأشياء منه، ونحو ذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وأمَّا السُّنَّة فقد دلَّت عليه بأنواعه: القوليَّة، والفعليَّة، والإقراريَّة، في أحاديث كثيرة تبلغ حدَّ التواتر، وعلى وجوه متنوِّعة:

كقوله ﷺ في سجوده: «سبحان ربي الأعلى»، وقوله: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنَّ رحمتي سبقت غضبي»، وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين مَن في السماء؟»

صعود الكلم الطيب إلى الله تعالى، وعروج الملائكة، والروح إليه تعالى، وإنزال الكتاب، وتدبير الأمر منه تعالى، ورفع عيسى عليه السلام إليه، كلُّ ذلك يدلُّ على أنه جلَّ وعلا في العلو.

الكتاب الذي كتب الله عز وجل فيه «**عنده فوق عرشه**» هذا نوع من أنواع أدلة العلو.



المتن

وثبت عنه أنه رفع يديه وهو على المنبر يوم الجمعة يقول: «اللهم أغثنا».

وأنه رفع يده إلى السماء وهو يخطب الناس يوم عرفة حين قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: «اللهم اشهد».

ومعلوم أن صلاة الجمعة يجتمع الناس فيها: العامة، والعلماء، وكلُّهم شاهدوه ﷺ وهو يرفع يديه ومنهم من نقل عنه أنه كان ﷺ يشير إلى السماء.

وكذلك في يوم عرفة اجتمع حول النبي ﷺ عشرات الآلاف، والنبي ﷺ يشير إلى الأعلى.

وفي هذه الأحاديث أثبت النبي ﷺ أن الله في العلوِّ بالفعل.



المتن

وأنه قال للجارية: «أين الله؟»، قالت: في السماء، فأقرَّها وقال لسيدها: «أعتقها فإنَّها مؤمنة».

هذا دليل الإقرار.

وأهل البدع يردُّون هذا الحديث بردود واهية منها:

أوَّلًا: أن هذا الحديث ضعيف، وقولهم هذا غير صحيح، فالحديث رواه مسلم في «صحيحه».

ثانيًا: أن النبي ﷺ جامل هذه الجارية، وأخذها على قدر عقلها، وهذا الكلام لا يليق برسول الله ﷺ أن يسمع باطلاً ويقرَّه، حتى ولو كان من طفلة صغيرة؛ لأن إقراره دين وشرع وعقيدة، ولذلك لما قالت جارية صغيرة: «وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ»[1]، أنكر عليها رسولُ الله ﷺ ولم يجاملها، بل هناك أمور أقل شأنًا من العقيدة، ومع ذلك أنكرها ﷺ، ومن أمثلة ذلك: لما رأى الحسنَ بن علي رضي الله عنهما أخذ تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ: «**كخ كخ؛ أما علمتَ أنَّا لا نأكل الصدقة؟!**»[2] ،فهذه تمرة، فكيف لو سمع خطأً في العقيدة، فهل سيقرُّه؟! حاشاه أن يفعل ذلك، فالنبي ﷺ لم يقر الجارية على قولها عن الله إلا لأنها قالت الحق، ولم تقل باطلاً ولا خطأً ولا انحرافاً.

ثالثاً: قالوا: إن معنى قوله ﷺ: (أين الله؟)، أي: مَنْ رَبُّك؟، وهذا باطل والذي يظهر بطلان قولهم هذا: هو إجابتها إذ قالت: (في السماء)، فلم تقل: ربي الله الذي خلق السماوات والأرض مثلًا، أو ربي الذي خلقني، وإنما قالت: (في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم:(٤٠٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم:(١٤٩١)، ومسلم برقم:(١٠٦٩).

السماء)، فالجواب لا يطابق السؤال الذي افترضوه.

فإن قال قائلهم: أنتم لـمَّا قلتم في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ،قلتُم أي: من على السماء، فغيَّرتم حرف (في) إلى (على)، ونحن لما قلنا: إن معنى السؤال: (أين الله)، أي: من ربك، فغيَّرنا (أين) إلى (مَنْ) أنكرتم علينا، فهل يجوز لكم أن تؤولوا ولا يجوز لنا؟

الجواب: إننا لا نختلف وإياكم أن بعض الحروف قد يكون لها أكثر من معنًى، لكنَّ السياق هو الذي يحدد المعنى، فلا يصح أن تكون (أين) في الحديث بمعنى (مَنْ)، وأيضًا كيف يعدل مَن أُوتي جوامع الكلم عن حرفين في كلمة (مَنْ) إلى ثلاثة أحرف في كلمة (أين)؟! أمَّا تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من على السماء فهذا كقوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: على الأرض، وكقوله ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[1] ،أي: ارحموا من على الأرض يرحمكم من على السماء.

رابعاً: قالوا: إن هناك أصناماً كثيرةً كانت حول الكعبة، فقال لها: (أين الله)، أي: أي واحدٍ من هؤلاء تعبدين؟

والجواب: أن هذا كذب، ويدل عليه أن هذه الحادثة كانت في المدينة، وليست في مكة؛لأن الراوي قال: ترعى الغنم قِبَلَ أُحد، وأُحد في المدينة، وليس في مكَّة.



(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٤٩٤١)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٩٢٥).

المتن

وأمَّا العقل: فقد دلَّ على وجوب صفة الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقص.

العلوُّ صفة كمال، والسفل نقص، فوجب لله تعالى صفة العلو، وتنزيهه عن ضده.

وأمَّا الفطرة: فقد دلت على علو الله تعالى دلالة ضرورية فطرية، فما من داعٍ أو خائف فزع إلى ربه تعالى إلا وجد في قلبه ضرورة الاتجاه نحو العلو، لا يلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة.

واسأل المصلين، يقول الواحد منهم في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» أين تتجه قلوبهم حينذاك؟

وأما الإجماع: فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله تعالى فوق سماواته، مستوٍ على عرشه؛ وكلامهم مشهور في ذلك نصًّا وظاهرًا.

قال الأوزاعيُّ: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله -تعالى ذِكرُهُ- فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات».

بدأ المؤلف أولاً بأدلة النقل، أي: الكتاب والسنة، ثم ذكر الدليل العقلي.

ومعنى (**الفِطرة**): الخِلقة التي خلق الله الناس عليها.

والمقصود بقوله: (**دلالة ضرورية**): أن الإنسان مضطرٌّ أن يعلم ذلك من غير مقدمات، وأدلة، وإقناع.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعرف ربَّنا بأنه فوق سبع سماوات على

العرش استوى بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهميَّة»[١].

قال شيخ الإسلام: «وهذا مشهورٌ عن ابن المبارك ثابتٌ عنه من غيرِ وجه؛ وهو أيضًا صحيحٌ ثابتٌ عن أحمدَ بن حنبل وإسحاقَ بن راهويه وغيرِ واحدٍ من الأئمة»[٢].



(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة رقم (٢١٦)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٦٢).
(٢) الفتاوى (٥/ ١٨٤).

المتن

وقد نقل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من أهل العلم، ومحالٌ أن يقع في مثل ذلك خلاف، وقد تطابقت عليه هذه الأدلة العظيمة التي لا يخالفها إلا مكابر طُمسَ على قلبه، واجتالته الشياطين عن فطرته- نسأل الله تعالى السلامة والعافية-.

فعلوُّ الله تعالى بذاته وصفاته من أَبيَنِ الأشياء وأظهرها دليلًا، وأحقِّ الأشياء وأثبتها واقعًا.

لمَّا كَثُرَ الكلام على الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ بسبب كلمة صدرت منه ،وهي أن الله ﷻ مع خلقه حقيقةً بذاته، فَهِمَ بعض الناس -وقد يكون حملهم الحسد - أن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: بعقيدة الحلول، فأمسك الشيخ عن كلمة (بذاته) للمصلحة؛ لأن الناس حمَّلوا كلامه ما لا يحتمل، فكتب هذه الكلمة التي سيأتي ذكرها بين يدي الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمة الله عليهما.



المتن

تنبيه ثالث: اعلم أيها القارئ الكريم، أنه صدر مني كتابة لبعض الطلبة تتضمن ما قلتُه في بعض المجالس في معيَّة الله تعالى لخلقه؛ ذكرتُ فيها أن عقيدتنا: أن لله تعالى معيَّةً حقيقيةً ذاتيةً تليقُ به، وتقتضي إحاطَتَهُ بكل شيءٍ علمًا، وقدرةً، وسمعًا، وبصرًا، وسلطانًا وتدبيرًا، وأنه سبحانه منَزَّهٌ أن يكون مختلطًا بالخلق، أو حالًّا في أمكنتهم، بل هو العليُّ بذاته وصفاته، وعلوُّه من صفاته الذاتيَّة التي لا ينفكُّ عنها، وأنه مستوٍ على عرشه -كما يليق بجلاله-، وأنَّ ذلك لا ينافي معيته؛ لأنه تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

وأردت بقولي: (ذاتية) توكيدَ حقيقةِ معيَّته تبارك وتعالى.

وما أردتُ أنه مع خلقه سبحانه في الأرض، كيف وقد قلتُ في نفس هذه الكتابة كما ترى: إنَّه سبحانه منزَّهٌ أن يكون مختلطًا بالخلق، أو حالًّا في أمكنتهم، وإنه العلي بذاته وصفاته، وإن علوَّه من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها، وقلت فيها أيضًا ما نصه بالحرف الواحد:

«ونرى أن مَن زعم أن الله بذاته في كل مكان فهو كافر أو ضالٌّ إن اعتقده، وكاذب إن نَسَبَهُ إلى غيره من سلف الأمة أو أئمتها». اهـ.

ولا يمكن لعاقلٍ عرف الله وقَدَرَه حقَّ قدره أن يقول: إن الله مع خلقه في الأرض، وما زلتُ ولا أزالُ أنكر هذا القولَ في كل مجلسٍ من مجالسي جرى فيه ذِكرُهُ.

وأسأل الله تعالى أن يثبِّتني وإخواني المسلمين بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

المتن

هذا وقد كتبتُ بعد ذلك مقالًا نُشر في مجلة "الدعوة" التي تصدر في الرياض، نُشِرَ يومَ الاثنين الرابع من شهر محرم سنة ١٤٠٤ هـ، أربع وأربعمائة وألف للهجرة برقم ٩١١ قرَّرتُ فيه ما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن معية الله تعالى لخلقه حقٌّ على حقيقتها، وأن ذلك لا يقتضي الحلول والاختلاط بالخلق، فضلًا عن أن يستلزمه، ورأيت من الواجب استبعاد كلمة (ذاتية)، وبيَّنتُ أوجه الجمع بين علو الله تعالى وحقيقة المعية.

استغنى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كلمة «ذاتية»؛ لأنها فُهمت خطأ.



المتن

واعلم أن كلَّ كلمة تستلزم كون الله تعالى في الأرض، أو اختلاطَهُ بمخلوقاتِهِ، أو نفيَ علوِّه، أو نفيَ استوائه على عرشه، أو غيرَ ذلك ممَّا لا يليق به تعالى؛ فإنها كلمة باطلة، يجب إنكارها على قائلها كائنًا من كان، وبأيِّ لفظ كانت، وكل كلام يوهم -ولو عند بعض الناس- ما لا يليق بالله تعالى، فإن الواجب تجنبه؛ لئلا يُظَنَّ بالله تعالى ظَنَّ السَّوء، لكن ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فالواجب إثباتُه، وبَيَانُ بطلان وَهْمِ من توهَّمَ فيه ما لا يليق بالله ﷻ.

جزى اللهُ الشيخَ خيرًا على هذا التوضيح، وعلى ما تحمَّله من أذىً، فالشيخ لم يكابر ولم يقل: بما أني أعتقدها وقلتها، وأنا متأكد منها، وكلامي الأول يدلُّ على أني ما أردتُ هذا المعنى؛ فلن أتراجع عنها مع أنَّه في المقال نفسه قال: إن الله مستوٍ على عرشه، منَزَّه عن ممازجة الخلق في الأرض، ومن قال غير ذلك فهو كاذب أو ضال إلى غير ذلك، فأراد بكلمة (ذاتية) التوكيد كما يُقال: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا بذاته، وهذه الكلمة قالها شيخ الإسلام ابن تيمية ردًّا على من يقول: تنزل رحمته، أو ينزل مَلَكٌ من ملائكته، أو ينزل أمره ،قال: بل ينزل الله بذاته، فالكلمة من باب التوكيد للرد على من يحمل الكلام على المجاز، أو يحرِّفه ويؤوله.

لكن عندما شُنِّع على المؤلف، ترك هذه الكلمة توحيدًا للصف وجمعًا للكلمة، فقال: رجعتُ أو أمسكتُ عن كلمة (بذاته)، وكتب هذه الكلمة بين يدي الشيخ ابن باز رحمه الله.

المتن

المثال السابع والثامن: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، حيث فسِّر القرب فيهما بقرب الملائكة.

والجواب: أن تفسير القُرْبِ فيهما بقرب الملائكة ليس صرفًا للكلام عن ظاهره لمن تدبره.

أما الآية الأولى: فإن القربَ مقيَّدٌ فيها بما يدل على ذلك، حيث قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ففي قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ،دليلٌ على أنَّ المراد به قربُ الملكين المتلَقِيَيْنِ.

لما قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ،أي: الملَكان، فالآية واضحة.

والآية التي فهمت على غير المعنى المراد هي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، فقد فُسِّر بقرب الملائكة من الإنسان، فاحتج المحرِّفون فقالوا: تقولون: إنَّكم لا تؤولون، وها أنتم قد أولتم قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، فقلتم: إنه قُرْبُ الملائكة، فأنتم إذاً صرفتموها عن ظاهرها، فنقول: هذا ظاهرها، فالسياق كلُّه في الملائكة، لكن لـمَّا كانوا قد أُرسلوا، وكُلفوا بأمر الله تبارك وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.



المتن

وأما الآية الثانية: فإن القرب فيها مقيَّد بحال الاحتضار.

والذي يحضر الميتَ عند موته هم الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، ثم إنَّ في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ دليلًا بيِّنًا على أنهم الملائكة، إذ يدل على أن هذا القريب في نفس المكان، ولكنْ لا نبصره، وهذا يعيِّن أن يكون المرادُ قُرْب الملائكة؛ لاستحالة ذلك في حق الله تعالى.

بقي أن يقال: فلماذا أضاف الله عَزَّوَجَلَّ القرب إليه؟ وهل جاء نحوُ هذا التعبير مرادًا به الملائكة؟

فالجواب: أضاف الله تعالى قرب الملائكة إليه؛ لأن قربهم بأمره، وهم جنوده ورسله.

وقد جاء نحو هذا التعبير مرادًا به الملائكة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾، فإنَّ المراد به: قراءة جبريل عليه السلام القرآن على رسول الله ﷺ، مع أن الله تعالى أضاف القراءة إليه، لكن لمَّا كان جبريل يقرؤه على النبي ﷺ بأمر الله تعالى صحَّت إضافة القراءة إليه تعالى.

وكذلك جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾، وإبراهيم إنَّما كان يجادل الملائكة الذين هم رسل الله تعالى.

القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، والذي يَنزِلُ به إلى محمد ﷺ ويقرأه عليه هو جبريل عليه السلام، والله يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾، و كلام العرب الذي نزل القرآن بلغتهم،

يصح فيه نسبة الفعل إلى الآمر به، يقال: بنى الأميرُ القصر، والأمير لم يضع لبِنَة واحدةً في القصر، لكن يقال: بناه؛ لأنه هو الذي أمر ببنائه، و أنفق عليه.

ويقولون: فتح القائد الفلاني المِصْرَ الفلاني، وقد يكون ما ذهب إلى هناك، لكن هو الذي جيَّش الجيوش، وأمرها وخطَّط لها... إلى آخره.



المتن

المثال التاسع والعاشر: قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾، وقوله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾.

والجواب: أن المعنى في هاتين الآيتين على ظاهر الكلام وحقيقته، لكن ما ظاهر الكلام وحقيقته هنا؟

هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن السفينة تجري في عين الله؛ أو أن موسى عليه الصلاة والسلام يُربى فوق عين الله تعالى؟!

أو يقال: إنَّ ظاهره أن السفينة تجري، وعين الله ترعاها وتكلؤها، وكذلك تربية موسى تكون على عين الله تعالى، ترعاه ويكلؤه بها.

ولا ريب أنَّ القول الأول باطل من وجهين:

الأول: أنه لا يقتضيه الكلام بمقتضى الخطاب العربي، والقرآن إنَّما نزل بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾، ولا أحدَ يفهم من قول القائل: (فلان يسير بعيني) أنَّ المعنى أنه يسير داخل عينِهِ، ولا من قول القائل: فلان تخرَّج على عيني، أن تَخرُّجه كان وهو راكب على عينه، ولو ادَّعى مدَّع أن هذا ظاهر اللفظ في هذا الخطاب لضحك منه السفهاء، فضلًا عن العقلاء.

الثاني: أن هذا ممتنع غايةَ الامتناع، ولا يمكن لمن عرف الله وقدَرَهُ حق قَدْرِهِ أن يفهمه في حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى مستو على عرشه، بائنٌ من خلقه لا يحلُّ فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو حالٌّ في شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

فإذا تبين بطلانُ هذا من الناحية اللفظيَّة والمعنويَّة تعين أن يكون ظاهر الكلام هو القول الثاني: أن السفينة تجري، وعين الله ترعاها وتكلؤها، وكذلك تربية موسى تكون على عين الله يرعاه ويكلؤه بها، وهذا معنى قول بعض السلف: (بمرأى مني)، فإن الله تعالى إذا كان يكلؤه بعينه لزِمَ من ذلك أن يراه، ولازم المعنى الصحيح جزء منه، كما هو معلوم بدلالة اللفظ حيث تكون بالمطابقة والتضمُّن والالتزام.

ما زعم أهل البدع بأنَّه ظاهر الآيتين باطل وممتنع، فالله ﷻ لا يحلُّ في شيء من خلقه، ولا شيء من خلقه يحل فيه، بل هوﷻ مستوٍ على عرشه بائن مِن خلقه ، إذا قُلتَ: فلان أضعه في عيني أو على رأسي، فليس المقصود أن تضعه بداخل عينك أو تضعه على رأسك.

الله ﷻ لا يحلُّ فيه شيء من مخلوقاته، ولا ذاتُ الله ﷻ تحل في شيء من مخلوقاته، بل الله ﷻ بائن عن مخلوقاته سبحانه وتعالى -هذا ما قاله أهل العلم، مستوٍ على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، لكن قالوا: بائن عن خلقه ردًّا على من قال: إن الله حالٌّ في خلقه.

هذه الآيات: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾، ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، تدلُّ على إثبات العين لله، لكن هذا التركيب ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، يعني :بمرأى مني، أي: بحفظي ورعايتي أكلؤها وأربِّيها ؛ وذلك لأن لغة العرب التي نزل بها القرآن لا يصحُّ أن يعبَّر فيها بمثل هذا التعبير في حق من لا عَيْن له، فلا يصحُّ أن يقول من لا عين له في عيني كذا.



المتن

المثال الحادي عشر: قوله تعالى في الحديث القدسي: «وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه».

ولذلك نقول في الرد عليهم: والجواب: أنَّ هذا الحديث صحيح، رواه البخاري في باب التواضع، الثامن والثلاثين من كتاب الرقاق.

وقد أخذ السلف أهل السنة والجماعة بظاهر الحديث، وأجرَوْهُ على حقيقته، لكن ما ظاهر هذا الحديث؟

هل يقال: إنَّ ظاهره أن الله تعالى يكون سمع الوليِّ وبصره ويده ورجله؟ أو يقال: إنَّ ظاهره أن الله تعالى يسدد الولي في سمعه وبصره ويده ورجله؛ بحيث يكون إدراكه وعمله لله، وبالله، وفي الله؟

ولا ريب أنَّ القول الأول ليس ظاهر الكلام، بل ولا يقتضيه الكلام لمن تدبَّر الحديث، فإن في الحديث ما يمنعه من وجهين:

ما زال الناس يتكلَّمون بهذا الأسلوب فيقول أحدهم: فلانٌ ذراعي اليمين، أي: يساندني، ولا أستطيع أن أستغني عنه، وهذا الذي يُفهم منه، وهذا هو ظاهر الكلام، فالله ﷻ تكلَّم بهذا الحديث القدسي، كما يتكلَّم العرب بلغتهم؛ وسياق الحديث يدلُّ على ذلك قال: **كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»، فصار الذي يتولاه هو الله ﷻ فيسدِّده ويحفظه في جوارحه، فبعد أن حافظ على الفرائض، وتقرب إلى الله بالنوافل حفظه الله تعالى وسدَّده، فجعل سمعه لا يقع ولا يُستعمل إلا فيما يرضي الله، وبصره لا ينظر إلا فيما يرضي الله تعالى، وكذلك يده لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله تعالى، ورجلاه لا يمشي بهما إلا إلى ما يرضي الله تعالى.

المتن

الوجه الأول: أن الله تعالى قال: «وما زال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه»، وقال: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»، فأثبت عبدًا ومعبودًا، ومتقرِّبًا ومتقرَّبًا إليه، ومحبًّا ومحبوبًا، وسائلًا ومسؤولًا، ومعطيًا ومعطىً، ومستعيذًا ومستعاذًا به، ومعيذًا ومعاذًا.

فسياق الحديث يدل على اثنين متباينين ،كلٌّ واحد منهما غير الآخر، وهذا يمنع أن يكون أحدهما وصفًا في الآخر ،أو جزءًا من أجزائه.

الوجه الثاني: أن سمع الولي وبصره ويده ورجله كلَّها أوصافٌ أو أجزاءٌ في مخلوق حادث بعد أن لم يكن، ولا يمكن لأي عاقل أن يفهم أن الخالق الأول الذي ليس قبله شيء يكون سمعًا وبصرًا ويدًا ورِجلًا لمخلوق، بل إن هذا المعنى تشمئزُّ منه النفس أن تتصوره، ويحسِرُ اللسان أن ينطق به ،ولو على سبيل الفرض والتقدير، فكيف يسوغ أن يقال: إنه ظاهر الحديث القدسي، وإنه قد صُرِفَ عن هذا الظاهر؟ سبحانك اللهم وبحمدك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

وإذا تبيَّن بطلان القول الأول وامتناعُه تعيَّن القول الثاني، وهو أن الله تعالى يسدِّد هذا الولي في سمعه، وبصره، وعمله، بحيث يكون إدراكه بسمعه وبصره وعمله بيده ورجله كلُّه لله تعالى إخلاصًا، وبالله تعالى استعانة، وفي الله تعالى شرعًا واتباعًا، فيتم له بذلك كمال الإخلاص والاستعانة والمتابعة، وهذا غاية التوفيق، وهذا ما فسره به السلف، وهو تفسير مطابق لظاهر اللفظ، موافق لحقيقته، متعين بسياقه، وليس فيه تأويل، ولا صرف للكلام عن ظاهره، ولله الحمد والمنَّة.

قوله: «**وما زال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»، أي: أنَّ الله تعالى يحب العبد، فهناك فرق بين الخالق والمخلوق، و بين العابد والمعبود، فالله تعالى هو الخالق المعبود، والمخلوق عابدٌ، إذًا كيف يقال: إن هذا حلول؟

يقول غلاة المتصوِّفة: إن الموجودَ شيء واحد، وهو الله ﷻ، وهذه عقيدة وحدة الوجود، وعقيدة الحلول قريبة منها.

وحدة الوجود: أن كلَّ موجود هو الله، حتى يقول بعض الزنادقة: أنا الله، وأنت الله؛ لأن كل هذه المخلوقات حقيقة هي ذات واحدة، وهي ذات الإله؛ جعلوا هذه المخلوقات كلَّها هي الله حتى بلغ فيهم الكفر والإلحاد أن قالوا: إن فرعون لما قال: أنا ربكم الأعلى، لم يخطئ؛ لأن فرعون عبارة عن صورة من صور الله، وهذا القول غاية في الكفر والإلحاد.

وحينئذ سيؤول الأمر إلى أن يلزمهم، وقد التزموه، وهو: أن الله ﷻ هو الرجل، وهو المرأة حتى يقول كافرهم وملحدهم ابن عربي: الرجل إذا وطئ امرأته ففي الحقيقة أن الذات الإلهية تطأ الذات الإلهية.

يقول ابن القيِّم:

يا أمة معبودها موطوؤها أين الإله وثغرة الطَّعَّانِ[(١)]

الرجل -وهو مخلوق -إذا قيل له: أنت امرأة لا يرضى، فكيف يقال ذلك عن الله ﷻ؟! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

بل يقول قائلهم - قبحهم الله، وتعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا -:

وما الكلب و الخنزير إلا إلهنا *** وما الله إلا راهب في كنيسة

هذه عقائد خبيثة وموجودة وما زالت، ويستدلون بمثل هذه النصوص

(١) انظر نونية ابن القيم الفصل (٧) أول عقد مجلس التحكيم رقم البيت (٣١١).

وهي في الحقيقة لا تسعفهم، وما من صاحب باطل إلا ويستدلُّ، حتى إبليس لما أبى أن يسجد لآدم عليه السلام أتى بدليل، ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ، يقول أهل العلم: كذب عدوُّ الله، فمادة الطين مادة مجمِّعة، ومادة النار مادة مفرِّقة، والطين خير من النار، وهكذا أهل الباطل يستدلون بأي دليل، قد يأتون بحديث موضوع مكذوب، ويستدلُّون به، أو يأتون بالآية فيستدلُّون بها على خلاف مراد الله بها ،ويجعلونها دليلاً لما يقولون، تنبَّه لهذا، ولا يمكن حربهم ومواجهتهم إلا بالعلم، فبه تستطيع أن تفنِّد شبههم وحججهم وأدلَّتهم، وتردَّ عليهم.

فالسياق يدل على أن فيه ذكر العبد والمعبود لقوله: «**عبدي**»، وفيه سائل ومسؤول لقوله: «**ولئن سألني لأعطينه**»، وفيه مستعيذ ومستعاذ به، لقوله: «**ولئن استعاذني لأعيذنه**»، فكيف جعلوهما شيئاً واحداً؟



المتن

المثال الثاني عشر: قوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: « مَن تقرَّب منِّي شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، ومَن تقرَّب منِّي ذراعًا تقربتُ منه باعًا، ومَن أتاني يمشي أتيته هرولة».

وهذا الحديث صحيح رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وروى نحوه من حديث أبي هريرة أيضًا، وكذلك روى البخاري نحوه مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب التوحيد الباب الخامس عشر، وهذا الحديث كغيره من النصوص الدالَّة على قيام الأفعال الاختياريَّة بالله تعالى، وأنه سبحانه فعَّال لما يريد، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، وقوله ﷺ: «ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر».

وقوله ﷺ: **«ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه»**، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على قيام الأفعال الاختيارية به تعالى.

يعني: هذه الصفات التي وردت بها النصوص صفات فعليَّة متعلِّقة بمشيئته متى شاء فعلها.



المتن

فقوله في هذا الحديث: «تقرَّبت منه»، و«أتيته هرولة» من هذا الباب، والسلف (أهل السنَّة والجماعة) يُجْرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول (ص٤٦٦/ج٥) من مجموع الفتاوى: (وأما دنوه نفسُه وتقرُّبه من بعض عباده فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختياريَّة بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواؤه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر). اهـ.

فأيُّ مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع علوِّه؟ وأي مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟ وهل هذا إلا من كماله أن يكون فعَّالًا لما يريد على الوجه الذي به يليق؟

وذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «أتيته هرولة»، يراد به سرعة قبول الله تعالى وإقباله على عبده المتقرب إليه المتوجه بقلبه وجوارحه، وأن مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل، وعلَّل ما ذهب إليه بأن الله تعالى قال في الحديث: «ومن أتاني يمشي»، ومن المعلوم أن المتقرِّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الطالب للوصول إليه لا يتقرَّب ويطلب الوصول إلى الله تعالى بالمشي فقط، بل تارة يكون بالمشي كالسير إلى المساجد، ومشاعر الحج، والجهاد في سبيل الله ونحوها، وتارة بالركوع، والسجود، ونحوهما.

وقد ثبت عن النبي ﷺ: «أن أقربَ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» بل قد يكون التقرب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه والعبد مضطَّجع على جنبه، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾.

وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب».

قال: فإذا كان كذلك صار المراد بالحديث بيانَ مجازاة الله تعالى العبدَ على عمله، وأن من صدق في الإقبال على ربِّه وإن كان بطيئًا جازاه الله تعالى بأكمل من عمله وأفضل، وصار هذا هو ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعيَّة المفهومة من سياقه.

وإذا كان هذا ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعيَّة، لم يكن تفسيره به خروجًا به عن ظاهره، ولا تأويلًا كتأويل أهل التعطيل، فلا يكون حجَّة لهم على أهل السنة، ولله الحمد.

وما ذهب إليه هذا القائل له حظ من النظر، لكن القول الأول أظهر وأسلم، وأليق بمذهب السلف.

ويُجاب عما جعله قرينة من كون التقرُّب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه لا يختص بالمشي؛ بأن الحديث خرج مخرج المثال لا الحصر فيكون المعنى: من أتاني يمشي في عبادة تفتقر إلى المشي؛ لتوقُّفها عليه بكونه وسيلة لها كالمشي إلى المساجد للصلاة، أو مِن ماهيتها: كالطواف والسعي، والله تعالى أعلم.

هذا الحديث: «**ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**» فيه قولان لأهل العلم:

القول الأوَّل: أن في الحديث إثبات صفة الهرولة لله ﷻ «**من أتاني يمشي أتيته هرولة**» ، نثبت الهرولةَ لله على ظاهرها، وهي من الأفعال الاختيارية المتعلِّقة بمشيئة الله التي متى شاء فعلها، كما أنَّه ينزل إلى السماء الدنيا إذا شاء، ويستوي على العرش إذا شاء، ويجيء إذا شاء، ويأتي إذا شاء، كذلك يهرول إذا شاء على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى.

القول الثاني: أنَّ سياق الحديث يدلُّ على أنَّه كلما تقرب العبدُ إلى الله ﷻ كان عطاءُ الله أسرع، وأفضل، وأعظم؛ وذلك لأن التقرُّب لا يكون بالمشي فحسب، بل قد يتقرَّب الإنسان بذكر الله وسؤاله وهو راكع، أو هو ساجد ، كما أنه لا يمكن للإنسان أن يتقرَّب إلى الله بالأشبار، فلو قلنا: التقرُّب إلى الله بالمشي، هذا واقع وهو المشي إلى المساجد، والمشي في سبيل الله، والسعي على الأرملة والمسكين، والمشي لتغيير منكر، والمشي لصلة الرحم، لكن لا يوجد عبادة يُتقرب بها إلى الله بالأشبار، فصار المعنى أنه كلما تقرَّب العبد إلى الله، ولو ببطء جازاه الله بخير مما تقرَّب إليه.

فهذا قول له وِجهةٌ من النظر، وهو أيضًا مأثور عن بعض أهل السنة، وصَرْفُ ظاهر الحديث بالتفسير الثاني، ليس مُسَوِّغًا لأهل البدع الذين يصرفون ظاهر النصوص من غير قرينة، فالسياق يدل على ذلك المعنى، وإن كان الأسلم والأليق بمذهب السلف أن نُبقي هذا الحديث على ظاهره، كما أبقينا سائر النصوص.



المتن

المثال الثالث عشــر: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾.

والجواب: أن يُقال: ما هو ظاهر هذه الآية وحقيقتها حتى يقال: إنها صُرِفَتْ عنه؟

هل يقال: إن ظاهرها أن الله تعالى خلق الأنعام بيده كما خلق آدم عليه السلام بيده؟ أو يقال: إنَّ ظاهرها أن الله تعالى خلق الأنعام كما خلق غيرها، لم يخلقها بيده لكنَّ إضافة العمل إلى اليد والمراد صاحبُها معروف في اللغة العربيَّة التي نزل بها القرآن الكريم؟

لو كانت الأنعام خُلقت بيد الله لما كان ثَمَّ فرق بين الأنعام وبين آدم عليه السلام، وآدم عليه السلام قد ميَّزه الله بأن خلَقَه بيديه، وأَسْجَدَ له الملائكةَ، حتى إنَّ الناس يوم القيامة يأتون إلى آدم عليه السلام، فيقولون له: «**يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾، أضاف الخلق إلى الأيدي، وليس معنى هذا أن الله خلق الأنعام بيديه كما خلق آدم عليه السلام بيديه فهذا بعيد؛ إذ لو كان كذلك لتساوت الأنعام بالفضل مع آدم عليه السلام، ومعلوم أن بقية البشر لم يشاركوا بهذه الميزة آدم عليه السلام، ولذلك لـمَّا لخَلَق الله عز وجل آدم بيديه خَلَقَه من طين، ثم جعل سلالته من ماء مَهين.

وأضيف العمل إلى يد الله عز وجل في قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ والمراد به:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم:(٦٥٦٥)، ومسلم برقم: (١٩٤).

صاحب اليد، وهذا من كلام العرب، فلو أن إنساناً كَفَر وعُذِّب في النار يقال له: هذا مما كسبت يداك -وقدَّمته يداك-، وقد يكون كُفْرُه بالقلب، أو باللسان، فكيف يُقال: ممَّا عملت يداك، أو ممَّا كسبت يداك؟! الجواب لأن المراد مما كسبتم، لكن نسب الشيء لليد، ويراد به صاحب اليد.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، المراد الإضافة إليه كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته به» [1].



(١) مختصر الصواعق (١/٢٦٩).

المتن

أمَّا القول الأول فليس هو ظاهر اللفظ؛ لوجهين:

أحدهما: أن اللفظ لا يقتضيه بمقتضى اللسان العربي الذي نزل القرآن به، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، الذين أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم لم يرتكبوا ذنوبهم بالأيدي فقط، فالذُّنوب منها ما يرتكب بالقلب، كالاعتقاد الفاسد، والأمراض القلبيَّة، ومنها ذنوب تُرتكب باللسان، بل أكثر خطايا ابن آدم في لسانه كما قال النبي ﷺ: «**أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»(١)، وقال: «**هل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم**»، أو «**على مَناخِرِهم إلا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهم**»(٢).

إذًا القلب يُذنب، واللسان يُذنب، والجوارح تُذنب كذلك.

فقوله ﷻ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، ليس المراد: ممَّا عملت الأيدي فقط، وإنما المراد أصحاب الأيدي، وهذا من كلام العرب ولغتهم.



(١) أخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» برقم: (١٠٤٤٦)، وانظر: «الصحيحة» (٥٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي برقم:(٢٨٠٤)،وابن ماجه في سننه برقم:(٣٩٧٣)،وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم(٥١٣٦).

المتن

وقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ فإن المراد ما كسبه الإنسان نفسُه، وما قدَّمه، وإن عمله بغير يده، بخلاف ما إذا قال: عملتُهُ بيدي، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فإنه يدل على مباشرة الشيء باليد.

الثاني: أنه لو كان المراد أن الله تعالى خلق هذه الأنعام بيده لكان لفظ الآية: خلقنا لهم بأيدينا أنعامًا، كما قال الله تعالى في آدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾؛ لأن القرآن نزل بالبيان لا بالتعمية؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾.

وإذا ظهر بطلانُ القول الأول تعيَّن أن يكون الصواب هو القول الثاني، وهو: أن ظاهر اللفظ أن الله تعالى خلق الأنعام كما خلق غيرها، ولم يخلقها بيده، لكن إضافة العمل إلى اليد كإضافته إلى النفس بمقتضى اللغة العربية، بخلاف ما إذا أضيف إلى النَّفْسِ، وعُدِّيَ بالباء إلى اليد، فتنبَّهْ للفرق؛ فإن التنبه للفرق بين المتشابهات من أجود أنواع العلم، وبه يزول كثير من الإشكالات.

لو قال: عملتُ بيدي، فأدخل حرف الجر الباء على كلمة يد فقال: (بيدي)، فيحمل على أنه باشر العمل بيده.

﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، إذًا اليد هي التي تقوم بهذا الشيء، ودخول حرف الجر على (يديَّ) في قوله تعالى ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، يدل على أن اليد باشرت

الخلق بخلاف قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾.

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام على قوله تعالى ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾: «فلو كان مثل قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ لكان هو والأنعام في ذلك سواء.

فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ يوجب له تخصيصًا وتفضيلًا بكونه مخلوقًا باليدين على من أُمِرَ أن يَسجد له، وفَهِمَ ذلك أهلُ الموقف حين جعلوه من خصائصه، كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا﴾ خطأً محضًا»[1].



(١) مختصر الصواعق (١/٢٦٩).

المتن

المثال الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

والجواب: أن يقال: هذه الآية تضمنت جملتين:

الجملة الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

وقد أخذ السلف (أهل السنَّة) بظاهرها وحقيقتها، وهي صريحة في أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يبايعون النبي ﷺ نفسَه، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

ولا يمكن لأحد أن يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾**، أنهم يبايعون الله نفسَه، ولا أن يدَّعي أن ذلك ظاهر اللفظ؛ لمنافاته لأول الآية والواقع، واستحالتِه في حقِّ الله تعالى.**

أوَّل الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ ،أي: يا رسول الله ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، يقول أهل الإلحاد من الحلوليَّة: إنَّ الله ﷻ حَلَّ في ذات محمد ﷺ، فكان محمد ﷺ يمُدُّ يده، والله حالٌّ في محمد ﷺ، فالناس يبايعون الله ﷻ، الذي حلَّ في ذات محمد ﷺ، هكذا يقولون، وهذا باطل، والحق أن هذا كقول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ،الذي يبايع الرسول ﷺ بأمر من الله فقد بايع الله، والذي يطيع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى الرسول ﷺ فقد عصى الله ﷻ، فلأنهم بايعوا النبي ﷺ فبيعتهم مع النبي ﷺ وهو مرسل من الله فصارت بيعة لله.

المتن

وإنما جعل الله تعالى مبايعة الرسول ﷺ مبايعة له؛ لأنه رسوله، وقد بايع الصحابة على الجهاد في سبيل الله تعالى، ومبايعة الرسول ﷺ على الجهاد في سبيل من أرسله مبايعة لمن أرسله؛ لأنه رسوله المبلغ عنه، كما أن طاعة الرسول طاعة لمن أرسله لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

وفي إضافة مبايعتهم الرسول ﷺ إلى الله تعالى من تشريف النبي ﷺ وتأييده، وتوكيدِ هذه المبايعة، وعِظَمها، ورفع شأن المُبايعةِ ما هو ظاهر لا يخفى على أحد.

تفسير أهل السنة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ،ليس فيه تأويل ولا صرف للفظ عن ظاهره؛ لأنهم يبايعون الله بمبايعتهم لرسول الله ﷺ، والله هو الذي أرسل رسوله ﷺ.

مثال: هناك معاهدات بين بلدين، يأتي وفد من هذه الدولة، ووفد من تلك الدولة، ويقال: تعاهدَ البَلدان، لأنه ذهب من يمثلها، وقد لا يمثله تمثيلاً كاملاً، ومع ذلك معاهدته تعتبر معاهدة للكل، ولذلك بعض التكفيريين الضالين المنحرفين إذا قيل لهم: الكفار في بلاد المسلمين معاهدون، يقولون: نحن ما عاهدناهم !! ومن أنت حتى تُعْقد معك المعاهدة؟ أنت واحد من أفراد الناس. وشبهتهم أنَّ الذي عاهدهم هو الحاكم، وهو كافر أيضًا، فلا تصحُّ معاهدته.

وهذا الكلام باطل من وجهين:

أولًا: الحاكم -كما نعتقد- مسلم.

ثانيًا: المعاهدة لو قامت من وليِّ الأمر، فهي معاهدة تشمل أفراد الأمة

جميعًا، وليس صحيحًا أن يعاهدَ المسلمين كلهم ذلك الكافر، بل لو أن فردًا -غير الحاكم- أجار كافرًا، فالكافر يعتبر معصومَ الدم على جميع المسلمين، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب (أخت علي بن أبي طالب ﵁) رجلًا مشركًا وسمعت أن عليًّا ﵁ يريد قتله، فذهبت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أجرت فلانًا، -وهو مشرك-، وقد زعم ابن أمي أنه قاتله، فقال الرسول ﷺ: «**قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ**»[1] أي: دخل في العهد، وهكذا إذا بايع أحدٌ النبيَّ ﷺ فقد بايع الله، وهذا معلوم ومعروف في لغة العرب.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٥٧)، ومسلم برقم:(٣٣٦).

المتن

الجملة الثانية: قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

وهذه أيضًا على ظاهرها وحقيقتها، فإنَّ يد الله تعالى فوق أيدي المبايعين؛ لأن يده من صفاته، وهو سبحانه فوقهم على عرشه، فكانت يده فوق أيديهم، وهذا ظاهر اللفظ وحقيقته، وهو لتوكيد كون مبايعة النبي ﷺ مبايعة لله ﷻ، ولا يلزم منها أن تكون يد الله جل وعلا مباشرة لأيديهم، ألا ترى أنه يقال: السماء فوقنا، مع أنها مباينة لنا، بعيدة عنَّا.

فيد الله ﷻ فوق أيدي المبايعين لرسوله ﷺ مع مباينته تعالى لخلقه، وعلوِّه عليهم، ولا يمكن لأحد أن يفهم أنَّ المراد بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، يد النبي ﷺ، ولا أن يدَّعي أن ذلك ظاهرُ اللفظ؛ لأن الله تعالى أضاف اليد إلى نفسه، ووصفها بأنها فوق أيديهم، ويد النبي ﷺ عند مبايعة الصحابة لم تكن فوق أيديهم، بل كان يبسطها إليهم، فيمسك بأيديهم كالمصافح لهم، فيَدُهُ مع أيديهم لا فوق أيديهم.

السماء مخلوقة، ونحن مخلوقون، ويُقال: السماء فوقنا، وليست ملتصقة برؤوسنا، ويقال: يد الله فوق أيديهم، ولا يلزم من كون يد الله فوق أيديهم أن تكون ملاصقة لأيديهم، وأصحاب الحلول استدلوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، على أن الله ﷻ حالٌّ في محمد ﷺ، فكان يبايعهم محمد ﷺ، ومحمد هو الله، بدليل تتمة الآية ، ويقولون :إن السياق يسعفهم في قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، وكانت يد محمد فوق أيديهم مما يدلُّ على أن محمداً هو الله، وقد تقدَّم الرد عليهم، وبيان بطلان مذهبهم.

المتن

المثال الخامس عشر: قوله تعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعدني...» الحديثَ.

وهذا الحديث رواه مسلم في باب (فضل عيادة المريض) من كتاب البـِّر والصلة والآداب (رقم٤٣/ ص ١٩٩٠/ ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي).

رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني،قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمتَ أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمتَ أنه استطعَمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم، استسقيتُك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

والجواب: أن السَّلف أخذوا بهذا الحديث ولم يصرفوه عن ظاهره بتحريف يتخبطون فيه بأهوائهم، وإنَّما فسَّروه بما فسَّره به المتكلِّم به، فقوله تعالى في الحديث القدسي: (مرضت...واستطعمتك... واستسقيتك) بيَّنه الله تعالى بنفسه حيث قال: (أما علمتَ أنَّ عبدي فلانًا مرض، وأنه استطعمك عبدي فلان، واستسقاك عبدي فلان)، وهو صريح في أن المراد به مرضُ عبد من عباد الله، واستطعام عبد من عباد الله، واستسقاء عبد من عباد الله، والذي فسَّره بذلك هو الله المتكلِّم به وهو أعلم بمراده، فإذا فسرنا المرضَ المضاف إلى الله، والاستطعامَ المضاف إليه، والاستسقاءَ المضاف إليه بمرض العبد، واستطعامه، واستسقائه، لم يكن في ذلك صرف الكلام عن ظاهره؛ لأن ذلك تفسير المتكلِّم به فهو كما لو تكلَّم بهذا المعنى ابتداءً، وإنَّما أضاف الله ذلك إلى نفسه أولًا للترغيب والحثِّ، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾.

فالحديث واضح، وليس فيه صرف للكلام عن ظاهره؛ لأن العبد يقول: «**ربي كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت لو أنَّك أطعمته لوجدت ذلك عندي**»، لم يقل ﷻ لأطعمتني؛ لأنه سبحانه وتعالى ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وهو القائلُ جلَّ وعلا: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، فالحديث يفسر نفسه: فالذي استطعم، ومرض، واستسقى هو العبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا صريح في أن الله سبحانه لم يَمرض، ولم يَجُعْ، ولكن مَرِضَ عبده وجاع عبده، فجعل جوعَه جوعَه ومرضَه مرضَه، مُفَسِّرًا ذلك بأنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي، ولو عدتَه لوجدتني عنده، فلم يبقَ في الحديث لفظٌ يحتاج إلى تأويل»[1].

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ ،أي: يتصدق في سبيل الله، وسَمَّى الله ﷻ ذلك قرضًا؛ لأن حق المُقرِض أن يُرَدَّ له القرض، فأوجب الله ﷻ على نفسه أن يرد القرض له بإحسان، فيعطي على الحسنة عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والله واسع عليم.

وليس المعنى: أن الله ﷻ بحاجة إلى قرض حتى يسد حاجاته، فيطلب مِن الناس قرضاً، فلا يفهم هذا إلا من انتكست بصيرته.



(١) التدمرية (ص٧٣).

المتن

وهذا الحديث من أكبر الحجج الدامغة لأهل التأويل الذين يحرفون نصوص الصفات عن ظاهرها بلا دليل من كتاب الله تعالى، ولا من سنة رسوله ﷺ، وإنما يحرِّفونها بشُبَهٍ باطلة هم فيها متناقضون مضطربون، إذ لو كان المراد خلاف ظاهرها كما يقولون لبيَّنه الله تعالى ورسوله، ولو كان ظاهرها ممتنعًا على الله -كما زعموا- لبيَّنه الله ورسوله كما في هذا الحديث، ولو كان ظاهرها اللائق بالله ممتنعًا على الله لكان في الكتاب والسنة من وصف الله تعالى بما يمتنع عليه ما لا يحصى إلا بكُلفة، وهذا من أكبر المحال.

ولنكتف بهذا القدر من الأمثلة؛ لتكون نبراسًا لغيرها، وإلا فالقاعدة عند أهل السنة والجماعة معروفة، وهي إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

وقد تقدَّم الكلام على هذا مستوفىً في قواعد نصوص الصفات، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة: إذا قال قائل: قد عرفنا بطلان مذهب أهل التأويل في باب الصفات، ومن المعلوم أن الأشاعرة من أهل التأويل، فكيف يكون مذهبهم باطلًا وقد قيل: إنهم يمثلون اليوم خمسة وتسعين بالمائة من المسلمين؟!

مَن الذي عمل إحصائية للأشاعرة، وقال بأنهم يُمثلون خمسة وتسعين بالمائة؟ وكيف عرف هذا؟ لا شك أن هذا زعم باطل، حتى لو كان خمسة وتسعون بالمائة أشاعرة، فلا يلزم هذا أن الحق مع الأكثر، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

المتن

وكيف يكون باطلًا وقدوتهم في ذلك أبو الحسن الأشعري؟

وكيف يكون باطلًا وفيهم فلان وفلان من العلماء المعروفين بالنصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم؟

قلنا: الجواب عن السؤال الأول: أننا لا نسلِّم أن تكون نسبة الأشاعرة بهذا القدر بالنسبة لسائر فرق المسلمين، فإنَّ هذه دعوى تحتاج إلى إثبات عن طريق الإحصاء الدقيق.

ثم لو سلَّمنا أنهم بهذا القدر أو أكثر فإنه لا يقتضي عصمتهم من الخطأ؛ لأن العصمة في إجماع المسلمين لا في الأكثر.

ثم نقول: إن إجماع المسلمين قديمًا ثابت على خلاف ما كان عليه أهل التأويل، فإن السلف الصالح من صدر هذه الأمة وهم الصحابة الذين هم خير القرون، والتابعون لهم بإحسان، وأئمة الهدى مِن بعدهم كانوا مجمعين على إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وإجراء النصوص على ظاهرها اللائق بالله تعالى مِن غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

وهم خير القرون بنص الرسول ﷺ، وإجماعُهم حجةٌ مُلزِمَة؛ لأنه مقتضى الكتاب والسنة، وقد سبق نقل الإجماع عنهم في القاعدة الرابعة مِن قواعد نصوص الصفات.

الصدر الأول من الإسلام ليس فيه أشعريٌّ واحد، بل حتى المؤسِّس نفسه لم يكن مخلوقًا حينها!

قال بعض الناس: إن الصحابة كانوا أشاعرة، فنقول: كيف هذا وأبو الحسن الأشعري ولد بعد زمن الصحابة؟! قالوا: كما يقال: قراءة حفص، وهي قراءة قرأ بها النبي ﷺ، فنسبت إلى حفص مع أن حفصاً أخذها عن شيخه إلى النبي ﷺ، وليس النبي ﷺ الذي أخذها عن حفص، فكذلك الصحابة أشاعرة، وإن كان أبو الحسن الأشعري قد أتى بعدهم، فنقول: هذا كلام باطل، واستخفافٌ بعقول الناس؛ لأن قراءة حفص أخذها عن مشايخه بالإسناد المتصل إلى النبي ﷺ فنُسِبَت إليه ؛لأنه هو الذي أظهرها وأشهرها.

لكن عقيدة أبي الحسن الأشعري لم تكن موجودة في الصدر الأول حتى يقال: الصحابة أشاعرة، وإنما هو وأمثاله استخرجوها من عقولهم، فكيف يقال:إن الصحابة أشاعرة؟! وكيف ينسب الأوَّل للآخر؟! فهذا لا يمكن.



المتن

والجواب عن السؤال الثاني: أن أبا الحسن الأشعري وغيرَه من أئمة المسلمين لا يدَّعون لأنفسهم العصمة من الخطأ، بل لم ينالوا الإمامة في الدين إلا حين عرفوا قدر أنفسهم، ونزلوها منزلتها، وكان في قلوبهم من تعظيم الكتاب والسنَّة ما استحقوا به أن يكونوا أئمة.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

ثم إن هؤلاء المتأخرين الذين ينتسبون إليه لم يقتدوا به الاقتداء الذي ينبغي أن يكونوا عليه، وذلك أن أبا الحسن كان له مراحلُ ثلاثٌ في العقيدة:

المرحلة الأولى: مرحلة الاعتزال:

اعتنق مذهب المعتزلة أربعين عامًا، يقرره ويناظر عليه، ثم رجع عنه وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الردِّ عليهم.

المرحلة الثانية: مرحلة بين الاعتزال المحض والسنَّة المحضة سلك فيها طريق أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية(ص ٤٧١) من المجلد السادس عشر في مجموع الفتاوى لابن قاسم: «والأشعريُّ وأمثاله برزخ بين السلف والجهمية، أخذوا من هؤلاء كلامًا صحيحًا ومن هؤلاء أصولًا عقلية ظنُّوها صحيحة، وهي فاسدة» ا هـ.

المرحلة الثالثة: مرحلة اعتناق مذهب أهل السنة والحديث الذين إمامهم الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما قرَّره في كتابه "الإبانة عن أصول الديانة" وهو من آخر كتبه أو آخرها.

الأشاعرة المنحرفون الآن ينكرون أن يكون أبو الحسن تراجع إلى مذهب السلف، ولذلك ينكرون نسبة كتاب الإبانة، إلى أبي الحسن الأشعري، وكذا ينكرون نسبة كتاب (رسالة إلى أهل الثغر)، وفيه أثبت الأشعري الصفات الفعلية لله.



المتن

قال في مقدِّمته: «جاءنا -يعني: النبي ﷺ- بكتاب عزيز ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

جمع فيه علم الأولين، وأكمل به الفرائض والدين، فهو صراط الله المستقيم، وحبله المتين، من تمسك به نجا، ومن خالفه ضلَّ وغوى، وفي الجهل تَردَّى، وحثَّ الله في كتابه على التمسك بسنَّة رسوله ﷺ، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾».

إلى أن قال: «فأمرهم بطاعة رسوله كما أمرهم بطاعته، ودعاهم إلى التمسُّك بسنة نبيِّه ﷺ كما أمرهم بالعمل بكتابه، فنبذ كثير ممَّن غلبت شقوته، واستحوذ عليهم الشيطان سنن نبي الله ﷺ وراء ظهورهم، وعدلوا إلى أسلاف لهم قلَّدوهم بدينهم ودانوا بديانتهم، وأبطلوا سنن رسول الله ﷺ ورفضوها وأنكروها وجحدوها افتراءً منهم على الله ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

ثم ذكر أصولًا من أصول المبتدعة، وأشار إلى بطلانها، ثم قال: «فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والجهمية، والحرورية، والرافضة، والمرجئة، فعرِّفُونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون؟

قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسُّك بكتاب ربِّنا عَزَّ وَجَلَّ وبسنَّة نبينا ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل -نضَّر الله وجهه ورفع درجته، وأجزل مثوبته- قائلون، ولمن خالف قوله

مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل»(١).

ثم أثنى عليه بما أظهر الله على يده من الحق، وذكر ثبوت الصفات، ومسائل في القدر، والشفاعة، وبعض السمعيَّات، وقرر ذلك بالأدلة النقليَّة والعقليَّة.

والمتأخِّرون الذين ينتسبون إليه أخذوا بالمرحلة الثانية من مراحل عقيدته، والتزموا طريق التأويل في عامة الصفات، ولم يثبتوا إلا الصفات السبع المذكورة في هذا البيت:

حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلامُ له

إرادة وكذاك السمع والبصر

على خلاف بينهم وبين أهل السنة في كيفية إثباتها.

أثبت أهل السنة والجماعة هذه الصفات السبع لله ﷻ؛ لأنها ثابتة لله ﷻ بالكتاب والسنة ، أما الأشاعرة فأثبتوها عن طريق العقل.



(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: (الرئيس الكامل)، ليس فيها محظورٌ شرعيٌّ؛ لأنه يعني: كاملٌ بالنسبة لمن بعده، أو بالنسبة لأهل التعطيل، وما أشبه ذلك، وإلا فمن المعلوم أنه لا يريد أنه كاملٌ ككمال الله» [شرح القواعد المثلى ص٤٦١].

المتن

ولما ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية ما قيل في شأن الأشعرية (ص٣٥٩) من المجلد السادس من مجموع الفتاوى لابن قاسم، قال: «ومرادهم الأشعريَّة الذين ينفون الصفات الخبريَّة، وأما من قال منهم بكتاب «الإبانة» الذي صنَّفه الأشعري في آخر عمره،ولم يظهر مقالة تناقض ذلك، فهذا يُعدُّ من أهل السنة».

وقال قبل ذلك (ص٣١٠): (وأما الأشعريَّة فعكس هؤلاء وقولهم يستلزم التعطيل، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وكلامه معنى واحد، ومعنى آية الكرسي، وآية الدَّين، والتوراة، والإنجيل واحد، وهذا معلوم الفساد بالضرورة). اهـ.

وقال تلميذه ابن القيِّم في النونية من شرح الهرَّاس (ط. الإمام):

واعلم بأن طريقهم عكس ... الطريق المستقيم لمن له عينان

إلى أن قال:

فاعجب لعميان البصائر أبصروا ... كون المقلَّد صاحب البرهان
ورأوه بالتقليد أولى من سواه ... بغير ما بصر ولا برهان
وعموا عن الوحيين إذ لم يفهموا ... معناهما عجبًا لذي الحرمان

وقال الشيخ محمد أمين الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان» (ص٣١٩/ ج٢) على تفسير آية استواء الله تعالى على عرشه التي في سورة الأعراف: (اعلم أنه غَلِطَ في هذا خلق لا يحصى كثرةً من المتأخرين، فزعموا أن الظاهر المتبادر السَّابق إلى الفهم من معنى الاستواء واليَدِ مثلًا في الآيات القرآنية هو مشابهة صفات الحوادث، وقالوا: يجب علينا أن نصرفه عن ظاهره إجماعًا).

قال: «ولا يخفى على أدنى عاقل أنَّ حقيقة معنى هذا القول أنَّ الله وصف نفسه في كتابه بما ظاهره المتبادر منه السابق إلى الفهم الكفر بالله تعالى، والقول فيه بما لا يليق به».

جعل أهل البدع ظاهر كلام الله ﷻ دالًّا على التمثيل، والتمثيل كفر؛ لأن الله يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، فمن جعل ظاهر كلام الله تمثيلًا فقد جعل ظاهر كلام الله كفرًا، وهذا من أبطل الباطل، فكلام الله حقٌّ، وكلامه صفته، وهو أعلم بنفسه، فقد أثبت لنفسه الصفات كما يليق بجلاله.



المتن

والنبي ﷺ الذي قيل له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، لم يبيِّن حرفًا واحدًا من ذلك، مع إجماع مَن يعتدُّ به من العلماء على أنه ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، وأحرى في العقائد -لاسيَّما ما ظاهره المتبادر منه الكفر والضلال المبين- حتى جاء هؤلاء الجهلة من المتأخرين فزعموا أن الله أطلق على نفسه الوصف بما ظاهره المتبادر منه لا يليق، والنبيُّ ﷺ كَتَمَ أن ذلك الظاهر المتبادر كُفْرٌ وضلال يجب صرف اللفظ عنه، وكلُّ هذا مِن تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنَّة، سبحانك هذا بهتان عظيم، ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال، ومن أعظم الافتراء على الله ﷻ ،ورسوله ﷺ.

أولًا: إذا قال: إن ظاهر كلام الله ﷻ يدلُّ على التمثيل، ومن ثَمَّ يجب تأويله-في الحقيقة تأويله أي تحريفه - كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالوا: معناها استولى؛ لأننا إذا قلنا: استوى، مثَّلناه بالمخلوق.

والذي دعاهم إلى صرف ظاهر لفظ القرآن إلى معنًى آخر، هو اعتقادهم بأنَّ ظاهر القرآن يُوهمُ أو يدلُّ على التمثيل، والتمثيل كفر.

يقول الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا قلنا إنَّ ظاهر القرآن المتبادر للذهن يفيد التمثيل إذًا يفيد الكفر، وهذا باطل.

ثانياً: قال الله لنبيه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، والنبي لم يبين في حرف واحد أن استوى معناه استولى، وقد أنزل الله عليه القرآن، وفيه سبع آيات ذُكِرَ فيها الاستواء على العرش، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ومن مهمَّته التي أمره الله بها أن يبيِّن للناس ما نزل إليهم.

ثم قال: لم يبين حرفًا واحدًا من ذلك، مع إجماع مَن يعتد بهم من العلماء على أنه ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة، يعني: النبي ﷺ لو رأى منكرًا في الآداب، أو الأخلاق، أو في الألفاظ، مثل: أن يأكل أحدٌ بشماله، أو يتكلَّم بكلام فاسد، لم يكن النبي ﷺ لِيَدَعَهُ؛ لأن سكوته ﷺ إقرارٌ، فلذلك كان النبي ﷺ ينكر كل خطأ صدر من أصحابه، بل أبلغ من ذلك إنكاره كل خطأ يقع في عهده حتى -وإن لم يكن أمامه- ، لأنَّ الوحي ينزل عليه، فلا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله دالًّا على التمثيل، أي دالًّا على الكفر، ويسكت النبي ﷺ! فلم يقل لهم ولو مرَّة واحدة: إن اليد معناها: القدرة، واستوى معناه: استولى، وينزل ربنا إلى السماء الدنيا يعني: ينزل أمره أو ملك من ملائكته، ما قال هذا مع أنه واجب عليه ﷺ أن يبيِّن للناس.

ولو فرضنا جدلاً أن ظاهر القرآن يدل على الكفر لوجب على النبي ﷺ أن يبين ذلك، وأن يُحذر أمتَه، وأن يقول: لا تفهموا صفات الله ﷻ على ظاهرها، ولما لم يقل النبي ﷺ ذلك، فنقول: إذا كان هذا كُفراً، فكيف يَسمع النبيُّ ﷺ الكفر ولا يُبَيِّنُه؟!!

كذلك لو فهم الصحابة خطأً لبعث الله جبريل عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ يخبره أن الناس فهموا خطأً، فيبين لهم، فربُّ العالمين يقيِّض صحابيًّا، ولو أدنى واحدٍ من الأعراب فيأتي إلى النبي ﷺ ويسأله سؤالاً، حتى إن الصحابة رضي الله عنهم كان يعجبهم الأعرابي العاقل حين يأتي ويسأل النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا يهابون النبي ﷺ، وما كانوا يكثرون عليه السؤال.

فالله يعلم بأن ظاهر الكلام لا يدل على الكفر، بل هو حق، وإنما يدل كلامه على إثبات الصفات على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى.

يقول الشيخ الشنقيطي ما معناه: يلزم من كلام المحرِّف أن النبي ﷺ لم

يبين ما في العقيدة من ضلال، وكان ظاهر الكلام كفرًا، أي ظاهر القرآن يدل على التمثيل وهذا كفر -هكذا يقولون والعياذ بالله -، أو أن ظاهر كلام الله موهمٌ للتمثيل، حتى يأتي هؤلاء الجهلة -ناس في القرن الثالث أو الرابع -من المتأخرين، فزعموا أن الله ﷻ أطلق على نفسه وصفًا ظاهره المتبادر منه لا يليق به، ويقولون: الله وصف نفسه بما لا يليق به!! وهذا لا يمكن.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله:(وكلُّ هذا من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنَّة)، فالله لم يأذن لهم بالتحريف، قوله:(سبحانك هذا بهتان عظيم)، والبهتان العظيم هو الذي يشير إليه الشيخ، وهو أن الرسول ﷺ كتم ولم يبين بأن ظاهر كلام الله ﷻ كفر وضلال، وترك الأمة على الضلال، سبحانك هذا بهتان عظيم.

قال: ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال، ومن أعظم الافتراء على الله ﷻ ،ورسوله ﷺ.



المتن

والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصْف وَصَفَ الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فالظاهر المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث.

قال: وهل ينكر عاقل أنَّ السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته وجميع صفاته؟ لا والله لا ينكر ذلك إلا مكابر! والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله؛ لأنه كفر وتشبيه؛ إنَّما جر إليه ذلك تنجيس قلبه بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق، فأدَّاه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله ﷻ وعدم الإيمان بها، مع أنه ﷻ هو الذي وصف بها نفسه، فكان هذا الجاهل مشبِّهًا أولًا، ومُعطِّلًا ثانيًا، فارتكب ما لا يليق بالله ابتداءً وانتهاءً.

نضرب مثلاً يوضح مقصود المؤلف، نقول: الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لديه علم، والطالب الصغير في المرحلة الدراسية الأولى لديه علم، فلو قلنا للطالب: كم صلاة في اليوم والليلة؟ فسيقول: خمس صلوات، فهذا علم، إذا قلنا: هذا الطالب عنده علم، والشيخ ابن باز عنده علم، فلا يتبادر إلى الذهن أنهما متساويان، فكيف يأتي إلى ذهن إنسان عاقل أن الخالق بصفاته يماثل المخلوق؟! فهذا بعيد جدًّا، وهو افتراء على الله.

فالله تعالى له علم، والدليل: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

والمخلوق عنده علم، والدليل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: المخلوق عنده علم قليل، ورَبُّ العالمين يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فكيف يتبادر إلى ذهن مسلم أنَّنا إذا وصفنا الله بالعلم، ووصفنا المخلوق بالعلم أنه يلزم منه التماثل؟!!

ومن زعم أن ظاهر آيات الصفات كفر وتشبيه، فقد وقع في التمثيل أَوَّلًا، ثمَّ أراد التخلُّص منه، فوقع في التعطيل ثانياً.



المتن

ولو كان قلبه عارفًا بالله كما ينبغي، معظمًا لله كما ينبغي، طاهرًا من أقذار التشبيه لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه أن وَصْفَ الله تعالى بالغ من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون قلبه مستعدًا للإيمان بصفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾. اهـ.

والأشعري أبو الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في آخر عمره على مذهب أهل السنة والحديث، وهو إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

ومذهب الإنسان ما قاله أخيرًا إذا صرَّح بحصر قوله فيه، كما هي الحال في أبي الحسن، كما يعلم من كلامه في «الإبانة».

أي لو قَدَرَ أهل البدع الله حق قدره لأثبتوا له ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله، ونفوا عنه ما نفاه عن نفسه، ونفاه عنه رسوله ﷺ ،من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

قوله: (**كما يعلم من كلامه في «الإبانة»**)، والأشاعرة ينكرون نسبة (كتاب الإبانة) لأبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ .



المتن

وعلى هذا فتمام تقليده اتِّباع ما كان عليه أخيرًا، وهو التزام مذهب أهل الحديث والسنة؛ لأنه المذهب الصحيح الواجب الاتِّباع الذي التزم به أبو الحسن نفسُه.

والجواب عن السؤال الثالث من وجهين:

الأول: أنَّ الحق لا يوزن بالرجال، وإنما يوزن الرجال بالحق، هذا هو الميزان الصحيح، وإن كان لمقام الرجال ومراتبهم أثر في قبول أقوالهم كما نقبل خبر العدل، ونتوقَّف في خبر الفاسق، لكن ليس هذا هو الميزان في كل حال، فإن الإنسان بَشَرٌ يفوته من كمال العلم وقوة الفهم ما يفوته، فقد يكون الرجل ديِّنًا وذا خلق، ولكن يكون ناقص العلم أو ضعيف الفهم، فيفوته من الصواب بقدر ما حصل له من النقص والضعف، أو يكون قد نشأ على طريق معيَّن أو مذهب معيَّن لا يكاد يعرف غيره، فيظن أن الصواب منحصر فيه ونحو ذلك.

الثاني: أنَّنا إذا قابلنا الرجال الذين على طريق الأشاعرة بالرجال الذين هم على طريق السلف، وجدنا في هذه الطريق من هم أجلُّ وأعظم وأهدى وأقوم من الذين على طريق الأشاعرة، فالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة ليسوا على طريق الأشاعرة.

بل قد توفي الأئمة الأربعة قبل أن يولد أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ.



المتن

وإذا ارتقيت إلى مَن فوقهم من التابعين لم تجدهم على طريق الأشاعرة، وإذا علوت إلى عصر الصحابة والخلفاء الأربعة الراشدين لم تجد فيهم من حذا حذو الأشاعرة في أسماء الله تعالى، وصفاته، وغيرهما مما خرج به الأشاعرة عن طريق السلف.

ونحن لا ننكر أن لبعض العلماء المنتسبين إلى الأشعري قَدَم صدق في الإسلام والذبِّ عنه، والعناية بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله ﷺ رواية ودراية، والحرص على نفع المسلمين وهدايتهم، ولكن هذا لا يستلزم عصمتهم من الخطأ فيما أخطؤوا فيه، ولا قبول قولهم في كل ما قالوه، ولا يمنع من بيان خطئهم ورَدِّه لما في ذلك من بيان الحق وهداية الخلق.

ولا ننكر أيضًا أن لبعضهم قصدًا حسنًا فيما ذهب إليه وخفي عليه الحق فيه، ولكن لا يكفي لقبول القول حسن قصد قائله، بل لابد أن يكون موافقًا لشريعة الله ﷻ ،فإن كان مخالفًا لها وجب رَدُّه على قائله كائنًا من كان؛ لقول النبي ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». ثم إن كان قائله معروفًا بالنصيحة والصدق في طلب الحق اعتُذِرَ عنه في هذه المخالفة، وإلا عومل بما يستحقه بسوء قصده ومخالفته.

فإن قال قائل: هل تكفِّرون أهل التأويل أو تفسقونهم؟

قلنا: الحكم بالتكفير والتفسيق ليس إلينا، بل هو إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ،فهو من الأحكام الشرعية التي مردُّها إلى الكتاب والسنة، فيجب التثبُّت فيها غاية التثبُّت، فلا يكفَّر ولا يُفسَّق إلا من دل الكتاب والسنة على كفره أو فسقه.

والأصل في المسلم الظاهر العدالة بقاء إسلامه وبقاء عدالته حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يجوز التساهل في تكفيره أو تفسيقه؛ لأن في ذلك محذورين عظيمين:

أحدهما: افتراء الكذب على الله تعالى في الحكم، وعلى المحكوم عليه في الوصف الذي نبزه به.

الثاني: الوقوع فيما نبز به أخاه إن كان سالمًا منه.

التساهل في تكفير المسلم يوقع قائله في محذورين:

المحذورالأول: افتراء الكذب على الله، فإذا قال إنسان عن مسلم: إنه كافر، وهو عند الله ليس بكافر، فقد افترى على الله؛ لأنَّ حكم التكفير راجع إلى الله ورسوله.

المحذور الثاني: الوقوع فيما وصف به أخاه إن كان سالمًا منه؛ لأن من قال لأخيه: يا كافر، فإن كان كما قال وإلا حارت عليه، فمسألة التكفير خطيرة جدًّا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فمِن عُيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومِن مَمادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يُكفِّرون[١].

وكذلك التبديع فلا تبادر إلى تبديع الآخرين، كما لا تبادر بتكفير الآخرين، فالتريُّث قبل الحكم على الآخرين بكفر أو فسق أو بدعة هو غاية العقل ، مع أن أكثرنا لا يحتاج إلى إصدار هذه الأحكام، أنت لست بحاجة أن تقول: فلان كافر، وفلان مبتدع، حتى من الناحية الشرعية لست بحاجة إلى أن تصدر حكمًا على أحد، لكن لا تكون المسألة أيضًا أن نواجه البدعة بالبدعة، فيأتي بعض الناس

(١) منهاج السنة (٥/٢٥١).

ويقول: حتى اليهود والنصارى لا نقول عنهم كفار، بل هم أهل الكتاب، نقول: صحيح ،هم أهل كتاب لكنهم كفار، وأهل الكتاب قسم من أقسام الكفار، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ ، فأهل الكتاب و المشركون كفار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فصار الناس على طرفي نقيض: منهم مَن يبادر بتكفير الناس والمجتمعات، ومنهم مَن لا يكفِّر اليهود والنصارى الذين كفَّرهم اللهُ ورسوله.

والحق: أن الكافر الذي كفَّره اللهُ ورسولُه سواء أكان من اليهود أم النصارى أم من غيرهم، فهذا يُحكم بكفره، وهو يشهد على نفسه بذلك، وأمَّا المسلمون فالواجب التريُّث غاية التريُّث في تكفيرهم.

إذا حكمت بالتكفير على شخصٍ بعينه، فأنت على خطر عظيم، قد تنجو، وقد لا تنجو، فالسلامة عدم الولوج في هذا الباب.

كذلك التبديع: أيضًا قد لا يكون فيه مصلحة، قد يظن بعض الناس أن من التمسك بالسنة والعقيدة أن يبادر إلى التبديع، حتى إن بعضهم قال: لا نترحم على ابن حجر والنووي؛ لأنهما من أهل البدع، بل قالوا: لنحرق كتب هؤلاء، فحرقوا فتح الباري، وحرقوا شرح النووي على مسلم، وهذا لا شكَّ غلو في التبديع.

وكان شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في محاضرة، فقالوا له: يا شيخ ما رأيك فيمَنْ يقول: لا نترحم على ابن حجر والنووي؟ فكان جواب الشيخ: إني داعٍ فأمِّنوا: اللّٰهم ارحم ابن حجر قالوا: آمين، اللّٰهم ارحم النووي، قالوا: آمين، فأعطاهم جواباً عمليًّا.

المتن

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا كَفَّرَ الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما»،وفي رواية: «إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»، وفيه عن أبي ذرٍّ ﷺ عن النبي ﷺ: «ومن دعا رجلًا بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه».

كذلك اللعن، إذا لعن رجلٌ رجلًا، صعدت اللعنة إلى السماء، فإن وجدت مسلكًا وإلَّا رجعت إلى قائلها، نسأل الله العافية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنَّ العبدَ إذا لَعَنَ شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذُ يمينًا وشِمالًا، فإذا لم تَجد مَسَاغًا، رَجَعَت إلى الذي لُعِنَ، فإنْ كان لذلك أهلًا، وإلا رَجَعَت إلى قائلها»**(١).



(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٤٩٠٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم: (١٢٦٩).

المتن

وعلى هذا فيجب قبل الحكم على المسلم بكفر أو فسق أن يُنْظَر في أمرين:

أحدهما: دلالة الكتاب أو السنة على أن هذا القول أو الفعل موجب للكفر أو الفسق.

الثاني: انطباق هذا الحكم على القائل المعين أو الفاعل المعين، بحيث تتم شروط التكفير أو التفسيق في حقه وتنتفي الموانع.

ومن أهم الشروط: أن يكون عالمًا بمخالفته التي أوجبت أن يكون كافرًا أو فاسقًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ﴾، أي: يكونُ الرسول في شق، وهو في شق آخر، والمراد أن تكون سنة الرسول ومذهبه في شق، وهو في شق آخر.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: غير سبيل الصحابة؛لأنه لما نزلت الآية لم يكن ثَمَّ مؤمنون في ذلك الوقت إلا الصحابة، وسبيل الصحابة، أي: طريقتهم.

والشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾، ومفهوم الآية أنه إذا لم يتبيَّن له الهدى، فلا يحكم عليه بالكفر أو الفسق.

أمَّا إذا كان يعلم أن هذا حرام، ولكن لا يعرف عقوبة هذا الفعل، وما يترتب عليه فإنه لا يعذر، والدليل حديث الرجل الذي وقع على أهله في نهار رمضان،

فإنه أتى إلى النبي ﷺ فقال له: هلكتُ، فقال رسول الله ﷺ «**وما أهلكك؟**»[(١)] قال: وقعتُ على أهلي وأنا صائم، فهذا يعلم الحكم، ولكنه يجهل العقوبة وما يترتَّب على هذا الفعل؛ ولذلك أتى إلى النبي ﷺ يستفتيه، ومع ذلك لم يعذره النبي ﷺ.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٧٠٩)، ومسلم برقم: (١١١١).

المتن

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

ولهذا قال أهل العلم: لا يُكفَّر جاحد الفرائض إذا كان حديث عهدٍ بإسلام حتى يُبيَّن له.

كما فعل مَسْلَمَةُ الفتح لما مروا على شجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم ، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى:اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون، لتَركَبُنَّ سنن من كان قبلكم**»(١) ،فبيَّن لهم رسولُ الله ﷺ، ولم يبادر بتكفيرهم لعلمه أنهم يجهلون.



(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢١٨٠)،وصححه الألباني في تخريج المشكاة برقم:(٥٤٠٨).

المتن

ومن الموانع أن يقع ما يوجب الكفر أو الفسق بغير إرادة منه، ولذلك صور:

منها: أن يُكرَهَ على ذلك فيفعله لداعي الإكراه لا اطمئنانًا به، فلا يكفر حينئذ؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

ومنها: أن يُغلَقَ عليه فِكْرُه فلا يدري ما يقول لشدة فرح أو حزن أو خوف أو نحو ذلك.

ودليله ما ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةٌ عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك! أخطأ من شدة الفرح».

في زمن الدولة العباسيَّة وقع الإكْرَاه على تأويل الصفات، فالذي لا يقول: القرآن مخلوق يُعَذَّب ويُسجن، وكونك أنت اليوم قد عافاك الله، ولا أحد يجبرك على اعتقاد الباطل، فلا تظن أن هناك من لا يُجْبَر على الكفر، بعض الخادمات الكافرات تأتي إلى بلاد المسلمين وتُسلِم، وإذا رجعت إلى بلدها أُكرِهَتْ على الكفر، فلو أن الإسلام ترسَّخ في قلبها وكتمت إسلامها ودينها، فيقال عنها: لها عذر؛ خاصة إذا كانت تحت وطأة التعذيب ونحو ذلك، فالإنسان قد يُكْرَه على الكفر.

قال بعض العلماء: إنَّ حكم نطق المكرَه بالكفر مع كون قلبه مطمئنًّا بالإيمان: من خصائص أمة محمد ﷺ، وإن الأمم السابقة إذا أُكْرِهَ أحدهم على الكفر،فإن كفر فهو كافر، ويجب عليه أن يصبر ولو قُتل، واستدلُّوا بأدلة منها:

الأول: قوله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ ،فلا مجال أن يتَّقوا منهم تقاة، إما أن يَكفُروا،وإما أن يُرْجَموا.

الثاني: قصة أصحاب الأخدود، حفرت لهم الأخاديد وأُضرمت فيها النيران، وقالوا: من لم يرجع عن دينه فاقذفوه، وأخذوا يقذفون الناس في النار، فلم يُظْهِر بعضُهم تراجعه عن دينه، وإنَّما قُذِفَ في النار.

الثالث:قول النبي ﷺ:«**إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[1]، فخص اللهُ هذه الأمةَ بأحكام ليست كالأمم السابقة، إكرامًا لِرسولها ﷺ ولأتباعه من أُمَّتِهِ.

ثم ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا على أن إغلاق الفكر من شدة الفرح –من موانع التكفير– وهو حديث الذي أضل راحلته في أرض فلاةٍ فقال: (اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك) ،وهذا القول كُفْرٌ، لكن النبي ﷺ قال: «**أخطأ من شدة الفرح**»، ولم يقل: كفر؛ لأنه أُغْلِقَ عليه من شدَّة الفرح.



(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان برقم:(٧٢١٩)، وصححه الألباني في الإرواء برقم:(٨٢).

المتن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص١٨٠/ ج١٢) مجموع الفتاوى لابن قاسم: «وأما التكفير، فالصواب أن مَن اجتهد مِن أمة محمد ﷺ وقصد الحق فأخطأ لم يُكفَّر، بل يغفر له خطؤه، ومن تبين له ما جاء به الرسول فشاقَّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى ،واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر، ومن اتبع هواه، وقصَّر في طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاصٍ مذنب، ثم قد يكون فاسقًا، وقد يكون له حسنات ترجح على سيئاته» ا هـ.

وقال (ص٢٢٩/ ج٣) من المجموع المذكور في كلام له: «هذا مع أني دائمًا -ومن جالسني يعلم ذلك مني- أني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسبَ معيَّنٌ إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى، وإني أقرِّر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يَعُمُّ الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العمليَّة.

وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية».

وذكر أمثلة ثمَّ قال: «وكنت أبيِّن أن ما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا ،فهو أيضًا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين» ا هـ.

قوله: (**المسائل الخبرية القولية**)، أي: العقيدة.

قوله: (**لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين**)، فالإطلاق كقول أهل السنة: من قال: (إن القرآن مخلوق فقد كفر)؛ لأنه مُكذِّبٌ لقوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾.

لكن أهل السنة ما كانوا يكفِّرون الناس بأعيانهم؛ لأن تكفير المعيَّن يحتاج إلى توفر الشروط وانتفاء الموانع، فلا يحكم على أحد بالتكفير أو بالتفسيق إلا بعد تحقُّق الشروط وانتفاء الموانع، فهناك فرق بين الإطلاق والتعيين، التعيين بمعنى أن تعيِّن فلانًا بالكفر، فتقول: فلانٌ كافر، والإطلاق بمعنى عدم تعيين شخص، فتقول: من قال كذا فقد كفر، ومن فعل كذا فقد كفر.



المتن

إلى أن قال: «والتكفير هو من الوعيد؛ فإنَّه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يُكفَّر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجَّة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبُت عنده أو عارضها عنده معارض آخر، أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا».

وكنتُ دائمًا أذكر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال: «إذا أنا مِتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليَم، فو الله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين»، ففعلوا به ذلك فقال الله:«ما حملك على ما فعلتَ؟ قال: خَشيَتُك، فغُفِرَ له».

فهذا رجل شَّكَ في قدرة الله وفي إعادته إذا ذُرِيَ بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك.

والمتأوِّل من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من مثل هذا. اهـ.

وبهذا عُلم الفرق بين القول والقائل، وبين الفعل والفاعل، فليس كلُّ قول أو فعل يكون فسقًا أو كفرًا يحكم على قائله أو فاعله بذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص١٦٥/ ج٣٥) من «مجموع الفتاوى»: «وأصل ذلك أن المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع، يقال: هي كفر قولًا يُطلق كما دلتْ على ذلك الدلائل الشرعية، فإن الإيمان من الأحكام المتلقَّاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم،

ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى يثبت في حقه شروط التكفير، وتنتفي موانعه، مثل من قال: إن الخمر أو الربا حلال؛ لقرب عهده بالإسلام؛ أو لنشوئه في بادية بعيدة، أو سَمِعَ كلامًا أنكره، ولم يعتقد أنه من القرآن الكريم ، ولا أنه من أحاديث رسول الله ﷺ كما كان بعض السلف ينكر أشياء حتى يثبت عنده أن النبيَّ ﷺ قالها».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الرجل الذي أوصى أولاده أن يحرقوه بعد موته: إنَّه شك في قدرة الله -والشك في قدرة الله كفر-، والذي حمله على هذا الشكِّ شدة خوفه وخشيته، حاول أن يبحث عن طريقة ينجو بها من عذاب الله، فوصَّى بهذه الوصية، فحملته الخشية على ذلك فأغلق عليه من شدة الخشية، فظهر بتلك الطريقة التي أوصى بها أبناءه.

إذًا يوجد ضوابط للتكفير، ليست المسألة على إطلاقها.

فائدة: من الأحاديث التي فُهِمت على غير وجهها: حديث حاطب بن أبي بلتعة ﷺ، وفيه أن حاطباً أراد أن يفشي أمر النبي ﷺ من أجل أمر دنيوي إذ لم يكن من قريش وإنما كان دخيلاً عليهم، وكانت له قرابة في مكة، فأراد أن تكون له عليهم يدٌ، يعني: معروف، حتى يحموا له قرابته، فأرسل لهم كتابًا أن النبي ﷺ سيأتيهم ليقاتلهم، فأوحى اللهُ ﷻ إلى عبده محمد ﷺ، فأرسل النبيُّ ﷺ عليًّا والمقداد و الزبير إلى المرأة التي كان الكتاب معها، وأخرجوه منها، وفيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش... فنزل قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

وأكثر أهل البدع الذين يكفِّرون الحكَّام بغير حقٍّ، ويقولون: هؤلاء الحكام موالون للكفار،فيقال لهم:هذه مصالح، وهذا ضعف، وهذه سياسة، فيقولون: لا، هؤلاء كفار، فنقول لهم: ليسَ كُلُّ موالاة للكفَّار كُفْرًا، وهل كَفَرَ حاطبٌ ﷺ بفعله؟ حتى عمر ﷺ قال: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، قال النبي ﷺ: « **إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم**»(١) ،فلو كَفَرَ بهذا الفعل، فلن ينفعه شهوده بدرًا قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ ، يعني: يا رسول الله، ﴿ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

إذًا الكفر محبطٌ للرسالة و النبوة، وحاشا رسول الله ﷺ أن يشرك بالله، لكن قال الله تعالى ذلك لبيان شناعة الشرك ، حتى يحذر من هو دون النبي ﷺ، إذا كان رسول الله ﷺ لو أشرك لحبط عمله، فكيف بمَن هو بحاطب ﷺ، لو أشرك أو كفر كفرًا أكبر ؟! ما ينفعه شهوده بدرًا ولا غير ذلك، لكن هذا ممَّا يدل على أن المسألة فيها تفصيل، كما هو قول أهل السنة.

وقول شيخ الإسلام رحمه الله: (ولا أنَّه من أحاديث رسول الله ﷺ كما كان بعض السلف ينكر أشياء حتى يثبت عنده أنَّ النبيَّ ﷺ قالها) ا.هـ

مثاله قول عائشة رضي الله عنها: (جعلتمونا كالحمير والكلاب)، تعني: معشر النساء، لما بلغها أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرحل، فإذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرَّحل فإنَّه يقطع صلاته الحمارُ والمرأةُ والكلب الأسود**»(٢) ثم قالت: كنت أضطجع والنبي ﷺ يصلي، فهي رضي الله عنها استنكرت أن تكون المرأة تقطع صلاة الرجل، و وجه استنكارها أنَّها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٠٠٧) ، ومسلم برقم: (٢٤٩٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٥١٠).

رضي الله عنها كانت تضطجع أمام النبي ﷺ وهو يصلي، لكن ثبت في السُّنة أن النبي ﷺ قال ذلك، فالحجة في كلام النبي ﷺ، لا في كلام عائشة رضي الله عنها، كما أنَّ الاضطجاع أمام المصلِّي ليس كالمرور بين يديه.

وممَّا أنكرته عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بال قائمًا فكانت تقول: (من حدثكم عن النبي ﷺ أنه ﷺ كان يبول قائمًا فلا تصدقوه) (١)، لكن بما أن صحابياً روى ذلك عن النبي ﷺ أنه أتى سباطة قوم وبال قائمًا، نصدِّقه (٢).

وعروة بن مسعود لما كان مشركاً جاء يعاهد النبي ﷺ قال: رأيتهم يتبادرون إلى وضوئه، فالماء الذي يسقط من النبي ﷺ يتبادرون إليه، وقال: وما تنخم نخامة إلا وقعت بيد أحدهم فدلك بها صدره ووجهه (٣)، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فالواجب على المسلم إذا بلغه حديث أن يتريَّث ويتثبَّت، فإذا ثبت فالواجب عليه أن يَقْبله، والناس في هذا الأمر على طرفيْ نقيض، بعض الناس يأتي بقصص ما أنزل الله بها من سلطان يزعمُ أنَّها كرامات، كالصوفية يأتون بعجائب وغرائب، وبالأخبار التي ما أنزل الله بها من سلطان، بحجة أن الله على كل شيء قدير! ! حتى إن أحدهم يقول: إن النبي ﷺ يوميًّا يحضر الحلقة عندنا، وعند حلقات أهل الذكر، فإذا قلت له: ما دليلك؟ قال: الله على كل شيء قدير.

فمِنْ توفيق الله عز وجل لأهل السنَّة أنهم وسط بين الغلاة والجفاة، والله يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، يعني: عدلًا لا إفراط، ولا تفريط، هكذا الأمة الإسلامية وسط في كل باب من الأبواب.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (١٢)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٢٠١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٢٤)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٧٣١).

المتن

إلى أن قال: « فإنَّ هؤلاء لا يكفَّرون حتى تقوم عليهم الحجة بالرسالة، كما قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان» اهـ.

وبهذا علم أن المقالة أو الفعلة قد تكون كفرًا أو فسقًا، ولا يلزم من ذلك أن يكون القائم بها كافرًا أو فاسقًا؛ إمَّا لانتفاء شرط التكفير، أو التفسيق، أو وجود مانع شرعي يمنع منه، لكن من انتسب إلى غير الإسلام أُعطِيَ أحكام الكفار في الدنيا، ومن تبيَّن له الحق فأصرَّ على مخالفته تبعًا لاعتقاد كان يعتقده أو متبوع كان يعظِّمه، أو دنيا كان يؤثرها فإنَّه يستحق ما تقتضيه تلك المخالفة مِن كفر أو فسوق.

فعلى المؤمن أن يبني معتقده وعمله على كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فيجعلهما إمامًا له يستضيء بنورهما، ويسير على منهاجهما؛ فإن ذلك هو الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وليحذر ما يسلكه بعض الناس من كونه يبني معتقده أو عمله على مذهب معيَّن، فإذا رأى نصوص الكتاب والسنة على خلافه حاول صرف هذه النصوص إلى ما يوافق ذلك المذهب على وجوه متعسِّفة، فيجعل الكتاب والسنة تابعين لا متبوعين، وما سواهما إمامًا لا تابعًا! وهذه طريق من طرق أصحاب الهوى؛ لا أتباع الهُدى.

أي أنَّ مِن الناس مَنْ يحاول أنْ يُخْضِعَ النصوص لعقيدته، لا أنْ يَخْضَعَ للنصوص، وإنما يلوي أعناق الآيات، والأحاديث؛ لتوافق مذهبه، وهذا باطل.

المتن

وقد ذمَّ اللهُ هذا الطريق في قوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

والناظر في مسالك الناس في هذا الباب يرى العَجَبَ العُجَاب، ويعرف شدَّة افتقاره إلى اللجوء إلى ربه في سؤال الهداية والثبات على الحق، والاستعاذة من الضلال والانحراف، ومن سأل الله تعالى بصدق وافتقار إليه عالمًا بغنى ربه عنه، وافتقاره هو إلى ربه، فهو حريٌّ أن يستجيب الله تعالى له سؤله، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

فنسأل الله تعالى أنْ يجعلنا ممَّن رأى الحق حقًّا واتْبَعَهُ، ورأى الباطل باطلًا واجتنبه.

وأن يجعلنا هداة مهتدين، وصلحاء مصلحين، وألَّا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب.

والحمد لله ربِّ العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبيِّ الرحمة وهادي الأمة إلى صراط العزيز الحميد بإذن ربهم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا الكلام السديد من عالِمٍ رشيد، ليس عليه مزيد.